
عبد الله حمادي
(تحقيق و تقديم و تعليق)
سيرة المجاهد
خير الدّين بربروس
المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية
دار الهضبة



سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر

لمؤلف مجهول

تحقيق وتقديم وتعليق

الدكتور عبد الله حمادي

حياة المجاهد خير الدّين بربروس 1483 – 1546

أ – من إمارة رودس إلى إمارة الجزائر

ولد المجاهد خير الدّين بربروس في جزيرة مدلّلي (Médil, Médelin, Mitilène) إحدى جزر اليونان والتي تسمى قديما جزيرة لسبوس حوالي 1483 وتوفي في 953 هجرية الموافق سنة 1546 ميلادية ودفن بجهة بشكطاش على شاطىء البوسفور في المحلّ المعدّ لمرسى الدونانمات العثمانية أو قصره المطلّ على مضيق البوسفور بالآستانة عن عمر يناهز 63 عاما[1]؛ ويقدم لنا المخطوط الذي عكفنا على تحقيقه معلومات دقيقة وضافية عن حياة هذا الرجل الفذّ إذ ورد في الصفحة الأولى من المخطوط قول المؤلف: «... أصل هذين الرّجلين – يقصد عرّوج وخير الدّين – من جزائر الرّوم يقال لها مدلّلي وذلك لمّا فتح محمد (الفاتح) جزيرة مدلّي، أودع فيها عسكرا برسم حراستها، وجعل عليهم رايسا منهم، فبقوا في تلك الجزيرة مدّة طويلة، فطلبوا من رايسهم أن يكتب إلى السلطان ويلتمس منه الإذن في نكاح بنات أهل الذمّة الكائنات بالجزيرة المذكورة...» ومن بين هؤلاء العسكر رجل يقال له يعقوب (Sipahi Roumiliot Yakoub d'Yenidjewardar)؛ وهو انكشاري أو سباهي من فاردار؛ والاحتمال الأكثر ترجيحا أنّه مسيحي ارتكب جريمة في موطنه، وحتّى ينجو من العقاب فرّ إلى صفوف جيش العثمانيين واعتنق ديانتهم الإسلامية وبالتّالي نجا من العقاب، هذا ما استنتجه كلّ من الباحثين Sander Rang وFerdinand Denis في كتابهما تاريخ الإخوة بربروس. وحسب حاجي خليفة إنّه مرتدّ من ألبانيا هرب إلى جزيرة مدلّي بعد ارتكابه لجرائم يعاقب عليها القانون.

1. أنظر تفاصيل عن حياته في دائرة المعارف الاسلامية المجلد التاسع ص: 64 – 69 .

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

ردمك : 9-817-64-9961-978
الايداع القانوني : 882-2009

ولمّا وافق السلطان محمد الفاتح على طلب الحامية قائلا لهم: «... من أراد من العسكر أن يتزوّج فليتزوّج من شاء، ومن أبى من أهل الذمّة يُجبر على ذلك»،كان من نصيب يعقوب الهارب من العدالة والمنخرط في الجيش الانكشاري العثماني،الزّواج من امرأة مسيحية يقال لها Catherine (كاترين)، وهو ما ينسجم مع سياق نصّ المخطوط، وقد تزوّج معها في مدينة Bonava وكانت آنذاك أرملة لأحد القساوسة اليونانيين، وكان لها معه من الأبناء ولدان وبنت، فأنجبت من يعقوب أربعة أبناء يؤكد صاحب هذا المخطوط أنّ ترتيب ولادتهم كان كالتالي: «... تزوّج بنتا من بنات النّصارى الذميّات فرُزق أربعة بنين: إسحاق وعرّوج وخيرالدّين والياس، وترتيبهم في السنّ على حسب ذكرهم»، وبالتّالي ليس صحيحا من يعتقد أنّ خيرالدّين هو أصغرهم.

هكذا جاء الإخوة بربروس إلى الحياة في كنف عائلة مسيحية ومن أمّ كانت زوجة لأحد رجال الدّين المسيحيين،ومن أب مرتدّ حديث العهد بالإسلام، وفي محيط معاد لكلّ ما هو إسلاميّ ؛ كما شهدت المرحلة صعودا مثيرا للزّحف الإسلامي على بوّابة أوروبا الشرقية ممثّلا في فتح القسطنطينية على يد محمّد الفاتح عام 857/1453 والذي كانت رغبته تسعى لغزو روما وربط جواده بباب كنيسة بطرس.

يظهر أنّ الأبناء الأربعة اعتنقوا ديانة والدهم الجديدة دون أن تلغي ما بكيانهم من رواسب دينية مسيحية من جانب الأمّ، وكذلك لغوية لا تمتّ بصلة إلى العربية أو حتّى التركية ؛ فالأبناء ثمرة مزيج عرقي وديني ولغوي يتناسب مع محيط تلك الجزر اليونانية التي تعجّ بالصّراعات الدّينية والسياسية.

تقول بعض المصادر إنّ نشأة أبناء يعقوب كانت بجوار جزيرة رودس

Rhodes، وأنّ فرسان القدّيس حنّا الأورشليمي الذين ظهروا على مسرح الأحداث آنذاك، ولعبوا دور العدو الشرس ضدّ العثمانيين، وهم الذين طردوا من بيت المقدس من طرف سلطان مصر عام 1251 وكانوا ينشطون آنذاك باسم Hospitaliers Les Fréres محاولين على إثر طردهم إيجاد موقع للاستقرار فيه فاحتضنهم بجزيرة قبرص Chypre أميرها هنري الثاني (Henri 2) الذي مكّنهم من مدينة ليمازول (Limazol) كملجأ لهم بعد المطاردة وهو ما دفع بقائدهم قيوم دي فيليارات (Guillaume de Villaret) أن ينصّب نفسه حاميا للجزيرة أو سيدا عليها، وشرع في التّفكير في استقدام أتباعه ومعاونيه، وأخيرا استقرّ المطاف بتنظيمه في جزيرة رودس.

كان هذا التنظيم الدّيني ظاهريا يمارس أنشطة إنسانية ممثّلة في الأعمال الخيرية كإسعاف المحتاجين والمرضى والمشرّدين وإطعام أهل السبيل ؛ وكما هو معروف فإنّ جزيرة رودس كانت تابعة للإغريق، وكانت من أهمّ المراسي التجارية والعسكرية، وكذلك من أشهر المحطات التي تتقاطع فيها كلّ سفن العالم المختلفة الجنسيات والأعراق في ذلك الوقت.

لكنّ هذا التنظيم الدّيني الذي ظاهره التّقوى والبرّ والإحسان داخل أتباعه أطماع سعت للاستيلاء على الجزيرة وتملّكها وجعلها قاعدة لإمارة موعودة وخاصة أيام قائدهم ريموند دي باي (Raymond du Pay) الذي حكّم السيف في رقاب كلّ من هو ليس مسيحيا، فأظهر جبروتا وتعصبا دينيا كان ضحيّته العديد من المسلمين في تلك المناطق المتاخمة لإمارته الدّينية.

للانقضاض على أعداء عقيدتهم والتعرّض لإبادة كلّ مخالف لقناعاتهم الدينية والعنصرية، وأطلقوا على تنظيمهم الوليد اسم «فرسان رودس» (Les Chevaliers de Rhodes) الذي سيتولّى قيادة الحرب المقدّسة (Gerra Santa).

ولمّا كان ما ينتظرهم من غزو ومغامرات سيكون ساحته البحر، فقد عمدوا إلى تجهيز جيشهم بالعدّة والعتاد اللاّزمين لخوض عباب البحر ومخاطره، فصار لهم بذلك أسطولا يعرفون به اقتصرت مهمّته على السطو والنّهب والإغارة في البحر، والسواحل والجزر والمرافئ وغيرها من الجهات البحرية.

شرع هذا التنظيم في أولى مهامّه على الإغارة على سواحل شواطئ تركيا العثمانية، وكلّ الجزر المترامية في حوض المتوسط، وتعاظم دور هؤلاء الفرسان القراصنة حتّى بات يشكّل خطرا محدّقا بجسد الخلافة العثمانية، وخنجرا موجّها إلى خصرها مباشرة، كما باتت قاعدتهم رودس محطّة لجلب أنظار حماة الصّليب والمغامرين الحاقدين على التمدّد العثماني في أرجاء الأراضي المسيحية، وكذلك على انتشار «الإسلام» وحلوله محلّ الدّين المسيحي في عقر داره، فاستحال بموجب هذا الصراع والتصوّر العدائي الديني حوض المتوسط إلى جزيرة نهب وسلب وسطو مسلّح، وانعدام أمان يبعث على القلق والخوف الدّائم، وعدم الاستقرار والفوضى المحدّقة بكلّ الدول والإمارات في ذلك العهد.

لقد تمكّن هذا التنظيم من استعادة جزيرة مدللّي مسقط رأس الإخوة بربروس عام 1501 بدعم مباشر من نداءات البابا إلى كافة الطوائف المسيحية ؛ فجنّد لها جيوش ملك فرنسا وجيوش الملكين الكاثوليكيين

إيزابيلا وفرنادو ملكا إسبانيا، وجيوش ملك البرتغال، وكذلك جيوش الجنويين، وقد ذكرت بعض المصادر دفاع الأخوين عرّوج وخيرالدّين آنذاك على جزيرتهما ضدّ هذا الهجوم المسيحي المنظّم، ومشاركتهما، وربّما لأوّل مرّة، في الاحتكاك المباشر مع مقتضيات الصّراع العالمي الذي كان يتحرّك بخلفية دينية.

ويظهر من خلال هذه التّجربة التي عاشها الأخوان أنّهما اختارا الانحياز إلى قناعات والدهما وصارا منذ ذلك التّاريخ يحطبون في حبل الخلافة العثمانية ولو بطريقة غير مباشرة، عن قناعة واختيار، كما باشرا حرفة القرصنة التي تعني اللُّصوصية البحرية في أقصى تجلّياتها ؛ ونقول هنا اللُّصوصية التي تقابلها في اللغات الأجنبية عبارة (Piratrie) ؛ وهي السّطو في البحر لأغراض خاصّة،وباستقلالية تامّة عن أيّ إيالة يحتمي بها لصوص البحر (Les Pirates) كما هو الشّأن مع فرسان رودس الذين بدءوا ينشطون آنذاك تحت حماية ومباركة البابا وباقي الملوك المسيحيين، ومن هنا يصدق أن نطلق عليهم تسمية «القراصنة» التي تقابلها في اللغات الأجنبية (Les Corsaires) ؛ وهي اللّصوصية المقنّنة بشرعية قوّة حامية لذلك التنظيم، وإن شئت لصوصية مشروعة[1]، وهو ما سيعيش تجربتها الطويلة المجاهد خيرالدّين بربروس دون إخوته سواء في دفاعه عن الجزائر، أو أثناء قيادته للأساطيل العثمانية ؛ وأقول دون إخوته لأنّ كلاّ منهم – إسحاق الذي قتل في قلعة بني راشد بالغرب الجزائري وعرّوج

1. للمزيد حول هذه التضية أنظر الدكتور عبد اله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب، نشر ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 48 – 49، وانظر كذلك مجلّة المصادر التي يصدرها المركز
الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، عدد 6 مارس 2002 «جزائر القرن
السادس عشر من خلال وثائق الأسرى الإسبان» من صفحة: 256 إلى 258.

الذي قتل بدوره بجبل بني يزناسن قرب تلمسان بالغرب الجزائري، والياس الذي قتل في جزيرة رودس– قضوا كما لاحظنا وهم لم يتجاوزوا درجة (Pirate إلى رتبة قرصان Corsaire).

لكن مع وصول السلطان سليمان إلى العرش عام 1520 عرفت الأحداث مسارا مغايرا إذ أظهر في قيادته عزما قويا على استئصال شأفة هؤلاء القراصنة من فرسان رودس والمتلفّعين بمسوح الرهبان ؛ وتقول عنه المصادر أنّه كان دائم التذكّر لوصيّة والده السلطان سليم القائلة على لسانه: «حتّى يهدأ الأمر ويستقرّ الحكم لبني عثمان فعليهم بتشديد القبضة على بلغراد وعلى جزيرة رودس» ؛ فهذه الوصيّة كانت ضمن الهاجس المركزي للسلطان العثماني الجديد سليمان، وحتّى يحقّق هذه الرّغبة بادر بإحكام الحصار على جزيرة رودس، وتشديد الخناق عليها من أجل استئصالها وإراحة جسم الخلافة المترامي الأطراف من هذه الشوكة المغروزة في كعب الإمبراطورية المهيبة ؛ ولمّا حان موعد الحسم وقف في مقدّمة جيوشه مذكّرا إياهم بمدى خطورة هذا الورم الخبيث الذي ينخر جسم الخلافة، ورأى أن لا شفاء لجسم الخلافة منه سوى باستئصاله من جزيرة رودس، وقد ذكّر كذلك في هذا الخطاب التّاريخي بصنيع هذه الحثالة من شذّاذ الآفاق وقطّاع الطرق، وأنّه ماض في يقينه إلى اجتثاثهم من الأصول حتّى ولو كان ثمن ذلك باهظا لجيوش الإمبراطورية كلّها.

من هذه الخلفية المفعمة بالجهاد والمواجهة بزغ نجم الأخوة إسحاق Ishak وعرّوج Aruch أو Orot أو Horruc وكذلك Homich كما ورد في المصادر الأجنبية، وخيرالدّين Khize (خضر) والياس ؛ فأولهم وكبيرهم إسحاق كان يمارس حرفة التجارة البحرية، في حين كان الثلاثة على عهد السلطان با يزيد الثاني وسليم الأول يمارسون القرصنة البحرية في هيئة

تجار البحر، وفي إحدى موجهاتهم مع فرسان القدّيس حنّا الأورشليمي قتل أخوهم إلياس وأسر عرّوج ولم يتم إطلاق سراحه إلاّ بمساعي أخيه خيرالدّين الذي فصّل صاحب هذا المخطوط مجريات أحداث خلاصه.

من هنا يمكن استنتاج العديد من الفرضيات التي سيبنى على أساسها مستقبل الأخوة ؛ لقد ذاق عرّوج طعم الأسر في مقتبل شبابه، وكانت الفترة التي عاشها والتجربة التي مرّ بها سببا مباشرا في تنميته تنمية المقاتل الشرس الذي يكنّ للمسيحيين عداء شديدا لكونه ذاق على أيديهم إهانة الأسر ومختلف أنواع التّعذيب، و من هناك يمكن استخلاص تجربة الإخوين عرّوج وخيرالدّين ابتداء من مرورهما بجزيرة رودس، ومعرفة أحوالها، ومعاينة أهدافها كقاعدة متقدّمة للدّفاع عن الدّين المسيحي من طرف فرسان نذروا أنفسهم للدّفاع عن قناعات دينية راسخة في أعماقهم، وكحامية اعتمدت على طالعها الدّيني قبل غيره من المصالح الدنيوية، كما عايش الأخوة استفحال أمر هذه الإمارة واشتداد عودها إلى درجة بلغت فيه مبلغا يحسب له ألف حساب ؛ فلما لا تكون هذه الخلفية هي الباعث المباشر إلى ما سيؤول إليه مصير حياة الأخوين بربروس في المستقبل؟.

إنّ الباحث وهو يستقرئ هذه الخلفية لا يسعه سوى التّسليم بالمقادير التي رمت بالأخوين في عرض سواحل المتوسط الغربية لترسم لهما مسارا شبيها في مجرياته بمسار فرسان رودس، إذ قدّر لهما أن يشيّدا قواعد إمارة عسكرية دينية شبيهة في محتواها بإمارة جزيرة رودس، وبالتّحديد في مدينة الجزائر التي دخلها عرّوج فاتحا قبل وصول أخيه خيرالدّين عام 1516، ومن هناك جاء احتفاء الجزائريين الدّائم بهذا الاسم الأسطوري ليجعلوا منه أبا لكلّ الجزائريين لحظة شعورهم باليتم والمهانة والانكسار ساعة حضور العدوّ الإسباني الرّابض في قلعة تمنفوس قبالة الجزائر،

فصار عرّوج يعرف في المخيال الشعبي منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا باسم «بابا عرّوج»، وهي كنية أحرزها دون إخوته الذين كافحوا مثله عن الجزائر وقدّموا أرواحهم فداء لها، والأمر ذاته حظي به خيرالدّين، فيما بعد، الذي لقّب «ببربروس» دون إخوته جزاء له على الرّعب الذي أسكنه في قلوب أعدائه طيلة أربعين سنة من جهاد متواصل واحتكاك بالعدوّ دائم، حتّى جعل البابا المسيحي يصدر ما يشبه الفتوى الوارد ذكرها في المخطوط والتي جاءت ضمن السياق التالي: «... فإنّهم لم يقاتلوا خيرالدّين لمقالة صدرت من البابا، فيما زعموا، أنّه أوصى النّصارى أن لا يقاتلوا بربروس لأنّه لا يتوجّه إلى ناحية إلاّ ويظفر بها فيكون المقاتل له ساعيا في هلاكه»، كما أنّ المخيال الشعبي المسيحي لم يتأخّر بدوره، هو الآخر، عن نعت بربروس بصاحب اللّحية الصّهباء المخيفة والمروّع اسمه لأطفالهم وغيرها من القصص الشعبية المثيرة التي انتشرت في ثنايا ما صار يعرف بأدب الأسر (Literatura del Rescate).

ب – من ابن القاضي إلى الدونكشوط

لقد قيّضت فرصة حضور الأخوين بربروس إلى شواطئ المتوسط إلى شيخ من شيوخ زواوة بمناطق بجاية أن تنسج من حوله الأساطير في مملكته التي تعرف بإمارة كوكو[1] ؛ لأنّ جدّ شيخ هذه الإمارة المعلّقة في أهداب الجبال هو قاضي بجاية أيّام الدّولة الحفصية (627–943 / 1229

1. يقول عنها شوفالييه في سياق حديثه عن ابن القاضي المتمرد: «... ومهما يكن من الأمر فقد انسحب إلى جباله والتفت حوله قبائل آيت يحيى وآيت بوشايب وآيت فراوسن، وقام بتحصين مملكته مملكة الكوكو التي لم تدم إلاّ قليلا حتى في عصر ازدهارها وفخامة كقرية ريفية يسكنها 1600 نسمة، والتي تجثم على الصخور الوعرة بحيث جعلت الدفاع عنها سهلا، ولكنها كانت مجهّزة بجيش هام قوامه 5000 رجل يحملون سلاحا و1500 حصان وذلك لحفظ النظام في الدّاخل والقيام بحملات وغزوات خارج القرية». أنظر شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 – 1541)، ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص: 37

– 1526) لذا حمل كنيته المهنية وتسمّى بأحمد بن القاضي، والذي ليس لأصله علاقة بابن القاضي صاحب مصنّف «دُرّة الحِجال ...» الذي يعود أصله إلى فاس، لكنّ أحمد بن القاضي شيخ قبائل بجاية جاءت كنيته من ممارسة جدّهم الغُبريني للقضاء شأنه في ذلك شأن معاصره ابن قُنفذ القسنطيني الذي يكنّى بدوره بابن الخطيب نتيجة ممارسة جدّه للخطابة طيلة سنوات ؛ فهذا البربري الحكيم والفقيه والد أحمد بن القاضي هو الذي تنبّأ بقدوم رجل من المشرق على وجهه شامة حسب ما يذكر صاحب هذا المخطوط على لسان ابن القاضي: «... وقد كان أبي، رحمه الله، من أهل الصلاح، والخير ما أخبرني به: أنّ رجلا يقدم إلى هذه المنطقة في وجهه خال واسمه مركب من ثلاثة أحرف يملك إقليم الجزائر، وهو منصور على من توجّه إليه، فإن أردت أن يثبت لك ملكا فطأطأ له الرأس وأرخي له العنان، وساعده على جميع ما يريده، وإلاّ فإنّي لا أراك أن تثبت له، ولا مثلك من يثبت لمثله»، فنصح ولده القائد بالتّحالف معه ولا يكون عليه ؛ لأنّ هذا القادم تكنفه العناية الربّانية، ومكتوب له النّصر حيثما حلّ ؛ فكان أحمد بن القاضي هو السبب المباشر في قدوم الأخوين إلى بجاية، والسبّاق إلى احتضان عرّوج وتمهيد الطريق له للوصول إلى جزائر بني مزغنّة التي كانت ترزح تحت نير تهديدات الملك الكاثوليكي فرناندو الأراغوني Fernando de Aragon المتوفى سنة 1516 ميلادية، والذي أجبر أعيانها بقيادة أميرهم سليم تومي الثعالبي على دفع الجزية وهم صاغرون.

وكانت المقادير قد جعلت من أحمد بن القاضي وخيرالدّين خير حليفين، لكنّ أهواء السياسة، وفتن المغرضين من سلاطين بني زيّان بتلمسان، وبني حفص بتونس قلبت تلك الصداقة والتحالف المتين إلى عداوة ضارية

انتهت بتمرّد أحمد بن القاضي على حليفه محرّر جيجل وبجاية والجزائر وشرشال وتنّس وتلمسان ... ؛ متناسيا في خضمّ هذه الأحداث وصيّة والده ؛ فكان مآله أن شقّ عصا الطّاعة وانقضّ على الجزائر في غفلة من خيرالدّين وزحف بجموع زواوة الأمازيغ من بجاية وتزّي وزو وعزازقة وعاث في جزائر بني مزغنّة فسادا حتّى ترك فيها الأحاديث والأقاصيص الشنيعة التي أودت به في النّهاية إلى قتله على يد أتباعه ؛

إنّ هذه الشخصية الجزائرية الصميمة، والتي ارتبط اسمها بالإخوة بربروس وبأحداث الجزائر الجسام في مطلع القرن السادس عشر الميلادي لا يمكن إلاّ أن تكون في رأيي سوى تلك الشخصية الرّوائية التي استلهمها الأسير الإسباني، والكاتب العالمي، فيما بعد، ميقال دي ثيربانتس Miguel de Cervantes في روايته الخالدة والعجيبة «دون كيشوط[1] دي لا مانتشا» Don Quijote de la Macha والتي يقول فيها ثيربانتس أنّه نقل حكايتها من مخطوط لأحد المغاربة سمّاه بنطقه – الذي تعذّر عليه آنذاك نطق حرفي :«القاف» و«الضاد» – Cide Hamete Benengeli، والذي لم تتّضح معالم هوية هذه الشخصية الرّوائية إلى يومنا هذا عند الدّارسين ؛[2] فالبعض منهم ذهب إلى الاعتقاد أنّها شخصيّة تاريخية حقيقية انتهى به المطاف إلى الهجرة إلى أمريكا الجنوبية، أو العالم الجديد، كما كانت تعرف آنذاك، وقضى نحبه بالبيرو Peru والبعض يرى أنّها شخصية من نسج خيال الكاتب، وفي هذا الصدد يقول النّاقد اللاّتينو-أمريكي Ernesto Gimenez Caballero في كتابه «دون كيخوطي في نظر العالم (وفي نظري)

1. نكتبه دون كيشوط كما هو شائع لكن نطقه الإسباني هو: دون كيخوطي .

2. Al-Andalus revisite aux sources de l histoire arabe du Don Quichotte. Par Andree Stoll . Ed. I. A 2007 .

«...Segun Cervantes, por propia confesion aseguro ser el segundo autor, arreglador en prosa castellana de un origen àrabe traducido por un morisco aljamiado en Toledo a instancias suyas. El autor se llamaba CIDE HAMETE BENENGELI, un hispanomarroqui vecino de la Macha ...Cervantes cita, en su adaptacion castellana del Quijote aràbigo treita y siete (37) veces a Cide Hamete Benengeli. Y le descubre como (sabio, encantador y filosofo mahomético) , como (curioso y atento) , (apuntual cronista), o sea (muy preciso y objetivo) , y (flor de los historiadores) y como (aràbigo y manchego), ... Para Unamuno, Cide Hamete existio en el corazon de Cervantes y le dedio la historia de Don Quijote. .»[1]

فهذا النصّ الهام يؤكّد أنّ ثيربانتس يعترف بأنّه المؤلف الثاني، أو الذي أعاد صياغة النّص الأصلي نثرا باللغة القشتالية، أي الإسبانية، معتمدا على أصل عربي ترجمه أحد الورسكيين المدجّنين بمدينة طليطلة في حين يسمّى الؤلف الحقيقي «سيدي حميتي بننجلي» أحد إسبان المغرب العربي، والقاطن في زمن الروائي بسهوب «لا منتشا» بإسبانيا.

لقد ذكر ثيربانتس في إخراجه لروايته «دون كيشوط» الذي اعتمد النصّ العربي 37 مرّة «سيدي حميتي بننجلي»، ويكشف عنه كحكيم وفيلسوف مسلم وكإنسان طريف حاذق، وكمؤرّخ حصيف وموضوعي دقيق، وكزهرة المؤرّخين، وكمستعرب ينتمي إلى منطقة «لا منتشا». أمّا بالنّسبة للفيلسوف الوجودي الكبير دون أونامونو (Miguel de Unamuno) فإنّ سيدي حميتي بننجلي قد وُجد في قلب ثيربانتس فأهدى له «قصّة دون كيشوط». وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ رواية «دون كيخوطي» هي أثر أدبي مدجّن" (Mudejar) ؛ ولمّا نذكر هذا المصطلح فنعني به أكثر من مدلوله

1. Ernesto Gimenez Caballero: Don Quijote ante el Mundo (y ante mi). ed. Inter American University Press. Puerto Rico , 1979, p: 121, 122 .

التّاريخي الذي يعني أولئك المسلمون الذين فضّلوا العيش تحت السلطة المسيحية الإسبانية بعد سقوط غرناطة عام 1492 ورضوا بما قدّر الله وقضى، ومن ناحية أخرى فإنّ هذا المدلول يعني الاندماج والتفاعل في أقصى تجلّياته، وما سينتج عنه من ثقافة تكون كفيلة بإنتاج عمل أدبي رائع مثل رواية «دون كيشوط دي لا منتشا» للكاتب ثيربانتس الذي مكّنته أحداث تاريخ قراصنة الجزائر، والعيش في أجوائها السحرية، من معاينة ومعايشة هذا الوسط «المدجّن» من 1575 إلى 1580، وبالتّالي فليس غريبا أن يقرّ بتقاسم عمله الأدبي الرّائع مع من كانوا سببا في إلهامه لمثل هذه الأجواء الغريبة التي تمازجت فيها الأعراق واللغات والديانات والتّقاليد والأهداف على أرض يقال لها الجزائر المحروسة، أو دار الجهاد المصعّرة لخدّها في وجه أعدائها والطامعين في امتلاكها.

إنّني أتصوّر، وربّما لأوّل مرّة، أنّ هذه الشخصية التي شرّفها ثيربانتس بالحضور في روايته الخالدة، ومنحها حقّ امتلاك الكلمة الفصل في روايته، لا يمكن أن يكون سوى الحكيم والفقيه المتألّه «سيدي أحمد بن القاضي» شيخ قبائل زواوة الذين تقاسموا مع النّسور مراقيها ومعاليها، والذي تنبّأ جدّهم[1] في يوم ما بمقدم منقذ الجزائر، وبأنّ مدينة الأحلام المرجوّة التي ساهمت في إنجازها مختلف الأعراق والملل والنّحل إبّان القرن السادس عشر الميلادي ستعرف الظهور على غيرها من المدن ؛ وبالتّالي ليس من الغريب أن تحتفظ الذّاكرة الشعبية الجزائرية بالكثير

1. أبو العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني المتوفى (704 / 1304) : تنسب أسرة بني الغبرين إلى أحواز «عزازقة» بمنطقة القبائل الكبرى، وربما يكون جدّ أحمد بن القاضي أو والده أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد الغبريني قاضي الجماعة وعالمها وصالحها وخطيبها والمتوفى سنة 816 هجرية وهو الذي أثنى عليه الشيخ عبدالرحمان الثعالبي. «أنظر عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني، تحقيق الأستاذ رابح بونار، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص: 24 .

من القصص المثيرة لهذا القائد القبائلي الذي تصافح مع عرّوج فوق صخور جبال بجاية، وقاد مسيرته إلى جزائر بني مزغنّة، وصار ذراعه الأيمن على تخومها الشرقية زمن خيرالدّين بربروس، وارتدّ إلى درجة العصيان فاستولى على المحروسة وأذاقها من طعم الوبال لمدّة تزيد عن خمس سنوات ما لم تنس مذاقه حتّى تحوّل إلى مرويات شعبية تسير بها الرّكبان ويجمعها كاتب كجينيفر فيما بعد يعرف «بأساطير ملوك كوكو» الذي نشر عام 1944...

كما أن ثيرفانتس الذي عاش زمن استفحال محاكم التفتيش الإسبانية الجائرة كان يدرك ما كان يمثله بطلا بربريا مثل ابن القاضي بالنسبة للمخيال الشعبي الجزائري آنذاك، وكذلك بالنسبة لأطماع الإمبراطورية الإسبانية، ولكلّ أعداء إمارة بربروس من المسيحيين وعلى رأسهم البابا الذي كثيرا ما راهن على فرسان الصليب أن يبشّروه، في يوم ما، بقتلهم لخيرالدّين وتعليق رأسه على إحدى صواري الأجفان البحرية، لذا لم يتوجّس ثيرفانتس خيفة من استحضار مسلم كافر، ومناهض للمسيح والمسيحية في عمله الأدبي الذي طبقت شهرته الآفاق؛ إنّه في آخر الأمر إشهار لأحد المتجرّئين على هيبة وجبروت سيّد البحار خيرالدّين بربروس؛ وفي هذا التجرؤ من الأمل الذي ينبئ بنهاية لهذا الذي شهد له بالانتصارات عرّاف بجاية ابن القاضي الجدّ من قبل أن يصل إلى سواحل الجزائر.

إذا؛ يمكن اعتبار جزائر القرن السادس عشر الميلادي شاهد إثبات على ميلاد رواية عالمية مدهشة، طبّقت شهرتها الآفاق منذ صدورها لأول مرّة عام 1605، وهي رواية «دون كيشوط دي لا منتشا»، وكذلك شاهد إثبات على ميلاد جمهورية، وأول جمهورية؛ لأنّ اختيار حاكمها خير

الدّين آنذاك كان بإرادة شعبها؛ وهي جمهورية مسلّحة ذات منهاج ديني، تناضل عن يقين إيماني راسخ ضدّ قوى الأطماع والهيمنة التي تظهر مرّة باسم الصليب، ومرّة باسم العداوة العرقية، وأخرى باسم الانتقام لحقب تاريخية عاشتها المنطقة رغم إرادة شعوبها وذلك منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

لقد كان في انضمام إمارة الجزائر على عهد خيرالدّين بربروس كإيالة للخلافة العثمانية إيذانا بالدخول في مرحلة تشبه ما درجت عليه إمارة رودس من قبل؛ فهؤلاء كان من ورائهم البابا وممالك أوروبا وإماراتها، وخيرالدّين كان من ورائه الإمبراطورية العثمانية لكن يبقى ما يميّز جمهورية خيرالدّين عن إمارة رودس هو اعتماد إمارته على إرادة شعبية، والتي من خلالها استمدّ شرعيته أثناء تولّيه عليها، وقبل أن يكتسبها من الحماية العثمانية، كما أنّ موقعها الجغرافي جعلها تكون – إلى حدّ ما – بعيدة عن بؤرة الصراع الساخن السياسي والدّيني في تلك الفترة، يضاف إلى ذلك تمتع إمارته بما يشبه الاستقلال في حرّية القرار والممارسة الميدانية ،لكن يبقى في الختام القاسم المشترك الواضح بين الإمارتين والمتمثّل في مبدأ الحرب الدّينية قبل غيرها من الأهداف وكناية في حدّ ذاتها من أجل البقاء والهيمنة.

إنّ الجمهورية الدّينية والعسكرية التي شيّدها الأخوين بربروس في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت بمثابة الإعلان المبكّر عن نشأة الدّولة الجزائرية الحديثة؛ لأنّ الفضل في رسم معالمها الجغرافية الثابتة – تقريبا – إلى يومنا هذا يعود إلى نضال خيرالدّين بربروس وجهاده، وهو الذي جعلها تمتدّ شرقا إلى مشارف بونة وغربا إلى حدود وجدة، ويعتبر في رأينا المؤسس الأوّل، أو واضع اللّبنة الأولى لميلاد الدّولة الجزائرية؛

وقد يضاف إلى هذه الحقائق التّاريخية الكثير من الشواهد الوارد ذكرها في هذا المخطوط، فهي وحدها تشكّل شهادة إثبات على احتضان الشعب الجزائري، ممثلا في سكان الجزائر آنذاك وما جاورها شرقا وغربا، لهذا الرّجل الفذّ الذي يقال له خيرالدّين بربروس، والذي كان في مستوى المهمّة التي من أجلها استنهض من قبل سكان الجزائر، فلم يخيّب ظنّهم، ولم يقصّر في فداء الجزائر بأغلى ما عنده من إخوة، ورجال انتقل بهم نقلة نوعية من اللّصوصية البحرية في عرض المتوسط إلى محرّرين وبناة دولة ثابتة الأركان ومهابة الجانب، أو كما يقول الباحثان: Sander Rang وFerdinand Denis في كتابهما تاريخ الإخوة بربروس:

«... La ville d'Alger s'appelait toujours la victorieuse, et ses annales réstaient fermées .Vol; 1, p :11

ويقولان أيضا:

«...Une ville des pirates insolens, une grande défaite qui avait humilié jadis un empereur. Vol; 1, p: 11

ومن هناك حظيت الجزائر بتسمية المحروسة لأنّ العناية الإلهية وصلوات الأولياء والصّالحين، ودعاء الفقهاء والمتبتّلين جعلت الأسطول الذي لا يقهر لشارلكان وفرسان إيطاليا ومالطا، وبركات البابا تتكسّر كلّها على صخور تمنفوست على مرأى ومسمع من العالم كلّه في يوم من أيّام شهر أكتوبر عام 1541 ؛ وعلى إثر هذه الحادثة، المعجزة، «... انتشرت بين النّاس شائعات وخرافات لا تحصى ولا يعدُّ منها: أنّهم شاهدوا جامع سيدي بتكا مُضاء في ليلة المعركة، رغم أنّ هذا الأخير قد مات منذ عدّة سنوات، كما انتشرت شائعات عجيبة تقول إنّ الولي دادا كان يتقدّم في

البحر ضاربا السفن بعصاه التي رفعت الأمواج والفخار في الماء واحدة تلو الأخرى... وقالوا بأنّ مقابل كلّ صحن كان ينكسر تغرق سفينة، ورغم ما روي من خرافات وأساطير وقصص مثيرة إلاّ أنّهم لم يستطيعوا تصديق معجزة واحدة، الأكثر إعجازا من كلّ ما تصوّروه، وهي أنّ مدينة الجزائر قد هزمت أكبر جيوش المسيحية»[1]

1. كورين شوفالييه : الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 – 1541) ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 99 .

محتوى مخطوط سيرة المجاهد خيرالدّين بربروس

إنّ هذا المخطوط المجهول المؤلف[1] الذي يتعرّض صاحبه لسرد حياة المجاهد خيرالدّين بربروس، هو وثيقة نادرة تدلّ على أنّ مؤلفه كان على صلة بالأحداث التي عاشها خيرالدّين وإخوته، لكن ما يجعل مجال التخمين مفتوحا على مصراعيه هو غياب اسم مؤلفه والذي وعد ناسخ هذا المخطوط في آخره بأنّه سيُمكِّن القُرَّاء من معرفته حين قال في آخر صفحة من المخطوط «... انتهى ما وجد مقيّدا والحمد لله، وسوف أذكر تاريخ الكتاب، وأذكر فيه أصل الكاتب بعد هذا إنشاء الله»، لكن لسوء الطّالع يبقى هذا الأمل المرجوّ في حكم الغياب إلى يومنا هذا، وهو ما يجعلنا نلجأ إلى بعض القرائن والتّخمينات التي يمكن من خلالها معرفة المرحلة التي وضع فيها هذا المُصنّف الهام والنادر.

لقد ورد خلال صفحات المخطوط العديد من الإشارات الدّالة على طبيعة المخطوط ومن أبرز هذه العلامات أنّ المخطوط الذي معنا اليوم يعتمد في أساسه على أصل مفقود قد كتب بلغة غير اللغة العربية بدليل قول مترجم هذا المخطوط «...وأمّا النّاحية الغربية فلم نر في الكتاب المترجم ما يدلّ على قيامها عليه...» ومثل هذا التّعبير لم نر في الكتاب المترجم ما يحيلنا على مبهمات أخرى لأنّ مدلول الكلام وكأنّي به يقول: أنّ صاحب هذا المخطوط اعتمد بدوره على كتاب مترجم وليس الأصل، وإلاّ كيف يمكن فهم عبارة «لم نر في الكتاب المترجم ؟ هل يعني يا ترى الكتاب المترجم لسيرة خيرالدّين أم المترجم من لغته الأصلية ؟، الغالب

1. بعضهم يقول إنه من تصنيف حاجي خليفة أو هو من اهتم بترجمته .

على الظنّ أنّه يقصد الأصل الذي ترجم واعتمده صاحب هذا المخطوط لتقديمه لقرّاء العربية في لغة عربية وبالتّالي يكون نصّ المخطوط الذي نقدّمه اليوم، هو ترجمة لترجمة اعتمدت الأصل المفقود إلى يومنا هذا.

لكن بأيّ لغة تمّت صياغة هذا الأصل البعيد نسبيا عن المخطوط الذي معنا ؟ المؤكّد هو أنّها لا يمكن أن تكون اللغة العربية وإلاّ ما احتاج الأمر إلى التّرجمة.

لقد ذكر صاحبا تأليف تاريخ بربروس كلّ من: Sander Rang و Denis Ferdinand أنّ كتاب غزوات خيرالدّين قد ترجم بيد ماهرة، وجاء قولهما كالآتي :

«Quoi qu'il en soit, le Gazwat Arroudj we Khair-ed-din (c'est le titre arabe de la chronique) , à été traduit par une main habile, et les notes nombreuses qui roulent sur la valeur de certaines expressions ou même sur les faits le prouvent d'une manière suffisant [1]

إذا فالأمر يتعلّق بالإشارة إلى أصل اعتمده مترجم غزوات عروج وخيرالدّين، وهذا المترجم ماهر ومتمكن، لكن هذه الترجمة الموفّقة على ماذا كان اعتمادها ؟ وما هي لغة النّص المعتمد ؟. يظهر أنّها أسئلة تبقى في غياهب المجهول ما لم نحصّل على هذه التّرجمة أو النّص الأصلي، ومن هنا يكون المخطوط الذي نقدّمه للقرّاء المعرّبين لأوّل مرّة هو ثالث المحطّات بالنّسبة إلى أصله ؛ ويمكن أن يكون الأصل بلغة كان يجيدها خيرالدّين وعرّوج آنذاك ولعلّهما انتدبا لسرد أخبار غزواتهما أحد الكتّاب البارعين في السّير والمغازي وقد أشار المخطوط الذي معنا مرارا إلى دراية عرّوج بلغة الرّوم أو اللغة «الفرانكا» التي تعتمد في تلك الجزر التي تعكس بؤرة الصّراع الدّيني الدّائر بين مختلف الأطراف المتنازعة آنذاك، فجاء

1. Histoire des Barberousse, vol. 1, p : 9.

في المخطوط: «... وكان عرّوج عارفا بلسان الرّومي، ماهرا فيه، وكان النّصارى يجتمعون عليه ويتعجّبون من معرفته بلسانهم وإتقانه له»، لكن لا ندري هنا من أين تأتّى لهم مصدر العجب ؛ فعرّوج وإخوته من أمّ مسيحية وأب يوناني ولا شكّ أنّهم ورّثوا أبناءهم لغتهم الأصلية، يضاف إلى ذلك أنّ المحيط الذي عاش فيه الإخوة بربروس هو محيط مسيحي ولغاته أوروبية فمن غير المعقول أن لا يُجيدوا بعض هذه اللغات ؟ وقد لاحظنا من خلال المخطوط أنّ خيرالدّين بالرّغم من طول إقامته بالجزائر فإنّ مخاطباته للملوك والسلاطين ظلت تعتمد اللغة التّركية، ومن هنا فالاحتمال أنّ أصل هذا المخطوط يمكن أن يكون قد كتب بلغة أمّ أو والد خيرالدّين وترجم إلى لغة الخلافة، أي اللغة التركية فيما بعد ومنها إلى العربية بعد استقرار خيرالدّين الطويل بالجزائر وكذلك ابنه الوحيد المذكور في هذا المخطوط الذي يشير إليه بالقول: «... وكان لخير الدّين ابن يعرف في زماننا مولاي حسن» ؛ فهذا الابن الذي تولّى بعده الحكم بالجزائر لم يكن يفصل بينه وبين والده الزّمن الطويل، كما أنّ صاحب هذا المخطوط يؤكد في السياق أنّ صياغته كانت في زمن مولاي حسن وبالتّالي فالمحتمل أن يكون زمن ترجمة هذا المخطوط عن نسخة من الأصل قد تمّ في حدود أواخر القرن السادس عشر، ومن المحتمل أيضا أن يكون في الفترة التي حكم فيها حسن إبن خيرالدّين ؛ وحسب رأي بعض المؤرخين فإنّ مولاي حسن قد «تولّى منصب البايلرباي لأوّل مرّة عام 1544 إلى 1552... وبعد عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر على رأس البايلك في أعوام 1557 – 1561 تفاوض مع ولد القاضي أمير كوكو... وفي الولاية الثالثة لحسن بن خير الدين التي بدأها عام 1562 طلب منه السلطان العثماني أن يستعدّ لمجابهة الإسبان في

الوطنية بباريس عام 1883-1895 والذي ورد فيه ذكر لهذا المخطوط الذي نحن بصدد التّقديم له، حيث جاء في صفحة 338 التّعريف بالمخطوط من طرف البارون دي صان كالآتي :» سيرة خيرالدّين.

Vie de Khair al-Din Barberousse. Cet ouvrage (qui n'est pas le même que celui dont la traduction française a été publiée par MM. Sander Rang et Ferdinand Denis, d'après un manuscrit de la Bibliothèque natinale), comme ainsi:

الخبرعن قدوم عرّوج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خيرالدّين بعده

Titre ornée d'arabesque de diverses couleur .

Papier. 114 feuiéts. Hauteur, 25 centimètres; largeur, 19 centimètres; 19 lignes par pages. Ms. Du XV1 siècle (Supplément 85, 2bis) N° 1878; p :338.

ويظهر أنّه فات بارون دي صان أنّ عنوان المخطوط مثبت في الصّفحة الأولى لكنّه داخل زخرفة توريقية يتعذّر معها فكّ رموز كتابتها، لكن بالدّربة والممارسة ومعرفة أنواع الخطّ العربي يمكن قراءتها ؛ فداخل الزّخرفة كتب بخطّ منمّق ومعشّق «هذه سيرة المجاهد خيرالدّين رحمه الله» وهو العنوان الحقيقي للمخطوط، أو ربّما تفادى البارون دي صان ذكر هذا العنوان لاحتوائه على كلمة «المجاهد» وهي من المصطلحات المنفّرة والمنبوذة بالنسبة للمسيحيين، ولا يمكن أن نستغرب هذا الصّنيع من البارون دي صان فقد سبق وأن عثرنا في هذا المخطوط على ما يشبه عملية التّطهير له من اسم «محمد» صلّى الله عليه وسلّم كلّما ورد ذكره، وكانت دلالته بقاء «صلّى الله عليه وسلّم بمفردها ممّا يبعث على الغرابة والاستهجان لمثل هذا العمل المخلّ بالأمانة العلمية.

وإذا ما عدنا إلى الإحالة التي أوردها البارون دي صان فيظهر أنّه فيها تأكيد واضح على وجود مخطوطين :واحد اعتمده الباحثان Sander Rang وFerdinand Denis – ولا أثر له اليوم – في كتابهما المنشور بهذا العنوان الطويل الآتي :

Fondation de la Régence d'Alger. Histoire des Barberousse; chronique arabe du xv1 siècle, publié sur un manuscrit de la Bibliothèque royal, avec un appendice et des notes. Expedition de Charles- quint aperçu historique et statistique de port d'Alger orné de deux portraits d'un plan, par Sander Rang, officier Superieur de la Marine, et Ferdinand Denis .Tome 1 et Tome 2 .Paris .J.Angé. Editeur, rue, Guénégand, n°19 et la libraire oriental de Madame Dondey- Dupré. 1837. .

أثناء عودتي لهذين الجزأين وجدتهما يحيلان على ثالث معهما تكفّل بترجمة النصّ المخطوط، وكثيرا ما أثبتا تدخّلاته أثناء وضعه لبعض الهوامش التّوضيحية، فنجدها تثبّت في الهامش ويذكر أمامها (note du traducteur) ممّا يدلّ على استعانتهما بمترجم يجيد لغة المخطوط الذي يؤكد، كما سبق وأن ذكرنا بارون دي صان، على أنّه غير المخطوط الذي نعتمده في هذا التّحقيق والذي وجد هذا الأصل بدوره في المكتبة الملكية القديمة بباريس وبلغة عربية. هذا المترجم هو الذي ورد ذكره في كتاب «كورين شوفالييه» إذ يذكر: «وفي القرن السادس عشر فإنّ الوثيقتين الوحيدتين اللّتين اعتمدنا عليهما هما: غزوات خير الدّين التي ترجمها «فونيور دوبارادي» ونقّحها ساندر رونغ وفارديناند دانيس ... فالوثيقة الأولى هي وثيقة تاريخية – يقصد سيرة المجاهد خيرالدّين – كتبت بأمر من بربروس، والتي هي عبارة عن مدح وإظهار قيمة الجانب

التركي.»[1] لا ندري من أين استنتج شوفالييه مثل هذه التّخمينات ؟ من المؤكد أنّها من الأفكار المعشّشة في رأسه بالوراثة، وإلا فمن قال له أنّها كتبت بأمر من بربروس ؟ أو فيها إظهار للجانب التّركي ؟...

يظهر من خلال معاينتنا لكتاب الباحثين السالف الذّكر أنّ مترجمهما قد اعتمد على نسخة خطّية مكتوبة بالعربية، وأنّها تتشابه إلى حدّ كبير مع النّسخة الخطّية التي نعتمد عليها في هذا التّحقيق اليوم وإن كانت نسختهما يتوقّف سير أحداثها عند صفحة 108 من المخطوط الذي معنا، كما أنّ عمل الباحثين اقتصر على التّوثيق الضّافي الذي جعل من كتابيهما يصدر في مجلّدين ضخمين كان عدد صفحات الجزء الأول 346 صفحة، وعدد الجزء الثاني 424 صفحة، وهنا تكمن أهمّية هذا الكتاب الذي نرى أن لا غنى عنه حين يتعلّق الأمر بالبحث عن حياة وسيرة خيرالدّين بربروس.

1. كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510 – 1541، ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 6.

ملاحظة: بالمناسبة أسجّل تحفّظات كثيرة على هذه التّرجمة التي من بين أخطائها الفادحة على سبيل المثال لا الحصر ذكره في صفحة 10 ... فإنّ سقوط مملكة النازريد «لاندري ما يقصد بهذا سوى لكونه يجهل أنّ المؤلف يعني «مملكة النّصريين» وهي مملكة غرناطة، وقوله في صفحة 33 «بتدخل من الولي المسلم سيدي عبدالرحمان خليفة عالم اللاّهوت، والمقصود عالم الدّين أو الفقيه» وصفحة 29 وغيرها حين يسمّي كارا حسن والأصح قارة وهو لقب لا يزال معروفا إلى اليوم، والكلمة تركية تعني الأسود، وفي صفحة 39، كودية الصّابون والأصح كدية، وهي كلمة تستعمل في اللسان الدارج عندنا، والخطأ الفادح في صفحة 9 حين يقول إمبراطورية الزيانيين وإمبراطورية الحفصيين، فهل يعقل هذا ؟ منذ متى كانت الدولتان الصغيرتان أمبراطورية ؟ أو يذكر في صفحة 19 وهو يتحدّث عن التجمعات السكانية التي كانت تقطن الجزائر والذي من بينهم الوافدين من خارج الجزائر والذي يطلق عليهم «البرّانية» وهي كلمة لا تزال تستعمل إلى يومنا هذا فيترجمها «البيراني» ؟، ودائما عن السكان العرب والذين ذكروا بالفرنسية بصيغة الجمع فيترجمها هذا المترجم الدّخيل عن الترجمة قائلا: «العربس» حتى ينطق حرف «S» الدال على الجمع، وغيرها من الهفوات الفادحة التي لا تحصى ولا تعدّ.

محتوى المخطوط

يأتي هذا المخطوط النّادر[1]، الذي لا نريد أن نلخّصه، ليرسم سيرة أحد المشاهير في عالم البحار في القرن السادس عشر الميلادي، ويؤكّد هذا المخطوط على أنّ الأخوين بربروس هما حقيقة تاريخية كانت فاعلة في أحداث عصرها، ويفرد هذا المخطوط لسيرة وجهاد خيرالدّين الحيّز الأكبر ؛ فالكتاب جاء على شكل كتاب تكريمي لصانع الانتصارات المبهرة طوال أربعين سنة من حياته، كلّها انتصارات، وكلّها عمل واجتهاد توّجت بإنشاء دولة الجزائر التي صارت تنعت في الحوليات التّاريخية «بدار الجهاد» و «بعشّ لصوص البحر» من طرف أعدائها، أو «المدينة الدّولة» التي انكسرت على صخرتها الأساطيل الإسبانية وأطماع القراصنة الجنويين وغيرهم.

لقد ظهر خيرالدّين من خلال هذا المخطوط ذلك الرّجل المقاتل الذي حنّكته التّجارب والحكيم الدّاهية، والمؤمن الخاشع الذي تلهمه فيوضات السماء فيستجيب لنداء الشرع ويلبّي نداء الجهاد حين يستصرخ به الضعفاء من المسلمين المأسورين في أعماق البحار، أو الجزر النّائية، أو في أرض الأندلس المسلوبة من طرف محاكم التّفتيش ؛ فكان حال المورسكيين فيها كما يقول صاحب كتاب «ناصر الدّين على القوم الكافرين» المعاصر لأحداث الإبادات: «... ثمّ ذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى – يقصد الإسبان – بعد أن أدخلوهم – كرها منهم – في دينهم، وكانوا يعبدون دينين: دين النّصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من النّاس ؛

1. - يبدو أن الأستاذ نورالدين عبدالقادر قد اعتمد على هذه النسخة لمّا نشر غزوات خير الدّين سنة 1934 في طبعة حجرية رديئة .

إنّ ما ورد في هذا المخطوط، الذي دوّنت أحداثه على أرض الجزائر يكشف عن صفحة من صفحات النّضال والجهاد الذي درج عليه الشعب الجزائري منذ فجر التّاريخ، وبخاصّة حين تتاح له فرصة القائد الملهم، والدّليل الواعي بمقتضى المسؤولية، من هنا، فإنّ هذا المخطوط سيجعل الكثير من الذين سيطّلعون عليه يغيّرون الكثير من قناعاتهم، كما أنّ هذا المخطوط سيعرّفهم على شخصية قلّما يجود الزّمان بأمثالها من حيث الصدق في الجهاد، والإيمان والإخلاص في العمل لوجه الله والأرض التي احتضنته وآوته وأمّرته ومكّنته من تحقيق حلمه الذي – ربّما – راوده منذ أن كان يجوب في زورقه المتواضع في مرافئ جزيرة رودس أو مدللّي أو غيرها من الأماكن التي لقّنته حبّ البحر وزرقة السماء.

قراءة شكلية في مخطوط «سيرة المجاهد خيرالدّين رحمه الله

يوجد هذا المخطوط حاليا في خزانة المخطوطات الشرقية بالمكتبة الملكية بباريس مسجل تحت رقم: 1878، ومذكور كما سبق وأن أشرنا في «كطالوق» المخطوطات الشرقية الذي أعدّه بارون دي صان عام 1883–1895، ويوجد ذكره في صفحة: 338.

نجد ونحن نفتتح هذا المخطوط في الصفحة الأولى بطاقة صغيرة ملصقة كتب عليها بالفرنسية:

Bibliotheque Nationale. (Atelier de reliure) cote: arabe 1878, ouvrage restauré le 12/12/1946. Volume de 114 pages, plus de feuillet «A «preliminaire, 28 juillet 1847.

– وجاء في الصفحة الثانية باللّغة العربية :

بسم الله الرحمان الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله

اللّهم صلّي وسلّم على سيدنا

– وجاء في الصفحة الثالثة باللّغة العربية على الجانب الأيمن :

دخل في ملك الفقير «الروصو» ؟

الترجمان بتاريخ أواسط رمضان عام 1255 هجرية.

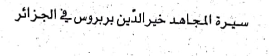
على الجانب الأيسر :

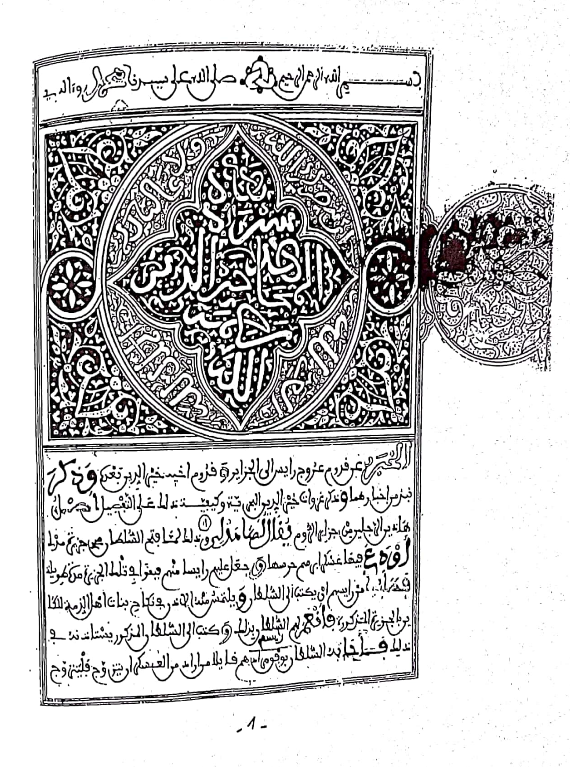
الحمد لله دخل في ملك العبد الفقير الرمز له العزّ والتّشريف محمد بن المرحوم سليمان الشريف وفّقه الله آمين.

– الصفحة رقم واحد من المخطوط :

قسّمت هذه الصفحة إلى قسمين: القسم الأعلى جاء في شكل لوحة مزخرفة ومؤطّرة بخطوط ملوّنة كتب في إطارها الأعلى: بسم الله الرحمان الرحيم، ثمّ زخرفة مشكّلة دائريا وملوّنة بالأصفر والأخضر والأحمر، وبعدها كتب: صلّى الله على سيدنا محمد وآله في، وهنا يمكن الإشارة أنّ محمدا كتب باللّون الأصفر وهو المتبقّي الوحيد في المخطوط لأنّ الذين أعادوا النّظر في المخطوط عمدوا إلى محو اسم محمد كلّما ذكر في المخطوط، ولا ندري سبب ذلك ؟.

داخل هذا الإطار المزخرف الذي كان طوله: 18 سم وعرضه 12 سم احتلّت وسطه زخرفة إسلامية تعرف بالتّوريق كتب في جنباتها الملك لله، العزّ لله، إن ينصركم الله، لا غالب لكم، أمّا وسطها الذي جاء على شكل نجمة فقد كتب في وسطه بخطّ أنيق ومزخرف «هذه سيرة المجاهد خيرالدّين رحمه الله» مع زهرتين على الجانب الأيمن والأيسر، وقد تعدّدت الألوان ما بين أحمر وأصفر ومذهّب وأزرق وأبيض تشكّل تحفة فنّية رائعة ومن هناك تعذّر على بارون دي صان قراءة عنوان الكتاب بداخلها.





- 1 -

الصفحة الأولى من المخطوط

صفحة 108 من المخطوط

التي ينتهي عندها ما اعتمده كتاب تاريخ بربروس

أمّا النّصف الثاني من الصفحة فقد بدأ فيه سرد سيرة الأخوين بربروس وضمّ سبعة أسطر لأنّ معدّل أسطر المخطوط في كلّ صفحة كان 19 سطرا ابتداء من صفحة 2 إلى صفحة 112 بحيث يكون مجموع أسطر المخطوط المرصوفة بانتظام محكم: 2071 سطرا يضاف إليها 7 أسطر في الصفحة الأولى و11 سطرا في الصفحة 113 الأخيرة حيث ينتج عن ذلك 2089 سطرا الذي هو حجم المخطوط.

أمّا ما يمكن أن نقوله عن أسلوب المخطوط، ومدى تحكّم مؤلفه في البيان العربي فإنّه لا يرقى إلى مستوى المصنّفات العربية التّراثية التي ألّفت زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وربّما عذر مترجم الكتاب هذا هو تقيّده بالأصل كعادة المترجمين وبالتّالي فكلّ حكم، مهما كان صائبا، فإنّه لا ينصفه وهو ما جعل أسلوب البيان العربي في هذا المخطوط يجئ مذبذبا لا يستوي في الشروط المعروفة، وهو ما اتّضح جليّا في الضّعف الأسلوبي واللغوي الذي حفل به هذا المخطوط، وقد يكون ذلك انعكاسا صادقا لمستوى ما آلت إليه الثقافة العربية آنذاك والتي باتت بدون حماية أو راع يرعاها كما في عصورها السابقة. إنّ القرن السادس عشر الميلادي هو قرن انهيار الحضارة العربية الإسلامية وتراجعها الواضح على مختلف الأصعدة، ومن هناك لا يمكننا أن ننتظر كتابا في التّاريخ يكون في مستوى أسلوب ابن خلدون المرسل أو أسلوب أبو حيّان القرطبي أو حتّى الرّقيق القيرواني.

لقد جاءت سيرة خيرالدّين مشابهة لكلّ كتب السّير في التّراث العربي الإسلامي حافلة كغيرها بالمتخيّل والعجائبي، ومزج الواقعي بالغيبي، وهو ما حدا بكلّ من الباحثين Sander Rang وFerdinand Denis أن يعلّقا

بالإجمال على المؤرّخين العرب في قولهما: «...La critique lui manque, sans doute, comme à la plupart des auteurs orientaux.» ثمّ يضيفان: ... Dans le manuscrit, des evennement historiques se succédent sans que l'auteur les ait divisés, et le récit marche sans interruption.

لكن هذا الكلام مبالغ فيه لأنّ المخطوط الذي معنا قد جاءت فيه العديد من العناوين، حتّى وإن ألقى بها النّاسخ أو المترجم في الهامش، إلاّ أنّها تعبّر عن انتقال الأحداث، ويبقى جهد هذا المترجم واضحا في سعيه الحثيث إلى مجاراة البيان العربي ممّا ينمّ على ثقافة عربية متينة كان يتسلّح بها هذا المترجم العارف بتاريخ عصره وأحداثه المتشابكة، وتطويعه للّغة العربية للتّحدث هن موضوع لم يكن من الموضوعات التي سبق للحوليات التّاريخية العربية الإسلامية أن تطرّقت إليه ومهّدت السبيل فيه للمتأخّرين، ونعني بذلك موضوع البحر والقرصنة والأسر والاحتكاك المباشر بالنّصارى ومختلف أنواع الأسلحة المستحدثة والغريبة وغيرها.

لقد وفّق هذا المترجم في بثّ الرّوح العربية الإسلامية في مدوّنته، وأخضعها إلى نمط معروف في تاريخ الثقافة العربية ألا وهو أسلوب السّير والمغازي الذي عادة ما يمزج بين الواقعي والمتخيّل قصد بلوغ غاية التّشويق والإثارة لدى المتلقّي ؛ وهي غاية يمكن أن نجزم أن صاحب المخطوط ومترجمه قد بلغاها بامتياز كبير حتّى جعل القارئ وهو يتأمّل في سير الأحداث وكأنّي به يتابعها بصريا وحسّيا ؛ لقد تمكّن من إحراز عنصر التّشويق، وكأنّي بهذه السيرة كتبت لكي تتلى في السّاحات داخل ثقافة الحلقة المفتوحة على الآخر، والتي من أهدافها كسر الحاجز الصّوتي

وفسح المجال للمدى البصري المتابع للأحداث والمتعلّق بسيرها، مع الحرص على عدم انقطاعه عنها.

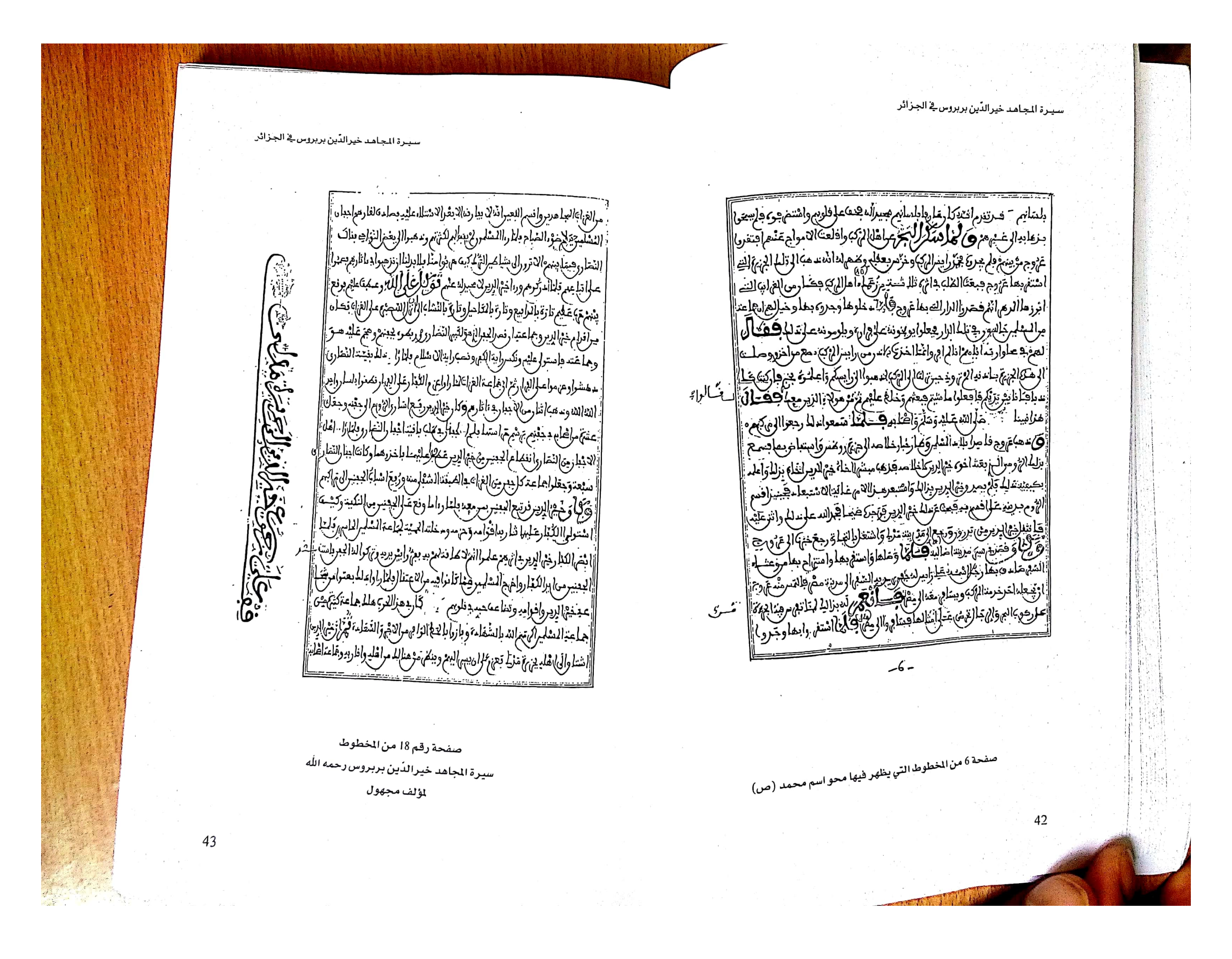
لقد حقّق هذا المخطوط غايته المنشودة والمتمثّلة في ممارسة السرد بأسلوب روائي يعطي للحاكي سلطة التحكّم في الأحداث والذّهاب بها إلى الهدف المنشود، وهي إقناع القارئ وشدّه إلى النصّ شدّ معايشة وتفاعل.

وآخر ما يمكن أن نقوله عن هذا المخطوط، بالرّغم من تعرّضه لخيانة مريبة متمثّلة في محو اسم محمد (ص) كلما ورد ذكره، إلاّ أنّه يبقى تحفة، كتب بخطّ مغربي رائع، ويوجد اليوم في شكل جميل بفضل الصيانة والتّرميم وعناية المشرفين على مثل هذه الكنوز المحفوظة في قصر المكتبة الملكية بباريس والتي يجد فيها الباحث كلّ أنواع التّسهيلات الممكنة والحفاوة التي تليق بأهل العلم والمعرفة.

فلما كان صباح يوم الخميس تقدم الى الواد بعد النزول فيه باشتشار رجال دكثير يكرون النطع الى [illegible]
جهة الاخرى فعبروا [illegible] اخشاب شبكوها المنعطفة الى الساحل فقطعوا عليها فلما حطوا الى العدوة
الاخرى هجمت عليهم من سار العرب وصاحوا عليهم واثخنوا فيهم قتلا ولم ينج الطاغية [illegible] وهو سار العرب بعدا
عنه الى ان وصلوا الى تمنتغوسن فاقام بها اياما الى ان تولد الكرب فما بقي له [illegible] وسمع البلد
[illegible] والنجاة بنفسه وخلف النصارى كثير [illegible] والغ[illegible] وكثير من الشعير [illegible]
[illegible] وخلف كثير من الجمال والنساء [illegible]
[illegible]
[illegible] والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد [illegible] والحمد لله رب العالمين

انتهى ما وجد [illegible] والحمد لله وحده
لم يذكر تاريخ الكتاب ولا ذكر فيه اسم الكاتب
[illegible]

الصفحة الأخيرة من المخطوط

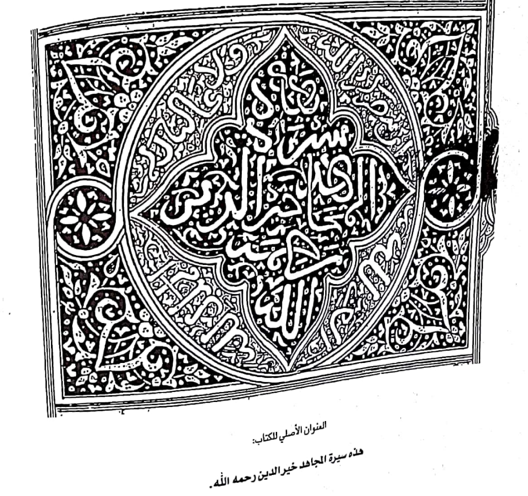


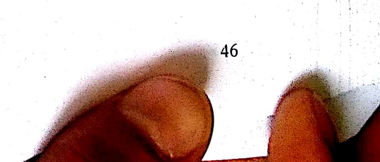
صفحة 6 من المخطوط التي يظهر فيها محو اسم محمد (ص)

صفحة رقم 18 من المخطوط

سيرة المجاهد خيرالدّين بربروس رحمه الله

لمؤلف مجهول





العنوان الأصلي للكتاب:

هذه سيرة المجاهد خيرالدين رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الخبَر عن خُروج عرُّوج رايس إلى الجزائر، وخُروج أخيه خيرالدّين بعدَهُ، وذِكر نُبذ من أخبارهما، وذِكر غزوات خيرالدّين البحريَّة، وكيْفيَّةِ ذلك على التّفصيل.

أصلُ هذين الرَّجُلَيْن منْ جَزَائر الرُّوم يُقال لَها مدلّليMidilli[1] وذلك لَمَّا فتح السلطان محمد[2] جزيرة مدلّلي أودَع فيها عسكرا برسم حراستها، وجعل عليهم رايسا منهم فبقوا في تلك الجزيرة مُدّة طويلة، فطلبُوا من رايسهم أن يكتُبَ إلى السلطان ويلتمِسَ منه الإذْنَ في نِكاح بنَاتِ أهل الذِّمَّةِ الكائنات بالجزيرة المذكورة فأنعم لهم رئيسهم بذلك، وكتب إلى السلطان المذكور يستأذنه في ذلك فأجابه السلطان يوافق مُرادهم قائلا: من أراد من العسكر أن يتزوّجَ فليتزوّج من شاء، ومن أبى من أهل الذمّة يُجبر على

1. - ولد خيرالدّين بربروس سنة 1483 ميلادية أيّام حكم السلطان بيازيد Bayazid الثاني والذي جلس على عرش القسطنطينية عام 887 هـ / الموافق 1482 م في جزيرة مدلّلي المعروفة باسمها اللاتيني Midilli (Métélin، Lesbos ancienne). ويقول صاحب كتاب تاريخ الدّولة العليّة العثمانية، الأستاذ محمد فريد بك المحامي والمنشور في مطبعة التقدّم بشارع محمد علي بمصر، الطبعة الثانية سنة 1912. «إنّ أصل خيرالدّين باشا من أروام جزيرة مدلّلي إحدى جزائر الروم (اليونان)» ص: 95. وتوفي خيرالدّين سنة 953 هجرية الموافق سنة 1546 ميلادية ودفن بجهة بشكطاش على شاطئ البوسفور في المحلّ المعدّ لمرسى الدونانمات العثمانية. أنظر تاريخ الدّولة العليّة. ص: 100 .

2. هو السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح ولد في 26 رجب سنة 833 هـ الموافق 20 أفريل 1429 وهو سابع السلاطين العثمانيين، حاصر القسطنطينية في أوائل أفريل سنة 1453 وأثناء الحصار اكتشف قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حصار القسطنطينية في سنة 52 هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبعد الفتح بنى له المسجد الجامع، وجرت العادة بعد ذلك أنّ كلّ سلطان يتولى يتقلّد سيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد. أنظر كتاب: تاريخ الدّولة العليّة العثمانية، ص: 58 – 59 .

ذلكَ ؛ وكان من جُملة العسكر رَجُل يُقال له يعقوب[1] تزوّج بنتا من بَنات النّصارى الذِميّات فرُزق أربعة بنين :إسحاق وعرّوج وخيرالدّين وإلياس[2] وترتيبهم في السنّ على حَسب ذكرهم ؛ فكان عرّوج وخيرالدّين كثيرا ما يُسافران في البحر، فَأنشأ كلٌّ منهما جَفْنا برسم التجارة، وكان سفرهما غالبًا إلى ثلاثة مُدن أحدها: سنافك (؟)[3]و الثانية أكربوز[4] والثالثة ( )[5] فسافر عرّوج في بعض سفراته إلى طرابلس الشام وحمل معه أخاه إلياس، فَلمّا رجع لقِي جَفْنا من أجفان الكُفّار الغزاة من جزيرة رُوظس[6] فوقع بين الجانبين قتال عظيم واستشهد جماعة من المسلمين من جُملتهم أخوه إلياس رحمةُ اللّه عليه[7]، وطال القتال بينهما ثمّ آل الأمرُ إلى غلبة

---

1. يعقوب رايس رجل مسلم بسيط وطيب وصادق الإيمان (... honnéte musulman) اسمه باللاّتينية Sipai Roumiliote Yakoub d'Yenidjewardar كان يمارس تجارة بحرية صغيرة في جزيرة مدللّي ومن هناك تعلّم أبناؤه الأربعة اللغة الأجنبية والإبحار. أنظر كتاب:
Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barberousse, chronique arabe du VXI siècle, publié sur un manuscrit de la Bibliothèque royal, avec un appendice et des notes. Expedition de Charles-Quint, apercu historique et statistique de port d'Alger, orné de deux portraits et d'un plan. Par Sander Rang, officier Superieur de la Marine et Ferdinand Denis. Tome 1 et Tome 2. Paris. J. Angé. Editeur, rue Guénégand, n :19. Versailles, même Maison Librairie de l'Evéché, rue Satory, 28 et la librairie Oriental de Madame Dondey – Dupré; 1837. .
2. - Ishak, Ouroudj (Horruc, Orot, Aruch Homichu) ; Khizr, Ilias) هكذا يسمون في اللغة المعروفة آنذاك باللغة Franques .
3. اسم مكان غير مفهوم في المخطوط، ص: 2 .
4. جزيرة إكربوز Ile d'Egripoz (Negrepont). كانت تسمى جزيرة نجربونت وتسمى في كتب الترك أجربوز مركز مستعمرات البنادقة في جزائر الرّوم وتمّ فتحها من طرف العثمانيين سنة 1470. أنظر، تاريخ الدولة العلية ص: 64 .
5. بياض في المخطوط، ص: 2
6. جزيرة روظس اليونانية Rhodes هكذا يكتب اسمها في المخطوط، وهي رودس وتقع بالقرب من شاطيء آسيا الصغرى يشتقّ اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ومعناها الورد، فتحها السلطان سليمان الأوّل الغازي سنة 1522 م وكان بها تمثال عظيم يقال إنّ ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين مترا هدمته الزلازل في القرن الثالث قبل الميلاد، تاريخ الدولة العلية، ص: 66 .
7. يقول مؤلفا كتاب تاريخ بربروس Sander Rang et Ferdinand Denis قتل إلياس في أحد المعارك التي جرت بين الإخوة بربروس وفرسان التنظيم الصليبي المسمى آنذاك les Chevalics de Saint –Jean de Jérusalem. (فرسان القدّيس حنّا الأورشليمي) .

الكُفّار فاستولوا على المركب وجُملة من فيه من المسلمين، ومن جُملتهم عرُّوج رايس، فدخلوا بهم جزيرة رودس في بروز عظيم، وشهرة زائدة ... فإنّا للّه وإنّا إليه رَاجعون.

فأنعم له الرّومي بذلك وحمله معه إلى بعض الجزر يقال له «بودرون»[1] فقال له خيرالدّين: أجلس هنا واذهب أنت إلى جزيرة رودس، وتَحيَّل على مُلاقاة أخي ولا تُخبر أحدا بخبري، فإذا ظهر لك وجْه الحِيلة في خلاصة بمالٍ أو بغيره فاعلمني بذلك. فذهب الرّومي إلى الجزيرة ولقِيَ أخاه عرّوج، وأبلغه سلام أخيه، وأعلمه بما هو عليه من القلق من شأنه فاستبشر بذلك عرّوج وفرحَ فرحًا شديدا وقال للرُّومي: أكتم هذا الأمر وارجع إلى أخي وقل له لا يهتمّ من حالي فأنا بحول اللّه وقوّته أتحيّل في خلاصي فليرجع إلى محَلّه ؛ وكان عرّوج عارفا بلسان الرّومي ماهرًا فيه[2]، وكان النّصارى يجتمعون عليه ويتعجّبون من معرفته بلسانهم وإتقانه له ؛ فتعرّف بكُبراء الجزيرة وحصلت بينهما معرفة تامّة وأُلفة من أجل اللّسان فرغِب منه عرّوج أن يشتريه من العظيم الذي اشتراه ويُخلّصه منها. فقال له الكبير المذكور: أفعل إن شاء اللّه، فتمهّل حتّى إذا رأيتني جالسا في دُكّانٍ كانوا يجتمعون فيه فَمُرّ علينا كأنّك قاضيا حاجة.

فلمّا عَلِمَ بجلُوسِهم في ذلك الدكّان، جاز ذاهبا عليهم، فلمّا رآهُ ذلك الكبير ذاهبا قال لمَنْ هذا الأسير الذي مرَّ علينا الآن؟ فقال أحد العظيمين هو لي، فقال: هلْ لك أن تبيعَه وأبذل لك في ثمنه قيمة وافية فإنّه ليس

---

1. بودرون Boudroun (Port de la Caramanie à vingt lieues de Rhodes et vis-a vis de Stanco: *Hist. de Barb. Vols :1, p: 4.*
2. يعلّق صاحبا كتاب تاريخ بربروس Sander Rang et Ferdinand Denis قائلين: Aroudj dans ses voyages, avait parfaitement appris la langue franques.. الجزء الأول ص:
4. وقد سبق وأن ذكرنا أنّ أبناء يعقوب كانوا يعرفون هذه اللغة منذ صغرهم.

لي خديم؟. فقال له: إن أدّيت إليّ ألف دينار فأنا أبتاعه منك؟ فاستكثر ذلك، فوفّق بينهما الحاضرون بثمن قدرهُ خمسة وعشرون ألف درهم. فرضِيَ بذلك. فقال شرِيكهُ الآخر: لا أرضى بذلك، ولكن خُذْ نِصفها ويخلص لي الأسير. فضرب له شريكه مثلا، وقال له: «شرِكة في عجل خير من الانفراد ببقرة ( ) [1] دعني من هذا الكلام، خُذْ نصف المال ويخلص لي الأسير. فرضي بذلك شريكهُ واستقلّ الآخر بملكية عرّوج. فوضع عليه قيودا وجعله في مَطْمورةٍ وضيَّقَ عليه غاية التّضييق، وجعل عليه حارسًا يحرسه ويتفقّد أمره، فذهبت على ذلك الشأن مدّة طويلة. فطلب عرّوج من حارسه أن يذهب به إلى مالكِه ليتحدّث معه ويفاوضه في خلاصه لتقع المراوضة في ذلك، فذهب به، فلمَّا رآهُ استفهم الحارس عن سبب مَجيئِه به، فقال له عرّوج: أيُّها المولى مَا مُرادك بهذا التَّضييق الذي ضيَّقت به عليَّ، وأيّ ذنب لي في ذلك؟ فأجابه: إنّما فعلت ذلك لكونِك أنّك لم تُنصف معي وسأضعّفُ عليك العذاب، وأُنذيقك من ألوانِه ما لم يسمع به أحد! فقال له عرّوج :بأيّ سبب أيّها المولى تُعذّبني ؟ فأجابه قائلا : إنّي سمعتُ أنّ أخًا لك قدِم إلى «بودرون» بمال كثير برسم فِديتك فبعثت إليه وثنيت عزمه عن ذلك ؛ لأجل ذلك أضعّفُ عليك العذاب.

فقال له عرّوج :ممّن سمِعت هذا الخبر؟ إنّما هو زورٌ وافتراء وإن كان مرادك في بيْعي فأنا أشتري منك نفسي بالثّمن الذي تُريدهُ. ؟

1. بياض في المخطوط يعادل كلمتين. المخطوط، ص: 3.

فقال له: أيّ ثمن تبذل في نفسك؟ فأجابه عرّوج: أبذل لك في نفسي إقليم «الرّميلي» [1] كلّه ونصف أنبول [2] وذلك قليل في خلاصي من يدك، فلمّا سمِعَ منه هذه المقالة قال له: يا شيطان التُّرك مع من تتكلّم بهذا الكلام، وما الدّاعي لك حتى تواجهني بهذا الاستهزاء؟ أتظنّ أنّي لا أعرف شيئا من تكون أنت حتّى تبذُل لي إقليم الرّميلي ونِصف الأناضول؟ هذان البلدان ليس لهما حاكم؟ فحينئذ قال له عرّوج رايس [3]: أنت تكلّمت معي بكلام لا يُعقل، فأجبتُك بكلام لا يُعقل. فقال له القُبطان :يا شيطان، أنا كلّمتك بكلام لا يُعقل حتّى يُجيبني بمثله؟ فأجابه عرّوج بأن قال له يا قبطان: أنت أخبرتني بأنّ أخي أتى بمال كثير، وهو مُقيم بجزيرة «بودرون»، وهذا المال لم يحصل بيدي حتّى أُخلّص نفسي منك به، والنّاس يقولون في المِثال: «السّمك الذي لم يصطد كثير في البحر،» [4] وأنتُم أخذتُم منّي جميع ما أتيتُ به من المتَاع، فأيُّ مال بقيَ لي حتّى أخلّص نفسي به، وأنا واحدٌ من جُملة النّاس؟ فكيف تكلّفني ما لا أطيقُه، والنّاس يقولون في

1. Romélie هو إقليم الرّوم أي العبور إلى بلاد القارة الأوروبية وهو ما يعرف عند الأتراك العثمانيين «الرّوم أيلي» هذه الحركة أو التسمية لا تنطبق على بلاد العرب أو انتشار الأتراك في بلادهم لكن «أيلي» تنطبق على بلاد الرّوم انطلاقا من القسطنطينية إلى الغرب باعتبارها وسيلة من وسائل نشر الإسلام : ففي عهد محمد الفاتح الذي أوصل حدود الإمبراطورية العثمانية غربا إلى الأدرياتيكي وشرقا إلى الهضبة الإيرانية واضعا بذلك أسس الحكم العثماني في الأناضول والرّوم أيلي، ونتيجة لهذا اعتبر محمد الفاتح لدى الكثير من المؤرخين والدارسين بالمؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية، لذا لقّب بسيّد الأرضين: الرّوم إيلي Romeli والأناضول، والبحرين المتوسط والأسود ..أنظر د. الغالي غربي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية في المشرق العربي، 1288 – 1916 نشر ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 2007 ص: 23.

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط فهي تبدو أناضول وذلك حسب السياق الوارد. المخطوط، ص: 4

3. يقول صاحب كتاب بربروس: ... On nomme Reis indistinctement tous les capitaines de navires et méme les patrons de barques. L'importance du Reis depend de celle de batiment qu'il commande, sa racon et le double de celle d'un simple matelot, et quelquefois advantage selon sa reputation. Hist. De Barb. Vols,1, p: 8.

4. في كتاب تاريخ بربروس ورد ترجمة المثال كالآتي: «La mèr est remplie de poissons qu'on avait envie de péchen»

المثال: إنّ الدّجاجة إذا مُسكت تضطرب وتسعى في خلاص نفْسِها بذلك، أوَليس لي قُوّة الدّجاجة ؟ وإذا نحن قد وصلْنا إلى هذا المقدار الذي تُريده منّي فأنا لست بابن ملك حتّى أبذلَ لك جميع ما تطلب منّي؟ أنا رايِس من رِياس البحر أعطِيك على قدْري، وهذا المِقدار العظيم الذي تكلّفت به عليَّ أأللّه الذي أمرك به أم هو رأي من عندك ؟.

فلمّا سمع اللّعين هذه المُراجعة منه، غضِبَ غضبا شديدا ودفع في صدره وصارَ يُرمرِمُ كالرَّعدِ، وأمر ببعثه إلى محْبسه وضاعف عليه ما كان فيه أوّلا من العذاب والتّضييق ؛ وكان في ذلك الزّمان في مدينة «أضالية»[1] أخ للسلطان سليم يُقال له بِاللّسان التّركي فرفر ؛ وكان له اعتناء تام بفقراء أسرى المسلمين وتخليصهم من يد الرّوم ؛ فبعث أحد خوَاص خدَّامه إلى جزيرة رودس برسم فداء الأسارى على ما جرت به عادته وأعطاهُ مِقدار فِدية أربعين أسيرًا من أسراها، وعيّن له صاحب الجزيرة مركبا لإيصالهم إلى بلادهم، وكان من جُملة خَدَمة المركب عرّوج رايس تحت حُوطة النّصارى.

فلمّا كان في أثناء سيرهم في البحر اجتمع عليه النّصارى أهل المركب واستمالوه إلى دينهم وراودوه على الرِدّة والعِياذُ بالله.

وكان رجلا كامل الإيمان صحيحَ الإسلام، سَالم العقيدة من أهل السنَّة والجماعة، فاستشاط من ذلك غضبا، وقبّح دِينهم وما هم عليه من الكُفر والتثليث وتبرّأ من الأديان كلّها إلاّ دِين (؟)[2] بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

1. أضالية : Port de la Caramanie, aujourd'hui Aladia. Hist. De Barb. Vols, 1, p :8.

2. هناك ظاهرة غريبة في هذا المخطوط الذي تعرّض على ما يبدو إلى عملية تطهير بين قوسين وهو إخضاعه إلى عملية حذف إسم محمد (ص) من كامل المخطوط وترك البياض مكانه لكن السياق يؤكد اسم الرسول (ص) .

فقال له: إن كان نبيّك حقًا قلْ له يُخلّصك من أيدينَا؟ فقال لهم: يخلّصني من أيديكم إن شاء الله، فاَستهزءوا وتمادُوا على ذلك فعند ذلك أخذ في الدّعاءِ والتضرّع والابتهال إلى الله عزّ وجلَّ في كشف ما حلّ به من هذه الكرُوب، وتمادى بهم السّير إلى أن دخلوا بعضَ المَرَاسي فأرسوا بها مرْكبهم وبعثوا أقاربهم برسمِ صيّاد السَّمك فهال عليهم البحر وجاءهم المَوْج من كلِّ مكان وظنُّوا أنهم أُحِيط بهم وانشغل كلّ واحد من أهل المركب بنفسه، فعِند ذلك انتهز الفُرصة في خلاص نفسه وحاول كسر القيد الذي عليه فتأَتّى له ذلك بتقدير العزيز العليم.

قال الله تعالى :«**ومن يتوكّل على الله فهْوَ حسبه إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكلّ شيء قدرا**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**اشتدّي أزمة تنفرجِ**»[2] فبدا له أن يُلقِيَ نفسه في البحر لينجو بذلك، فألقى نفسه، وساعده الله سبحانه وتعالى على الخلاص فوصل إلى السَّاحل إلى قرية من قرى النّصارى وكانت قرية من ذلك المرسى[3] ؛ وكان من عادة أهل هذه الجزيرة أنّه إذا وصل إليهم أسير من أسرى المسلمين آووه وأخفوه عن الطّلب رأْفة أودعها الله تعالى في قلوبهم، وعِناية منه سُبحانه تعالى بأسرى المسلمين[4]. فقصد إلى دار من دُور أهل تلك الجزيرة فاجتمع عليه أهلُ تلك الدّار وتكلَّموا معه وأجابهم بلسانهم – قد تقدّم كان عارفا بلسانهم مُجيدا له – فخفَّ على قُلوبهم واستظرفوهُ فلم يسمحوا بذهابه إلى غيرهم.

1. وهي قوله تعالى :« ويرزقه من حيث لا يحتسبُ ومن يتوكّلْ على الله فهُوَ حسبُهُ إنّ الله بالغُ أمرِهِ قد جعل الله لكلّ شيءٍ قَدَرًا». سورة الطلاق، آية: 3 .

2. حديث نبوي أنظر ميزان الإعتدال ص:2013 وابن حجر لسان الميزان ج 2 ص:1214 والعلجوني ج1 ص: 146.

3. كتبت المرسى في المخطوط هكذا: «المرصة». المخطوط ص: 5 .

4. تبدو ظاهرة تسامح أو تحسبا لمثيلاتها من الوقائع من طرف سكان تلك الجزر المتاخمة للخطر الدّائم بين المسلمين والنّصارى من جهة ولصوص البحر والقراصنة من جهة أخرى. ؛ لأنّ هذه المرحلة قلّ فيها التسامح إلاّ ما ندر.

ولمّا سكن البحر عن أهل المركب، وأقلعتِ الأمواج عنهم افتُقدوا عرّوج من بينهم فلم يجدوه فأخبر رايس المركب وتدبّر بعقله وظهر له أنّهُ ذهب إلى تلك الجزيرة التي استقرّ بها عرّوج فبعث للطّلبَ في إثرِه ثلاثة من زعماء[1] أهل المركب ؛ فكان من الغرائب التي أبرزها الدّهر أنّهم قصدوا الدّار التي بها عرّوج فلمّا دخلوها وجدوه بها وخُيِّلَ لهم أن جماعة من المسلمين جالسين في تلك الدّار فجعلوا يُوَبِّخونَه على فراره ويلُومونَه على ذلك.

فقال لهم في مُحاوراته إيّاهم: أنا لم أفِرّ وإنّما أخذت الإذْن من رايس المركب مع من أخذ ووصلتُ إلى هذه الجزيرة بإذنه، ألم تروني حين نزلتُ إلى المركب، اذهبوا إلى رايسكم واعلموه بخبري فإن كنتُ كاذبا فأنا بين يديكم فافعلوا ما شئتم ؟ فبعثهم وخلط عليهم ثمّ قالوا له: من هؤلاء الذين معك ؟ فقال: هذا نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه. فلمّا سمعوا ذلك رَجعوا إلى مركبهم وذهب عرّوج قاصِدًا بِلاد المُسلمين، وطار خبر خلاصه إلى جزيرة رودس واستفاض بها، فسمع بذلك الرّومي الذي بعثه أخوه خيرالدّين لتخليصه فذهب مُبشّرا أخاهُ خيرالدّين بذلك وأعلمه بكيْفية ذلك فلم يصدّق خيرالدّين بذلك واستبعد هذا الأمر غاية الاستِبعاد، فحينئذ أقسم الرّومي بدينه على ما أقسم به فبحث عن ذلك خيرالدّين فوجده صحيحا، فحمد الله على ذلك واثنى عليه فانتقل خيرالدّين من «بودرون» ورجع إلى مدينة «مدللّي» واشتغل بالتّجارة.

رجع خبرنا إلى عرّوج ؛ ولمّا قصد في سيره مدينة «أضالية»، فلما وصلها واستقرّ بها واستراح من وَعثاء السّفر صادف بها رَجُلاً اسمه

1. جاء في كتاب تاريخ بربروس، ج1 ص: 11 أنّه لم يبعث في إثره ثلاثة زعماء بل: « Comes (القوم) وهم: «les esclaves chargés de ramer dans les galères composaient des Comes qu'on nomme la chiourme, les comes en étaient les conducteurs et les gardiens; les functions et le titre de come existe encor dans nos bagnes.

على رايس له جفن يريد به السفر إلى مدينة مصر، فالتمس منه عرّوج أن يجعله أحَد خَدَمَة المركب ويُسافر معه إلى مصر، فأنعم له بذلك لمَّا تفرَّسَ فيه الجرأة على رُكوب البحر، والرِّجال تحرِصُ على أمثالها. فسافروا إلى مصر[1].

فلمَّا استقرّوا بها وجدوا مركبا لصاحب مصر[2] وكانت في ذلك العهد في يدِه برسم السفر إلى موضع يقطع منه الخشب[3] لإنشاء السّفن، فأعطى صاحب مصر عرّوج مركبا من تلك المراكب يكون رَايسا فيها ومُقدَّمًا على جماعتها. فلمّا انتهوا إلى ذلك الموضع واستقرّوا به هجم الإفرِنجُ عليهم بحملة وافرة من مراكبهم، فجرفُوا مراكب صاحب مصر وفرَّ المسلمون بأنفُسِهم كما قدّمناهُ. فَلقيهُ عرّوج وأعْلمه بكيفية أحوَاله وما وقَع له من الأسْرِ، و كيف خلّصه الله منهُ فظهرت منه مَخايلَ النّجابة وسما له فيه أصل، فأمر له بجفن فركِبَ فيه برسم الغزو إلى ناحية رودس فحذِر منه تُجار النّصارى حذَراً شديداً، فذهبوا إلى عظيم رودس ورفعُوا شكواهم إليه قائلين: لا نقدر على السفر برسم التّجارة ما دام هذا الرجل الذي يقال له عرّوج ؛ فإنه قطع الممرّ علينا، وبلغ الخوف بهم إلى أن هرب أهل الحراسة من الأبنية التي على سواحلهم.

فلمّا سمع رايس الجزيرة بهذا الكلام بعث في إثره عدّة سفن ليوقع به، فبينما هو في بعض المراسي إذ هجم عليه النصارى بمراكبهم ففرّ في البرّ مع جملة وترك لهم الأجفان ورجع مرّة أخرى إلى «أضالية».

1. الأصحّ إلى الإسكندرية.
2. صاحب مصر آنذاك هو ملك الشرق أبو نصر قنسوس الغوري الذي يعرف بالشركسي والذي قتل في مرج دابق على مقربة من حلب من طرف السلطان سليم وذلك في 15 رجب عام 922 هـ/1516.
3. ... dans un des golfs de la Caramanie في أحد خلجان كرمانيا... أنظر: Hist.de Barb.vols.1. p :14

وتمكّنتم من الدّخول علينا فإن كانت لكم طاقة فَلِمَ تتّكلون علينا ؟ فوَهِم الغُزاة في قوله وجعلوا ينظرون، فقال: ما لكم تنظرون إليَّ فالقولُ هو ما قلتُهُ لكم وما أرادوا غيرها وأنتم أتيتم برسم الجهاد والعدوُّ مقابل لكم فأخْلِصوا نيّتكم لله سبحانه وتعالى وتوكّلوا عليه، فقد قال سبحانه وتعالى:«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين»[1] فحمي القوم عند ذلك ونهضوا لمُحاربة عدوّهم بالعزائم الوقّادة ورفعوا ألوِيةَ الجهادِ وقصدوهم غير مُكثرين بهم، ورفعوا أصواتهم بالتّكبير ولتقت أجفان المسلمين بأجفان العدوِّ ووقع بينهما قتال عظيم فنصر الله حزبه وأيّد أولياءهُ وأظفرهم بعدُوِّ الدّين فغنمُوا أجفان العدوِّ واحتووا عليها بما فيها، فعزم على الرّجُوع إلى جزيرة مدلّلي بهذه الغنيمة ؛ وفي أثناء ذلك وقع بين السلطان سليم[2] وبين أخيه فرفر بعض ما يقع بين المُلوك من العداوة والمنافسة، فلمّا قرُب عرّوج من جزيرة مدلّلي سمع بما وقع بينهما من الشنآن فخشي على نفسه من السلطان سليم لكونه من أصحاب أخوه فثنى عزمه عن الجزيرة وقصد في سفره مصر، فلمّا وصلها وجّه إلى سلطانها بهدية عظيمة ممّا احتوى عليه من متاع الرّوم وما ظفر به من نفائس أموالهم استجلابًا لودّهِ واستأذن منه أن يُقيم ببعض مراسيه حتّى يذهب فصل الشتاء ويتأتّى له السفرَ في الربيع. فأنعم له بذلك وخيّره في أيِّ المراسي يريد، وشرط عليه وعلى جماعته أن لا تحصل منهم إذاية

1. - من قوله تعالى: «فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلاّ قليلا منهم فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصّابرين» سورة البقرة، الآية، 249.

2. - هو تاسع سلاطين بني عثمان حكم مابين (1512 – 1520) أنظر من حوله كتاب: تاريخ الدولة العلية للأستاذ محمد فريد بك، ط3، ص: 73 .

لأحد. فأقام فصل الشّتاء في ذلك إلى أن انصرم ذلك الفصل ودخل فصل الرّبيع وطاب رُكوب البحر فسافر مُتوكّلا على الله عزّ وجلّ مغنم في سفره، ثمّ ألقته الرّيح إلى جزيرة جِربة[1] من ناحية المغرب فأودع تعليقه هنالك وسافر إلى ناحية بلاد النّصارى فأنكى عدوّ الدّين نكاية عظيمة وغنم وسبَى منهم شيئا كثيرا.

دخول عرّوج إلى مدينة تونس

ثم دَخل إلى مدينة تونس[2] ووجّه إلى السُّلطان بهديّة نفيسة ممّا احتوات عليه يده من غنائم ونفائس أموالهم فقبِلَها ووقعت منه أحسن موقع، واستأذنه عرّوج بأن يُقيم في بعض مراسي بِلادِهِ فأذِن له واشترط عليه، كما شرط عليه سلطان مصر ؛ ومن جُملة ما اَشترط عليه أن يُعطيه خُمس الغنائم التي تحصل بيده من الكُفّار، فرَضِيَ عرّوج بذلك.

1. جزيرة جربة هي جزيرة تونسية تقع في الجانب الجنوبي من خارج قابس، قريبة من السواحل الليبية، يفصلها عن البرّ مضيق لا يتجاوز عرضه عن جهتها الغربية على ساحل آجيم – الكيلومترين تقطعه الجسور العائمة – والجزيرة كلّها تمسح نحو ستّين ألف هكطار (600) كلم /مربّع. وقد عرفت من أقدم العصور باسم جربة انجرّ لها من اسم أوّل قبيلة نزلت بها من قبائل لمّاية البربرية ... أنظر كتاب «مؤنس الأحبّة في أخبار جربة» تأليف محمد أبو راس الجربي تحقيق محمد المرزوقي وتقديم حسن حسني عبدالوهاب. المطبعة الرّسمية، تونس 1960، ص: 31.

2. مدينة تونس – عرفت هذه التّسمية على ما هي عليه اليوم أوّل ما عرفت في فجر الفتح الإسلامي لهذه البقاع بحيث أطلقت على المكان الذي توجد فيه العاصمة التونسية حاليا لأنّ المسلمين كما يروى لمّا فتحوا إفريقيا كانوا ينزلون بإزاء أو بحذاء صومعة ترشيش ويتأنّسون براهب في دير هناك فراحوا يرددون في مجرى حوارهم أنّ هذه الصومعة تؤنس، أي تبعث الأنس في قلب من يقيم بجوارها بحيث لا يشعر بالوحدة والغربة. وهناك رواية ثانية تقول بأنّ العرب الفاتحين أثناء تمكنهم من هذا الوطن كانوا يقضون ليلهم في سماع أصوات الرّهبان المتجاورة من الكنائس فيستأنسون بها، فقالوا: هذه البقعة تونس بمعنى الأنس، ومما يلاحظ أنّ الرواية الأولى تتفق مع الثانية على الأنس، لكن ابن دينار يورد رواية لابن الشباط تقول: أنّهم وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا: هذه تونس وسمى المسجد بجامع الزيتونة. وذكر غير واحد أنّ لها خمسة أسماء: ترشيش، وتونس، وقيل تانس، والحضرة، والدّرجة العليّة ؛ فترشيش اسمها في القديم، وتونس حادث لها واشتقاقه من الأنس، والحضرة لأنّها حضرة سلاطين بني حفص، والخضراء لكثرة زيتونها ...» أنظر الدكتور عبدالله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، نشر دار البعث بقسنطينة، الجزائر، سنة 1986، ص: 64- 65.

وقد تقدّم أن السلطان سليم وقعت بينه وبين أخيه مُنافسة وتحاسد على المُلك فأمر الإسكندر باشا بسطانجي[1] أن يُهيِّئ جُملة من الأجفان ويُسافر بها في تلك النَّواحي فلا يقع بيدهِ جفْنٌ من أجفانِ المسلمين أو من النّصارى إلاّ واستولى عليه حِرصا أن يقع أخُوه بيدِهِ، فسمِع بذلك خيرالدّين فخاف على نفسه لكون أخيه كان من أتباع فرفر، فعزم على المجيء إلى ناحية المغرب فباع مركبه بخمسة وتسعين عبدا وذهب إلى ناحية يقال لها :بروز[2] فباع العبيد هناك، وقد كان عزم أن يذهب إلى ناحية «بلغار» برسم التجارة، فلمّا وصَلَ إلى «بروز» اشترى جفنا صغيرًا وحمل فيه من السّلعةِ وذهب إلى بعض النّواحي ليبيع تلك السلعةِ فتأتّى له ذلك وباع بجملة وافرة وصنع بثمنِها جفناً على حسب مُقترحه وأودع فيها شيئا كثيرا من عدَّة الخشب التي تُصنع بها الأجفان، وكذلك أودع فيها شيئا كثيرا من المقاذف وسافر إلى ناحية المغرب فكان من الاتّفاق الغريب أن ألقته الرّيح إلى جزيرة جِربة فرفع تلك العِدّة إلى الجزيرة وعرضها للبيع، وصادف دخوله إليها أن دخل أخوه عرّوج في إثره «وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا»[3] فاجتمع الأخوان واستبشر كلّ واحد منهما برؤية أخيه، وحَمِدا الله على ما تهيَّأ لهما من ذلك ( )[4] دُخُول عرّوج إلى تلك الجزيرة إنّما هو بسبب فعل رفع نقلتُه التي أودعها فيها أوّلا، لا برسم لقاء أخيه ؛ لأنّه لم يكن له عِلم به، وهي غريبة من غرايب الدّهر فاتفق الأخوان أن يذهبا إلى مدينة تونس ويُقيما

1. Bostandji-Iskander-Pacha

2. اسم مكان غير مفهوم ولعلّه جزيرة أكريبوز Ile d'Egripoz.

3. البيت للشاعر كثيّر عزّة.

4. بياض في المخطوط مقدار كلمة أظنها وكان. المخطوط. ص: 10 .

بها، ثمّ إنّ خيرالدّين باع ذلك الجفن الذي أتى به من إقليم الرّوم بمائة دينار واشترى جفنًا آخر وشحنه بتلك العدّة والمجاذف وذهب مُرافقا أخاه إلى تونس ؛ وكان صاحب تونس له رغبة في الغزاة وتشوّق إلى مقامهم عنده وانضمامهم إلى جماعته فتوجّها إليه بهديّة عظيمة تليق بأمثاله من الملوك، فقبِلها منهما وأكرم نزلهما وبالغ في الحفاوة بهما ؛ فأقاما بمدينة تونَس حتى انصرم فصل الشتاء ودخل فصل الرّبيع، وقد كانا صنعا جفنين فاخرين فسافرا بالجميع على رسم عادتهما إلى ناحية بلاد النّصارى، فغَنِمُوا مراكب الكفّار وشحنوها برجال البحرية، وبعد ثلاثة أيام من أخذهم هذا المركب غنِموا مركبا آخر في نهاية العِظم موسوقا بُرّا ثمّ تمادوا في سفرهم فغنِموا مركبا آخر موسوقا بأنواع المِلف[1] الملوّن الذي يُذهب الأبصارَ، وأنكوا في الكَفرة نِكاية عظيمة وطار خبرهما في بلاد الكُفّار ؛ ثمّ إنّهما رجعا بعد عشرين يوما من سفرهما إلى مدينة تونس، بما منحهم الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم، فسُرّ بذلك سلطان تونس سُرورا عظيما ؛ وكان من جُملة ما نَاب كلّ وَاحد من الغُزاة أربعة شِقّة من المِلف ومائة ذراع من البزّ[2] الجيّد وتسعة دنانير ذهبا كبارا، وهذا الدينار هو المُعبَّر عنه بِلسانِ الرّوم «بالظبلون»[3] فتمتّع الغُزاة بهذه الغنائم وحصل بأيديهم مال كثير وحمدوا الله تعالى على ما أولاهم من هذه النِّعَم. وأمّا الزّرع فإنّما تَصَدَّقاَ به على ضُعفاء أهل تونس ولم يأخُذا من ثمنِهِ شيئا. فكثُر لهما الدُّعاء بسبب ذلك، ثمّ إنّهما أدركا فصل الشّتاء فأقاما هناك

1. – نوع من القماش الفاخر والنّاعم يليق بعلية القوم.

2. الحرير أو الدّيباج.

3. الظبلون. مازالت العامة عندنا بقسنطينة ينطقونه «الدبلون» وهو الدنانير الذهبية التي تشكل حزاما تتحلّى به النّساء القسنطينيات ن والواحدة «دبلونة».

إلى أن دخل فصل الرّبيع فجهّزا ثلاثة مراكب برسم الغزو وسافرا بمن معهما من الغُزاة متوكّلين على الله عزّ وجلّ.

فلمّا كان بعد يوم وليلة من سفرهما لقيا مركبا عظيما من ناحية نابل[1] ذاهبا إلى إسبانيا، دمّرها الله، فيها زعيمان من زعماء إسبانيا، ومعهما في المركب ثلاثمائة من النّصارى ( )[2] قربهم خيرالدّين وأخُوه، رمت النصارى بجملة من المدافع فلم يُصيبوا بها شيئا من المراكب وحماهم الله من إذايتهم، ثمّ اشتدّت بينهم الحرب ووقع بينهما قتال عظيم لا يمكن التّعبير عنه، وواصل الغُزاة الرّمي عليهم بالنشّاب حتّى دَهش الكُفّار من ذلك، ثمّ إنّ المسلمين أرادوا أن يهجموا عليهم فمنعهم الكفّار من ذلك بآلتهم الحربية من المكاحل[3] وغيرها.

تكرّر ذلك بين المسلمين وبينهم سبع مرّات ؛ ثمّ إنّ المسلمين لاصقوهم وربطوا مراكبهم لأجل الهجمة عليهم، فقطع النّصارى الحبل الذي ربطوا به المركب[4]، تكرّر ذلك منهم مرارًا إلى أن هجم عليهم الظلام، وقد كان حصل للغزاة ضعف من كثرة الحرب، فلمّا وضح ضوء الصّباح هجموا عليهم مرّة أخرى، فلمّا علم النّصارى أنّهم غير ناكبين عنهم أكثروا الصّياح والزّعاق[5] ليرعبوا بذلك المسلمين، فصمّم المسلمون عليهم وصدقوا الله في الهجوم عليهم، فكان من جملة محاورة النصارى إيّاهم

1. مدينة تقع على الساحل الشرقي من بلاد تونس.
2. بياض في المخطوط مقدار كلمة. المخطوط، ص: 11.
3. المكاحل تعني البنادق.
4. سوف تتكرّر في هذا المخطوط الدقّة التفصيلية في وصف الأحداث ممّا يدلّ على أنّ صاحب الكتاب كان مرافقا لحملات الأخوين، وخاصة خيرالدّين، ومدوّنا لإنجازاتهما البحرية والحربية وهو ما يجعل الاعتقاد بأنّ هذا التأليف هو بمثابة يوميات.
5. هو الصّراخ مع البكاء والنّحيب.

أنّكم لا طمع لكم فينا ما بقيت فينا عينٌ تبرق، فأجهدوا علينا جهدكم، فعند ذلك حمي المسلمون واشتدّوا في حروبهم تارة بالمدافع وتارة بالمكاحل وتارة بالنشّاب إلى أن دخل وقت العصر فكَلّ الفريقان من الحرب، ثمّ إنّ الله أفرغ صبره على طائفة المجاهدين وأنزل نصره عليهم فصدقوا الله في جهاد عدوّه إلى أن طلبوا منهم الأمان، فغنِمَهُم المسلمون وحصلت بذلك البشرى لطائفة الغزاة، وأمّا الكفّار فحصل لهم من الأسف والحزن مالا مزيد عليه، وكان أوّل من هجم على مركبهم خيرالدّين، ثمّ هجم عليهم الغزاة وذلك دليل على شجاعته وإقدامه.

ثمّ إنّ خيرالدّين رجع إلى تونس بهذه الغنيمة العظمى، وبقي أخوه عرّوج في البحر فلم يَرُع أهل تونس إلاّ وخيرالدّين داخل عليهم ببروز عظيم وشهرة زائدة وخلفه المركب الذي غنمه، فدهش النّاس من فعله، وتعجّبوا من صنعه وتحقّقوا أنّه لا نظير له في إقدامه وشجاعته، واهتزّ له السّلطان وأهل دولته، وانشغل خيرالدّين بإنزال ما فيها من الذّخائر والسّلع فكان من بين جملة ما فيها: ثمانون بازيّا من طيور الطّير، وثلاثون صمصوما وعشرون من الكلاب السلوقية ؛ وكان من عادة أهل تونس أنّهم يلبسون أسارى الرّوم ثيابا حسناء وقلانيس طوالا[1] ففعل بهم خيرالدّين على العادة ؛ فأعطى لكلّ واحد من النّصارى كلبا في يده، وألبس خيرالدّين رجاله ثيابا حسناء وأعطى لكلّ واحد بازيا في يده ؛ فيا لها من مناسبة حيث أعطى كلّ واحد ما يشاكله. وكان من جملة ما خرج من المركب أربع بنات أبكار من فتيات الرّوم، ولم يشاهد أحسن منهم خلقة، فألبسهن ثيابا حسنة تناسب حسنهنّ وجمالهنّ ؛ وكان لزعيمي النّصارى الذين

1. وهو ما يدلّ على حسن معاملتهم لأسرى النصارى.

كانوا في المركب بنتان من أحسن النّساء خلقة فزينهنّ بزينة تناسبهما ؛
فأمّا الأربع بنات فأركبهنّ على البغال، وأمّا البنتان فأركبهنّ على جواد من
عتاق الخيل. وكم من ذخائر ونفائس من الأمتعة وجّهها، فبعث الجميع مع
أحد خواصّه إلى حضرة السلطان، فكان ترتيب مسيرهم أن قدّم الأسرى
وخلفهم طائفة الغزاة بألويتهم وطبولهم فكان مرأى عظيما ومشهداً رائقا.
فسمع بذلك السلطان ففرح فرحا شديدا، وأمر أهل دولته وخاصّة وزرائه
أن يتوجّهوا للقاء الهديّة وللمجيء صحبتها ؛ فذهبوا كما أمر السلطان
ولقوا القاصد الذي ورد مع الهديّة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه ورجعوا معه
كما رسم لهم السلطان.

فلمّا وصلت الهديّة إلى حضرة السلطان وقعت منه أحسن موقع، وشاهد
منها ما لم يشاهده في أيّام دولته، وكثُر ثناؤه على خيرالدّين وعلى جماعته،
وقال: هكذا تكون الرّجال. فأبلغ القاصد سلام خيرالدّين إلى السلطان
ودعاءَه له بظهر الغيب، وأعلمه بما وقع لهم في هذه الغزوة، فتعجّب السلطان
من ذلك وحمد الله سبحانه وتعالى على ما منَحهم ويسَّر لهم من أسباب
الجهاد. وأمّا الغُزاة الذين وردوا صحبة الهدية فإنّ السلطان خلع على كلّ
واحد خِلعة وجعل على القاصد خلعة تُناسبه وأوصل الدّعاء لخيرالدّين،
وبعث إلى خيرالدّين خِلعة عظيمة مع القاصد الذي وجّهه صحبة الهدية،
وتاجًا من تيجان المُلك، وأكرم الغُزاة الذين وردوا مع الهدية بألفي دينار
ذهبا، ووجّه إلى خيرالدّين مع رسوله كتابا مُضمّنه أنّ أطلق يدهُ في أجفانه
البحريّة يختار منها جفنا يليق به ليكون له حظّا من جهاده.

فوصل الرّسول إلى خيرالدّين وأعلمه بما حصل للسلطان من الفرح
والسرور، وبالكرامات التي أكرمهم بها، فامتثل أمر السلطان إلى باب

البحر واختار من الأجفان أحسنها. وقد كان بعض الرؤساء من رؤساء
تونس طلب هذا الجفن من السلطان فلم يسمح له به، فاشتغل خيرالدّين
بعمارتها وبعمارة أجفانه المتقدّمة.

خبر عرّوج

وكان قد حصل له برحلات في البحر المتقدّم فتمادى على سفره وهو
جريح فطال عليه الأمر، وحصل له ألم شديد من تلك الجراحات فرجع إلى
تونس ولقي أخاه بها فأخبره خيرالدّين بما فعل معه السلطان من الإحسان
بحيث أنّه صار معه بمنزلة الإبن مع الأب بمدينة تونس، وانشغل عرّوج
بعلاج جراحه إلى أن حصل له البرء منها. وجاء فصل السفر المعهود
فاستعدا له على رسم عادتهما وسافرا وقد طار خبرهما في بلاد الكفر،
وكانوا قد سمعوا بأسر الزّعيمين الذين كانا في المركب المتقدّم فحصل
لهم حزن عليهما، فاستشار الكفّار فيما بينهم وقالوا إن بقي هذا الرّجل
على ما هو عليه من الغزو ولم نتدارك أمره قطع علينا البحر، فهو على
ما ترون من قِلّة جفانه قد فعل بنا هذه الأفاعيل فكيف إذا كثرت أجفانه
وصار نحو الخمسة عشر جفنا أو ما يقاربها؟ فعمّروا من الأجفان ثمانية
وأودعوها من أهل القوّة من رجالهم، وأهل المعرفة بالحرب وسافروا إلى
ناحية جنوة[1]، فسمع خيرالدّين بهذه العمارة فأراد أن يسافر إليهم.

---

1. جنوة مدينة قديمة جدّا يقال إنّها أنشئت سنة 707 قبل الميلاد واستولى عليها الرّومانيون سنة 222 قبل الميلاد وظلّت تابعة لهم إلى غاية سقوط الدّولة الرّومانية، ثمّ تناوبتها أيدي القبائل المتبربرة إلى أن فتحها شارلمان الفرنسي المتوفّى سنة 814 م واستقلّت في القرن العاشر واتّخذت التّجارة مهنة ونافست جمهوريتي بيشة المسماة الآن (بيز) والبندقية المسماة الآن (فنيسيا) وفي القرن الثّالث عشر حاربت بيشة وتغلّبت عليها ولاشت تجارتها وأخذت منها (كورسيكا) ثمّ أعطاها ملوك الرّوم بالأستانة قريتي بيرة وغلطة في ضواحي بيزنطة (القسطنطينية) ومدينة (كافا) ببلاد القرم ومدينة إزمير وغيرها ومن ثمّ وقعت المنافسة بينها وبين ==

- خبر غزو خيرالدّين لبجاية

وقد سمع بأنّ بجاية[1] أخذها النّصارى من أيدي المسلمين، فظهر له أن يغزوها بمن معه من جماعة الغُزاة، فسافر إلى ناحية بجاية وأرسى بقربها فرأى خمسة عشر جفنا من أجفان الكفّار قادمة إلى بجاية، فخرج خيرالدّين ومن معه من الأجفان إلى البحر طالبا للفُسحة، فظنّ الكُفّار أنّهم فرّوا منهم فحين توسّط خيرالدّين البحر جعل يُقلّل في السّير فاقتربت منه أجفان العدوّ وطمعت فيهم ورموا عليهم بجملة مدافعهم، فحين اشتغل الكُفّار بعمارة مدافعهم هجم عليهم المسلمون وشغلوهم عن الرّمي فدهش الكُفّار من هجمة المسلمين عليهم.

وكانت جِفان المسلمين التي قدم فيها أربعة، فأغرق عرّوج واحدة وأخذ خيرالدّين واحدة وفرّ الباقون إلى مرسى بجاية. ثمّ إنّ خيرالدّين بعث الجفن الذي غنِمه إلى تونس، ورجعوا إلى المرسى التي كانوا فيها يريدون بذلك انتهاز فرصتهم في عدوّ الدّين. فظهر لعرّوج أن ينزل إلى البرّ بطائفة من الغُزاة ليضرب العدوّ ببجاية فلم يساعده أخوه على تلك لرّؤيا كان رآها قبل ذلك، فصمّم عرّوج على ما أراده فأخذ معه خمسين من

=== البنادقة بسبب السيادة على البحار وحاربتها وانتصرت عليها مرارا وبقيت سيّدة البحار الشرقيّة إلى أواخر القرن الرّابع عشر ثمّ أخذت في التقهقر شيئا فشيئا بسبب عدم انتظام أمورها الدّاخلية وتفرّقت كلمة أهلها ففقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في حمى إسبانيا وأخرى في حمى فرنسا وطورا ترجع إلى استقلالها إلى أن احتلّها الفرنسيون سنة 1796 وشكّلوها بهيئة جمهورية في السنة التّالية وبعد سقوط إمبراطورية نابليون الأول في سنة 1815 ضمّت إلى لومبارديا وهي الآن تابعة إلى إيطاليا ... «أنظر تاريخ الدولة العليّة العثمانية، ص: 60 .

1. بجاية مرفأ بشرق الجزائر وقد لعبت المدينة دورا كبيرا في تاريخ الجزائر. وكانت على الخصوص عاصمة دولة بني حمّاد الزّيريين (405 - 547 / 1014 – 1152) وقد فشلت جهود بني زيّان كلّها لضمّ المدينة لممتلكاتهم.

الغُزاة ونزل إلى البرّ فلقي مثل عدده من الكفّار فاستأصلهم قتلا، ثم دنا من مدينة بجاية. فلمّا قرُب من حوز[1] المدينة رمى عليهم الكُفّار فأُصيب عرّوج في ذراعه[2] واشتدّ عليه الأمر بسبب الألم الذي حصل له، فسمع بذلك أخوه فبعث إليه طائفة من الغُزاة ليأتوا به، فوصلوا إليه وحملوه إلى أخيه خيرالدّين ؛ فحين وصل إلى أخيه خيرالدّين ازداد عليه الألم ( ) [3] قوي عليه الجراح فاجتمع رأي الأطبّاء على قطع يده فسعد[4] لهم خيرالدّين على ذلك وقال لهم: حياة أخي خيرا من موته ؛ فقطعوا يده فزاد عند ذلك ضعفه، وكاد يشرف على الهلاك، فوصّى أخاه وصايا من جُملتها أن يكون سفره دائما في جفنه وأن لا يُفارقه في هذه السفرة ليكون نظره عليه. فركب معه في جفنه واستناب أحد جماعته في جفن آخر وسافر إلى ناحية جزيرة الأندلس.

وقد كان الكافرُ عدوّ الدّين لمّا استولى على مدينة غرناطة[5] وأحوازها بقي هناك من الأندلسيين[6] طوائف كثيرة فصاروا يعبدون الله خفية ولا يجهرون بالأذان ولا بقراءة القرآن خوفا على أنفسهم من عدّو الدّين[7]، فبقي خيرالدّين في تلك النّواحي نحو الثلاثة أشهر ورفع[8] منها بعض

1. حوز جمع أحواز ضواحي المدينة.
2. أوّل حادث يتعرّض له عرّوج فيقطع ذراعه بسببه.
3. بياض مقدار كلمة. المخطوط، ص: 14.
4. هكذا وردت العبارة في المخطوط ولعلّها ساعدهم أو وافقهم على ذلك .
5. المقصود هنا الملكين الكاثولكيين فرناندو وايزابلاّ ملوك إسبانيا واستيلاؤهما على إمارة غرناطة كان عام 1492 .
6. - كاتب هذا المخطوط يكتب دائما «الأندلوس» ممّا يؤكّد أن لهجته مغربية .. فعادة ما ينطق الجزائريون والمغاربة في لهجتهم كلمة الأندلس بالتّمديد فيقولون «الأندلوس».
7. - هذه الطّائفة من الأندلسيين الذين بقوا في أرض إسبانيا بعد سقوط غرناطة أصبحوا يعرفون في المصادر التّاريخية باسم «المورسكيين» Los Moriscos .أنظر كتاب: المورسكيون ومحاكم التّفتيش في الأندلس للدكتور عبد الله حمادي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر والدّار التّونسية للنّشر 1994 .
8. يقصد أنقذ أو نجّى من محاكم التّفتيش «La Inquisicion». ويظهر أنّها بداية السّعي من طرف خير الدّين

المسلمين، وغنِم في أحوازها كثيرا من الكُفّار، ومن جُملة ما غنِمُوا جفْنا صغيرا ؛ فبينما هو يوما في سفر إذ بصر سبعة من الأجفان فقصدهم وهجم على واحد منها فأخذوه فوجدوه مملوءا ذخائر وسِلعا نفيسة فأرسله إلى تونس وفرّ الباقون إلى بلادهم. ثمّ إن الجماعة الذين فرّوا شكوا إلى الطاغية[1] ما حلّ بهم وما لاقُوه من خيرالدّين ( ) [2] له هذا الرّجل يقطع علينا البحر لا محالة، فاستشاروا فيما بينهم وجعلوا يُدبّرون كيف يمكن التخلّص منه، وفي أثناء هذا فرغ( ) [3]الزّاد على خيرالدّين وكان بقربهما جزيرة يقال لها منُورقة[4] فذهب إليها ؛ وكان من عادته أنّه يذهب إليها

بربروس لإنقاذ الموريسكيين الأندلسيين. وجهاز محاكم التّفتيش أقيم بطلب من الملكين الكاثولكيين: إيزابلاً وفرناندو، من البابا الكسندر السادس والذي منحهما لقب «الكاثولكيين» ؛ فمحكمة التفتيش بإسبانيا أقيمت بمباركة البابا والذي بموجب هذه المحكمة يعود مصير كلّ المسلمين واليهود تحت رحمة الرقابة الصارمة الدينية، وقد عيّن البابا أوّل حاكم عام Inquisitor General لهذا الجهاز الدومنيكي Fray Tomàs de Torquemada الذي اشتهر اسمه واقترن بزهق الأرواح على الشبهة الدينية والعرقية واللغوية، وخلفه كلّ من: الكاردينال ثيزنيروس El Cardinal Jimenez de Cisneros وDeza الذي لم يتردد في حرق العباد أحياء وكذلك الكتب العربية الإسلامية بما فيها القرآن الكريم في الساحات العامة : فهو من أكبر من ارتكب من الجرائم في حقّ المسلمين الأندلسيين. ويعود للكاردينال ثيزنيروس الفضل في إنشاء جامعة «Alcala de Henares التي كانت قاعدة لحركة النهضة الاسبانية وكذلك مقر الجوسسة الدينية من أجل تطهير إسبانيا من الإسلام واللغة العربية والتقاليد العربية الإسلامية، كما يعود لها الفضل في نشر الإنجيل والترويج له.

1. لقد علّق كلّ من «Sander Rang et Ferdinand Denis على عبارة «طاغية» التي عادة ما يصف بها صاحب المخطوط ملوك النّصارى قائلين:

«... Ils nomment les rois chretiens – Taghiet -; c'est-à-dire rebelle à la fois, le seul titre que le roi de Maroc donne encore à plupart des princes européens en leur ecrivant. Peu s'en est fallu que nous ayons en la guerre avec le sultan Mohammed, le pére de celui qui régne aujourd'hui à Maroc, pour le forcer à donner le titre de Sultan au roi de France. Il voulait bien l'appeler et lui ecrire Re de France, mois non pas sultan de France, ce ne fut qu'après plus de trois ans de négociations, qu'il consentit à lui reconnaître ce titre dans sa propre langue. (note de traducteur). Hist. De Barb. Vols. 1, p: 38.

2. بياض في المخطوط مقدار جملة محذوفة، المخطوط، ص: 15.

3. كلمة محذوفة، المخطوط، ص: 15.

4. جزيرة في البحر المتوسط إسمها بالإسبانية Minorca، وتتبع حاليا إسبانيا وتقع بجوار جزيرة أخرى تسمّى ميوركة Mayorca .وجزيرة مينورقة هي جزيرة تدخل ضمن ما يسمّى بجزر البليار تقع في غرب المتوسط وتشكّل أرخبيلا يغطّي مساحة كبيرة تصل إلى 4900 كلم مربّع يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة = = =

ويبيع ويشتري مع أهلها ولا يضرّهم أحد منهم، فأذركتهم الحميّة لأهل دينهم والغيرة لهم لِمَا فعل بهم خيرالدّين من الأسر والقهر فأرادوا أن يمكروا به والله لا يهدي كيد الخائنين، فأحسَّ بالشرٌ منهم وأقلع عنهم إلى بعض المراسي بقربهم وأقام بها، ثمّ إنّ الغزاة نزلوا إلى البحر فوجدوا أثر مرقد الغنم فاستدلّوا بذلك على أنّ الكُفّار نقلوا غنمهم إلى الجبل، ونظروا إلى الأطراف يمينا وشمالا فظهر لهم بناء في بساتين الجبل وذلك لعظيم من عظماء الكُفّار، فعزم الغُزاة إلى الذهاب إلى ذلك البستان فاَستمروا جماعتهم فأمروهم، وجعلوا حارسا منهم على رأس الجبل ينظر إليهم وإلى الأجفان خشية هجوم الكُفّار على الأجفان، وذهبوا في ثلاثين رجلا إلى ذلك البناء، فحين قربوا منه تحصّنَ في ذلك البناء من كان خارجه من النّصارى فوقع بينهم وبين الغُزاة قتال عظيم وآل الأمر إلى أخذه بعون الله تعالى وحسن تأييده فوجدوا فيه ثلاثة وأربعين من النّصارى، واستولوا على ما فيه من الذخيرة ؛ ومن جُملة ما وَجدوا فيه ثلاثة من الخيل لصاحب ذلك البناء، فركب خيرالدّين على أحد تلك

= = = وتتكوّن من خمس جزر رئيسية هي: ميورقة ومنورقة ويابسة Ibiza وفرمنتيرة Formentera وقبريرة Cabrira هذا بالإضافة إلى حوالي مائة جزيرة صغيرة وكتلة صخرية تتناثر حول الجزر الخمس الكبرى، وتتميّز هذه الجزر بموقع استراتيجي خطير بين سواحل شرق إسبانيا وجنوب فرنسا وغرب إيطاليا، وجزر سردانية وقرسقة وصقلية وسواحل بلاد المغرب الشمالية. لهذا فهي بمثابة حلقة اتّصال بحري ومركز صراع دولي ونقطة التقاء حضاري منذ أقدم العصور ... وتقع مدينة الجزائر على بعد 256 كلم إلى الجنوب من هذه الجزر بينما تقع برشلونة إلى الشمال الغربي منها على بعد 160 كلم ... أطلق اليونانيون ومن بعدهم الرّومان إسم بليارس Baliares على هذه الجزر وهي مشتقّة من كلمة Ballein (بالين) اليونانية وتعني «ألقى أو رمى» وذلك لبراعة سكانها القدامى في رمي الحجارة بالمقلاع، وقد أطلق الرومان على كبرى جزر البليار اسم مجرويكة Majorica أو مجوركة Majorca أي الجزيرة الكبرى، وعلى الجزيرة التي تليها في المساحة اسم منوريكا Minorica أو منورقة Minorca أي الجزيرة الصّغرى، ....../ .... وأطلق العرب المسلمون على هذه الجزر أسماء كالجزائر الشرقية أو جزر شرق الأندلس ... أنظر تفاصيل أكثر في كتاب الدكتور عصام يالم سيسالم: «جزر الأندلس المنسية (التّاريخ الإسلامي لجزر البليار)، نشر دار العلم للملايين، بيروت 1984 ابتداء من ص: 15.

الأفراس وحملوا على الآخرين بقية الأثاث، فحين قربوا الأجفان لقيتهم بقية الأجفان وقالوا له: أيّها الرايس[1] ما السبب حتى تخالفنا وتذهب بغيرنا إلى الغزو؟ فأيّ ذنب أذنبناه معك حتّى تقابلنا بهذا؟ فلا بدّ لك أن تذهب بنا كما ذهبت بهم ويكون لنا من الأثر في الجهاد مثل أثرهم؟ فبعث من معهم من الأسارى والأمتعة إلى الجفن وذهب بأربعين من الذين تلقوه ومسك معه أسيرا من النّصارى ليدلّه على الطريق ويريه الموضع.

وقال لذلك النّصراني إن دللتني على موضع نحصل منه غنيمة ننعم لك بالسّراح ونردّك إلى بلادك، فذهب بهم إلى غابة الزّيتون، فجاوزوا تلك الغابة وساروا قليلا إلى أن رأوا نحو المائتين من الكُفّار جالسين في ناحية () [2] ولمّا رأى النّصارى الغُزاة دخلوا إلى بناء، فقصد المسلمون ذلك البناء وأخذوا في محاربتهم، فرأى بعض الغزاة فأسا مطروحا قُرب ذلك فأخذوه واستعانوا به على الهدم، فحين أشرفوا على الدّخول إليهم تذكّروا أمر أجفانهم وخافوا من هجمة الكفّار عليهم فعزموا على الرّجوع، فسلكوا طريقا في ذلك البستان فرأوا جماعة من الكُفّار قاصدين إليهم برسم الحماية لجماعتهم المتحصّنين فصاحوا عليهم يا شياطين التُّرك أين تذهبوا ونحن في طلبكم؟ وكانوا نحو الثلاثة مائة، وكان الغُزاة قد أحسُّوا بمجيئهم، وكان الفرسان منهم نحو الستّين والباقون.

قال خيرالدّين لجماعته الغُزاة: أنتم أردتكم هذا، ولو كان الأمر بيدي ما جئنا إلى هذا المحل، وهكذا عاقبة الطمع، فقالوا له: قد وقع وليس إلاّ

---

1. يقول كلّ من الباحثين Sander Rang et Ferdinand Denis إنّ كلمة رايس تعني
..on nomme Reis indistinctement tous les capitaines de navires et même les patrons. L'importance du Reis depend de celle de batiment qu'il commande, sa raçon et le double de celle d'un simple matelot, et quelquefois davantage selon sa réputation. Hist. De Barb. Vols. 1, p: 8.

2. هناك بياض في المخطوط مقدار كلمة. المخطوط، ص: 16 .

مقاتلتهم حتّى ينصرنا الله عليهم ونموت على آخرنا، فكبّر الغُزاة وأرادوا الهجوم عليهم، فلمّا رأى خيرالدّين كثرة الكُفّار وهم قاصدون إلى باب البستان قال لجماعته: إنّ من الرّأي السديد أن نجلس لهم خلف الباب ونمنعهم من الدّخول إلينا، فوقع اتفاقهم على ذلك، فلمّا اجتمع الكُفّار بباب البستان كبّر المسلمون تكبيرة واحدة وهجموا عليهم فرأوا من حرب المسلمين ما لا قبِل لهم به، فلم يَسَعْهم إلاّ الفِرار، ففرّوا بين أيديهم، فذهب المسلمون في إثرهم يقتلون ويأسِرون وأسروا رايسهم، ورجعوا إلى أجفانهم بهذه الغنيمة، وهذه عادة الله تعالى مع من أخلص في جِهاده من عبادهِ ؛ فحين وصل خيرالدّين إلى أجفانه وأمِنَ على نفسهِ وجماعته استخبر النّصارى المأسورين، وقال لهم: ما كان مُرادكم أن تفعلوا بي حين أرسيتُ على جزيرتكم مِينُورقة[1]؟ فإنّه بلغني أنّكم كنتم عازمين على المَكْرِ بِنا من غير إذاية تقدّمت مِنّا إليكم، فما كان مُرادكم أن تفعلوا بنا ؟ فقالوا له: كان مُرادنا أن نبعث ثلاثة عشر جَفْنا كأنّهم خارجُون برسم السفر، ونخرج لك عسكرا من البرِّ فلا يبقون منكم أحداً فألهمك الله من الخلاص منًّا فكانت لك الكرّة علينا، فقال لهم خيرالدّين: يا ملاعين أما تعلمون أنّ الغزوَ قبيح في جميع الملل ؟ فقد أوقعكُم الله في البئر التي حفرتموها لنا، وهذه عاقبة كل غادر.

ثمّ إنّ خيرالدّين أمر بعض الكُتّاب يكتب كتابا على لسانه مضمّنه: «أنّكم خنتم العهد وغدرتم بنا من غير سبب تقدّم مِنّا إليكم فأمكننا الله من رِقابكم وأموالكم فانظروا ما صار؟ فها أنا صاعقة أرسلني الله إليكم وسترون عن قريب ما يحلّ بكم فأنا لا أنتهي عنكم حتّى أذِلَّ رقابكم

---

1. سبق التعريف بهذه الجزيرة.

وأستعبد حرائركم، واستخدم بناتكم وأحتوي على سائر بلادكم بعون الله تعالى». ثمّ إنّه ختم الكِتاب وجعله في عُنق فرس من تلك الأفراس التي بها، وأرسله في الجزيرة ليقع بيد الكُفّار، ثم إنّه ركب في أجْفانه وسار إلى بعض المراسي وأرسى بها. وكان مُرادُ خيرالدّين أنّه إذا اجتاز به بعض سفُن ( )[1] من بأحواز تلك المرسى.

وكان خيرالدّين سمِع أن سفينة كبيرة من سفُن «الجنويين» بصدد الخروج فكان يتشوّف إليها لتقع بيده، ولا يتعرّض للأجفان الصِّغار التي تمرُّ به.

وكانت تلك السفينة لم يُساعدها ريح، وصادف ذلك أن فرغ الزّاد على خيرالدّين وجماعته من الغُزاة، فرأى من الرّأي السديد أن يعودَ إلى مدينة تونس، فصمّم العزم على الرّجوع فصادف في طريقه أربعة من الأجفان فاَستولى عليهم فوجد فيهم زادا كثيرا، وسلعة كثيرة وأسِرَ جماعة منهم وبعضهم هرب في البحر في بعض القوارب، والبعض ألقى بنفسه في البحر فهلك، وقد كان النّصارى، دمّرهم الله، عمّروا نحو ثمان مائه سفينة بالعِدّة برسم لقاء خيرالدّين والاستيلاء عليه، فأرسلوا ببعض المراسي حتّى يتكامل عددهم، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم النّصارى الفارّين من خيرالدّين في القوارب، وشكوا إليهم ما حلّ بهم، وكيف استولى عليهم، فقام زعيم النّصارى وقعد من أجل ذلك، وأقلع عن تلك المرسى قاصداً خيرالدّين وجماعته من الغزاة المجاهدين، وأقسم اللّعين أنّه لا يُفارقه إلاّ بعد الاستيلاء عليه،فتصدّى لغارتهم أحفان المسلمين حين لاح ضوء الصباح، فلمّا رأى المسلمون لم ( )[2] لهم لكثرتهم، وذهبوا إلى بعض

1. كلام غير مفهوم يظهر كأنّه جنوة وبعدها كلمة غير مقروءة. المخطوط، ص: 17.
2. كلمة غير مفهومة وتبدو «أن لا طاقة».

النواحي قال النّصارى فيما بينهم: ألا ترون إلى شياطين التُّرك كيف هربوا منّا فلا بدَّ لنا أن نذهب في إثرهم فصمّموا على اتِّباعهم ؛ فلمّا أدركوهم ورأى خيرالدّين أن لا محيد له عنهم توكّل على الله وعطف عليهم فوقع بينهم حرب عظيمة تارة بالمدافع وتارة بالمكاحل وتارة بالنّشّاب إلى أن أنزل الله صبره على الغُزاة فكان من إقدام خيرالدّين وجماعته أن قصد الجفن الذي هو لكبير النّصارى وربطوه بجفنهم وهجم عليه هو وجماعته فاستولى عليه ونكّس راية الكُفْرِ ونصب راية الإسلام[1]. فلمّا رأى ذلك بقيّة النّصارى دهشوا وعزموا على الفِرار ؛ ثمّ إن جماعة الغُزاة لمّا رأوا عزْم الكُفّار على الفِرار فنطقوا بلسان واحد: الله الله، وذهب اثنان من الأجفان في إثرهم؛ وكان خيرالدّين رفع أسرى الرّوم إلى جفنهِ وجعل عشرة من أصحابه في جفنهم برسم حراستها، وألحّ الجفان في طلب بقيّة أجفان النصارى، فلمّا رأى أهل الأجفان من النّصارى انقطاع الجفنين عن خيرالدّين عطفوا عليهما وكانت أجفان النّصارى سبعة، وجعلوا جماعة كلّ جفن من الغُزاة في الطبقة السُّفلى منه ورُفعَ أسبابِ الجفنين إلى مراكبهم.

وكان خيرالدّين قد تبع الجفنين بمن معه، فلمّا رأى ما وقع على الجفنين من النّكبة، وكيف استولى الكفّار عليهما ثار به أقوامه وحزمه ودخلته الحميّة لجماعة المسلمين الحائرين. فلمّا أبصر الكُفّار خيرالدّين في إثرهم علموا أنّهم لا طاقة لهم به ففرّوا بين يديه وتركوا له الجفن فاستولى على الجفنين من أيدي الكُفّار وأخرج المسلمين ممّا كانوا فيه من الاعتقال. فلمّا رأوا ذلك بهتوا من شجاعة خيرالدّين وأقوامه وتضاعف حبّه في قلوبهم( )[2] لقد هلك في هذه الحرب جماعة كثيرة من المسلمين أكرمهم الله بالشهادة وفازوا بالحظّ الوافر من الأجر والسَّعادة.

1. لا ندري كيف كان شكل راية خيرالدّين في ذلك الوقت، وقبل أن يصبح تحت الإيالة العثمانية ؟.
2. بياض مقدار كلمة، المخطوط، ص: 18.

فلمّا جاء فصل الرّبيع اشتاق الغُزاة إلى الغزو[1]، وحنُّوا إلى جِهاد الكُفَّار( )[2] كان خيرالدّين استخلص لنفسه سبعة أجفان وسبعة أجفان لباقي النّاس، فسافر في أربعة عشر جفنا، فبقي مدّة في البحر لم يُصادف أحدًا من الكُفّار فانتهى به السّير إلى أن أرسَى على بعض جزرهم وأنزل الغُزاة في البرِّ فتوجَّهوا إلى حِصْن للكُفّار هنالك وأحاطوا به من كلّ ناحية، وشرعوا في قتالهم إلى أن يسَّر الله عليهم فتحه وغنِمُوا جميع من فيه من الكُفّار، فوجدوا فيه ألفًا وثمانمائة كافر، فوزّعوا الأسرى على خدمة الأجفان على اختلاف أنواعها، وأمّا البنون والبنات فقسّمهم على الغُزاة ؛ ثُمّ إنّ الأُسَارى طلبوا من خيرالدّين الفِدَاءَ وتوافقوا معه على ألف دينار من النّحاس مطبوعة لكلّ واحد منهم، فقبض منهم ذلك المال المقرّر وسرّحهم إلى جزيرتهم وخرج مُسافرا بعد إقامته مدّة في تلك الجزيرة، فظهر له جفن من أجفان العدوّ ففرَّ الجفن أمامه يطلب الخلاص لنفسه وتبعَهُ خيرالدّين إلى أن حال بينهما الظلام فغاب عنه ولم يدر أين ذهب، فأمر خيرالدّين بمِشعل في جفنه ليقفُوَ أثرهُ بقية أجفانه في الظلام كما هي عادة أهل البحر.

وكان في تلك النّاحية أربعة أجفان للعدوِّ، فلمَّا رأوا قنديل الجفن تبِعوهم ظنّا منهم أنّه من جملة أجفانهم، فكان كالباحث على حتْفِه والجادع[3] لأنفه، فلمّا لاحَ ضوء الصّباح نظر خيرالدّين إلى أجفان العدوِّ بقُربهم فصمّم نحوهم، فلمّا رأوا أنّه غير تاركهم لا محالة، وقد تحقّقُوا

1. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدّولة العليّة: «.... واستمرّ عرّوج وخيرالدّين في حرفتهما وهي أسر مراكب المسيحيين التّجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركابها وملاّحيها بصفة رقيق .» ص: 95.

2. بياض مقدار كلمة، المخطوط، ص: 19 .

3. القاطع لأنفه.



أنّه خيرالدّين ألقى اللهُ الرُّعب في قلوبهم وثبّطهم على القِتال، فلمّا قرُب منهم وأراد الهجُوم عليهم طلبوا منه الأمان فاستولى عليهم، فوجد هذه الأجفان مملوءة شدائد المِلف[1]، وكان عدّتها ألف شدَّة.

وكانت هذه الأجفان ذاهبة إلى بلاد الإفرنج، ففرح خيرالدّين بهذه الغنيمة العظيمة، وحمد الله على ما منحه من الظّفر بعَدُوّ الدّين، ثمّ رجع بهذه الغنيمة إلى حضرة تونس، فأعطى الخُمُسَ لصاحب الحضرة كمَا تقرَّر بينهم[2]، وحصل للسّلطان فرح عظيم بذلك وتضاعفت رغبتهم في خيرالدّين وجماعة الغُزاة. ( )[3]

فإنّه صادفه أخوه عرّوج صباح تلك اللّيلة التي فرّ فيها ؛ وكان عرّوج مُنفرِدا عن خيرالدّين في هذا الوقت، فاستولى عليه، وكان ذلك الجفن وسقه[4] لوحا، ثمّ استمرّ في سفره إلى أن وصل إلى مرسى يُقال لها «بلونية» فوجد فيها أربعة أجفان للعدوّ فاستولى عليها بعد قِتال وقع بينهم.

ثمّ رجع إلى حضرة تونس فرأى ما هيّأ الله له ولأخيه من الظّفر بعدوّ الدّين فحمِد الله كلّ منهما على ذلك فأدّوا خُمسَ تلك المغانم إلى السّلطان[5] وقسّموا ما فيها على الغُزاة، واستغنى جميع الغُزاة من تلك المغانم التي لا يُحيط بها الحصر.

وكان في مدينة تونس بعض الرُّؤساء اسمه محي الدّين فأهديا له ذلك اللَّوح.

1. لفائف من القماش الرّفيع الذي يسمّى الملف .
2. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدّولة العليّة: «... وكان خيرالدّين وأخ له يدعى (أوروج) يشتغلان بحرفة القراصين ببحر الرّوم ثمّ أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس «ص: 95 .
3. سطر محذوف من المخطوط، المخطوط، ص: 20 .
4. شحنته أو حمولته .
5. سلطان تونس محمد الحفصي آنذاك .

- أوّل هديّة بعث بها خيرالدّين وعرّوج إلى السّلطان الأعظم سليم :

ثمّ إنّ خيرالدّين وأخاه عرّوج صنعا هديّة عظيمة من نفائس الأموال التي غنماها من الكُفار ووجّهاها إلى السّلطان الأعظم سليم[1] كلّ واحد من وزرائه وخاصّيتِه هديّة على قدره صُحبة محي الدّين رايس المذكور آنفا. فوصل بالهديّة إلى حضرة «إسلام بُول» فاَستحسن السلطان وخاصّته هذه الهديّة وبالغُوا في الثّناء على خيرالدّين وأخيه عرّوج ودعوا لهما بالتّأييد والنّصر على أعداء الله الكَفرَة، وأجابهما السلطان بكتاب مُضمّنه الدّعاء لهما والشّكر على هديتهما ووجّه لهما صُحبة محي الدّين رايس جفنين بمجاديفها وشحنها برجال البحر العارفين بأحوال البحر والسفر فيه، مكافأة لهما على هديتهما.

وكان خيرالدّين وأخوه عرّوج عزما على السَّفر إلى ناحية سبتة[2] وأحوازها من بلاد الأندلس فسافر في عشرة أجفان غزويّة فوصلا إلى ناحية بجاية[3] فأرسيا في بعض المراسي هنالك، فسمِع بقُدُومهما أهل

الشيعة المنتشرين في
1. هو السلطان سليم الأول الغازي الملقب بياوزاى القاطع من أعماله حصاره لعدد
الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرّية ثمّ أمر بقتلهم جميعا فقُتلوا ويقال إن عددهم كان يبلغ نحو
الأربعين ألفا وهذه المذبحة كالمذبحة التي حصلت بباريس سنة 980 الموافق 24 أغسطس سنة 1572 المشهورة
في التاريخ بمذبحة سان برتلمي وسار بجيشه إلى بلاد الشام قاصدا وادي النيل وكان قانصوه الغوري استعد
أيضا لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهباء في واد يقال له مرج دابق وهزم الغوري وقتل سنة 922
الموافق سنة 1516 وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق وعين بها
ولاة من طرفه وقابل بها من العلماء فأحسن وفادتهم وفرق الإنعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي
بدمشق ولمّا صلّى السلطان الجمعة به أضاف الخطيب عند ما دعا له هذه العبارة (خادم الحرمين الشريفين)
وهي مستعملة في الخطبة إلى الآن وتوفي في 9 شوال سنة 926 الموافق 22 سبتمبر 1520 في السنة التاسعة من
حكمه والحادية والخمسين من عمره إذ كانت ولادته في سنة 875. تاريخ الدولة العلية. ص: 73 – 78 .
2. سبتة تقع على الساحل الشمالي للمغرب الأقصى وهي تابعة حاليا لإسبانيا شأنها في ذلك شأن مليلية
. Ceuta y Melilla
3. بجاية بكسر الباء الموحّدة وفتح الجيم ثمّ ألف مثناة وهاء، هي مدينة بالقطر الجزائري على الشاطئ
الشرقي للبحر المتوسط، والمدينة بنيت على شكل مدرّج فوق المنحدرات السفلية بجبل «قوراية » = = =

تلك النّاحية من العلماء والصّلحاء والأشياخ فبعثوا إلى خيرالدّين وأخيه كتابا يشكرونهما على ما يسّرَ الله لهما من غزوتهما الكبيرة وفتوحاتهما الشهيرة قائلين لهما في ذلك الكتاب: «إنّ الله تعالى تكفّل بنصركما حيثُما توجهتُما لم تنكسر لكُما راية قطُّ في الجِهادِ، فكيْف تَدْعُونَنَا في أيدي العدوّ الكافر لا نعبُد الله إلاّ على خِيفة، ولا نقدر على إشهار دِيننا وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم؟»[1] وتضرّعوا لهما غاية التضرّع في ذلك الكتاب[2] واستشفعوا لهما بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلّم.

= = =(وتعني عبارة قوراية باللغة الوندالية الجبل) يرتفع عن سطح البحر بنحو 600 م ؛ كلمة بجاية اسم أطلق على المدينة في تاريخ غير معلوم ولعلّه متأخر العهد عن كلمة «صلداي» الفينيقية، أو «سلدايا»، وأطلق القرنسيون عليها اسم «بوجي Bougie» أي الشمعة ؛ ولعلّ هذا الاسم قد اشتق من شهرة أهلها بتجارة الشمع منذ عهد بعيد، ويذكر ابن خلدون في تاريخه أنّ موقع مدينة بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمّى بجاية أو بقاية (بقاف معقوفة) فأطلق هذا الاسم على المدينة وسمّيت به وينطق بها القبائل الآن بقايث بقاف معقودة وثاء في آخرها، وهذا الرأي الأخير لتأويل اسم بجاية هو الرأي الصحيح لأنّ البربر قد تعودوا أن يطلقوا اسم أول قبيلة تنزل بموقع ما على ذلك الموقع نفسه. كانت بجاية في القديم تدعى سلداي في العهد الفينيقي واتخذها الرومان قاعدة هامة واستعملها الونداّل عاصمة لهم في عهد جنسريق عام 439 ميلادية ثم دخلت تحت الحكم الإسلامي في حدود 708 ميلادية وصار لها شأن عظيم في عهد رابع سلاطين بني حمّاد النّاصر بن علنّاس (460 / 1067) بأن صارت عاصمة إمارة الحمّاديين (405 – 547 / 1014 – 1153)، وفي العهد الأخير قبل مجيء الأتراك دخلت بجاية تحت حكم الدولة الحفصية (1284 – 1368) وكان أهل بجاية يتعاطون القرصنة في أواخر القرن الرابع عشر الملادي وبداية القرن الخامس عشر ...» أنظر تفاصيل أكثر في كتاب «عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العبّاس أحمد بن أحمد الغُبريني، تحقيق الأستاذ رابح بونار، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 20 – 24 .

1. يظهر من خلال هذه المراسلة الأولى بين الأخوين عرّوج وخيرالدّين وأهل بجاية أنّهم اعتبروا الأخوين مسلمين.

2. تقول بعض المراجع إنّ الوفد الذي اتّصل بعرّوج قرب بجاية والذي من بينهم الشيخ البربري كما ورد في هذا المخطوط والذي هو الشيخ أحمد بن القاضي شيخ قبائل زواوة وقائدهم، والذي ينحد من شجرة عائلة أبي العبّاس الغبريني صاحب كتاب «عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» ؛ والذي كان يعمل قاضيا لدى آخر أمراء بجاية التّابعة آنذاك للسلطنة الحفصية (627 – 943 / 1229 – 1526) ؛ وكان قدوم عرّوج عليهم في حدود 1511 بعد احتلال الإسبان لبجاية عام 1510، كما تقول المصادر. أنظر كتاب كورين شوفالييه: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 26 – 27 .

فلمّا وصل الكتاب دخلتهما الحميّة لدين الإسلام وأثنيا عزمهما على قصد سبتة فقرّبا من ساحل بجاية[1] وكان قرب ذلك الساحل بناء للكافر برسم حراسته فحاربوا أهله واستولوا عليهم فوجدوا فيه نحو المائة كافر. وكان هنالك جملة من المسلمين يُعطون الخراج للنّصارى لضعفهم عن القتال فجُعِلُوا هنالك برسم الحراسة وتقدّما ببقيّة عسكرهما إلى بجاية بعدما أدخلوا جفنهما الكبير الوادي، فلمّا قرّبوا من بعض حصُونهما وقع بينهم وبين ذلك الحِصن قتال عظيم، ودام القتال بينهما ثلاثة أيام، ففي اليوم الرّابع هجم المسلمون عليهم، فلمّا رأى الكُفّار ذلك طلبوا الأمان من جماعة الغُزاة فلم يسمح لهم بذلك فاستأصلوهم قتلا وأسرا، وكان جُملة النّصارى الذين حصلوا بأيديهم خمسمائة وأباحوا للمسلمين الكائنين بتلك الأحواز من البرابرة[2] جميع أسباب ذلك الحِصن وما احتوى عليه من الذخائر.

فلمّا رأى بقيّة تلك النّاحية ما منَح الله تعالى لعرّوج وأخيه خيرالدّين من هذا الفتح العظيم قدِم عليهم نحو العشرين من البربر( ) [3] فقصد

1. بجاية مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر وكانت تحت الاحتلال الإسباني والجنوي أيام الأخوين عرّوج وخيرالدّين بعد ما كانت تابعة للدولة الحفصية واحتلّها الإسبان سنة 1510 وتصدّى لمقاومتهم كما يقول شوفالييه «وبعد سقوط بجاية عام 1510 تزعّم القبائل قصد الوقوف في وجه الغزاة، ولمّا جاء عرّوج إلى بجاية التحق به ابن القاضي وأصبح خليفة له وعلى إثر ذلك تولّدت صداقة متينة بينهما والتي سيكون لها أثر إيجابي على عرّوج بحيث أنّ هذا الأخير سيقوم بمهاجمة مدينة بجاية من جهة البحر بينما تهاجمها جيوش ابن القاضي المكونة من آلاف الرّجال من ناحية البرّ.» ص: 27. وجاء في كتاب: Histoire de Barberousse حول موضوع احتلال الإسبان لبجاية ما يلي:

«Pierre Navarre reunit aussitôt les vesseaux qu'il commandait déjà à ceux que Jérome Vianelli lui amena à Ivice, et après avoir rapidemant organisé son armée il mi à la voile pour Bougie le 1 janvier 1510. Vol: 2, p: 123.

وقبل هذا التّاريخ كما نعلم كان احتلال وهران من طرف الملك الإسباني فرديناند بمعية ومباركة الكاردينال خيمينيث دي ثيزنيروس EL Cardinal Cisneros .

2. المقصود السكان الأصليين بتلك النّواحي من بجاية والذين أغلبهم برابرة أمازيغ كانوا تحت إمرة أحمد بن القاضي، ومن هذه القبائل على سبيل المثال: قبيلة الغبريني وقبائل آيت يحيى، وقبائل آيت بوشايب، وآيت فراوسن ... أنظر شوفالييه، ص: 37.

3. كلمة غير مفهومة في المخطوط، المخطوط، ص: 22 .

الجميع مدينة بجاية برسم فتحها فأقاموا على حصارها أربعة وعشرين يوما، ووقع في هذه المدّة من القِتالِ والتضييق على الكفّار أمر عظيم لا يسعه الحصر، وكان قد فرغ عنهم البارود، فوجّه خيرالدّين وأخوه إلى سلطان تونس رسولا برسم إعانتهم بالبارود وغيره من آلات الحرب. فذهب إليه دَاء الحسد، والعياذ بالله، ودخلته أفكار سوء ونزغات شيطانية فامتنع من إسعافِهما بما طلباه[1]، فسمع بذلك المجاهدان خيرالدّين وأخوه فتغيّرت قُلوبهما عليه، وحقّ لهما ذلك ؛ وكان المَدَدُ قد أتى على الكُفّارِ من رايس بلادهم وعدّتهم أربعة عشر ألفا فتعذّر عليهما فتحها بعدما بذلا غاية مجهودهما، ولكلٍّ أجل كتاب، فرجعا إلى أجفانهما المخلفَة بالواد الكبير فوجدا الماء قد نضبَ عليهما فلم يقدِرَا على إخراجهما فأحرقوها خشيةَ استيلاء الكفّار عليها وحمل الغُزاة الخمسين المخلفين في البناء وسافرا إلى ناحية جيجل[2] بمن معهما من الغُزاة وجماعة الأسارى، وعدّة الأسارى ستمائة، وقد كانا بعثا إلى جيجل ثلاثة من الأجفان ليجدها عدّة إن طرأ

1. من هنا ستبدأ العداوة الدّائمة بين سلطان الحفصيين وخيرالدّين والذي يبدو أنّ السلطان الحفصي توجّس خيفة من أطماع خيرالدّين وخاصة بعد أن سيطر هذا الأخير على الجزائر وامتدت أطماعه إلى تلمسان وكلّ الأراضي التي يوجد عليها الاحتلال الإسباني. ويقول شوفالييه في كتابه ثلاثون سنة ... ومن جهة أخرى فإنّ سلطان تونس قد تخلّى عن الإخوة بربروس حسدا على الانتصارات التي حقّقها الإخوة بربروس، ولجأ عرّوج وإخوانه بعد ذلك إلى جيجل حيث قام بطرد الجنويين منها وأسس مملكة صغيرة والتحق به أكثر من 20.000 من الأهالي البربر وقدّموا له خدماتهم لتخليص البلاد من الكفّار. ص: 26 .

2. مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر لا يعرف بالضبط أصل تسميتها ولا متى تمّ تأسيسها. وبعض المصادر ترجع تأسيسها للفينيقيين، وغير معروف مدلول اسمها أو لماذا سميت بها الاسم ؟ فقد اختلف الباحثون في أصل تسمية «جيجل» أو «إيقلقلي» Igilgili فالبعض يدّعي أنّها تسمية محلّية كتامية نسبة إلى قبيلة كُتامة الأمازيغية، لأنّها قريبة من النّطق المحلّي الأمازيغي، لأنّ المنطقة كانت ماهولة بالسكان بدليل المحطة الأثرية المنتشرة في هضبة بني قايد، وبدليل نطقها أيضا وكتابتها قبل العهد الإسلامي إذ كان الرومان يكتبونها «إيقلقيلي» حسب النّقيشة الأثرية المحفوظة بمتحف سيرتا بقسنطينة والتي تعود إلى العهد الروماني. أمّا البعض الآخر فيرجع أصلها إلى مدينة «قلقيلية» الفلسطينية والتي هاجر ملكها إبّان العهد الفينيقي إلى مدينة جيجل فأطلق عليها تسمية المدينة التي هاجر منها ..» أنظر تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا للأستاذ محمد خنوف، منشورات الأنيس / الجزائر، ص: 34-35 .

عليهما حادث من حوادث الدّهر كما وقع لهما. فلمّا وصلاها أقام عرّوج رايس بها وسافر خيرالدّين بثلاثة أجفان إلى مدينة تونس، فلمّا وصلها اشترى أربعة فصار جملة أجفانه سبعة وكان لأهل تونس سبعة ؛ فأراد أهل تلك الأجفان مرافقته في الأجفان تيمُّنا لأنّه ما توجّه قطُّ إلى ناحية إلاّ وفتح الله عليه[1]. فبينما هو في إنشاء هذه الحركة إذ وصل محي الدّين الذي كان وجّهه بالهدية إلى حضرة «إسلام بول»[2] ومعه رايس جليل من رؤساء السلطان يُقال له قرط علي[3] أتى برسم زيارة خيرالدّين وتبرُّكا بشهامته لأنّه طار خبر جهاده في بلاد الإسلام، وأتى برسم الغزو معه ومع محي الدّين ؛ وقرط علي رايس وآخر يقال له مُصلح الدّين في أربعة عشر جَفْنًا، فخرج الجميع برسم الغزو، وكان عدد هذه الأجفان التي خرجوا بها ثمانية وعشرين جفنا، فسافروا مدّة، فكان من مقادير الله تعالى أن صادفوا ثمانية وعشرين جفنا كبارا، فلمّا رآهم المسلمون صدقوا الله في جهاده وقصدوا قصدهم فألقى الله الرّعب في قلوب العدوّ وألقوا إلى المسلمين بأيديهم فاستولوا على رايس الأجفان ورجعوا بهم قاصدين

1. سنجد في صفحات المخطوط القادمة كيف يقرّ بابا النّصارى بهذه العناية الربّانية التي تكلأ خيرالدّين بربروس.

2. إسلام بول هي القسطنطينية عاصمة البيزنطيين وقد فتحها محمد الفاتح سنة 1453 م وسميت آنذاك إسلام بول أي تخت الإسلام أو مدينة السلام، وقد سبق للمسلمين أن حاصروا هذه المدينة إحدى عشرة مرّة قبل هذه المرّة الأخيرة منها سبع في القرنين الأولين للإسلام، فحاصرها معاوية بن أبي سفيان في خلافة الإمام عليّ رضي الله عنه سنة 34 هـ / 654 م. وحاصرها يزيد بن معاوية سنة 47 هـ / 667 م في خلافة الإمام علي أيضا، وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة 52 هـ / 715 م، وحاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي، وحوصرت أيضا في خلافة هشام سنة 121 هـ / 739 م، وفي المرّة السابعة حاصرها أحد قوّاد الخليفة هارون الرّشيد سنة 182 هـ / 768 م. أنظر كتاب تاريخ الدولة العلية، ص: 61 .

3. في المصادر الأجنبية يكتب Courd-Ogli أي كرد علي .وجاء في كتاب: تاريخ الدّولة العليّة: «... فاستولى خيرالدّين على ثغر شرشال بإقليم الجزائر، ثمّ عاد إلى تونس ومنها أرسل إلى السلطان سليم الذي كان إذّاك بمصر رسولا يدعى «كرداوغلي». ص: 95. فهكذا كتبه محمد فريد المحامي ونعتقد أنّه الأصوب لكون هذا الباحث هو مؤرخ الدّولة العليّة العثمانية بامتياز.

إلى تونس، وكان غالب وسق[1] هذه الأجفان المأخُوذة برّا[2] ؛ فبينما هم في حال رجوعهم إذ ظهر لهم إثنا عشر جفنا للعدوّ من الكُفّار الجنْويين مرصوفة بالصُّوف والعسل وغير ذلك، فاستولوا عليها أيضا فصار جُملةُ الأجفان التي استولوا عليها أربعين جفنا، فأسلم جملة الأجفان إلى قرط علي رايس ليذهب بها إلى تونس وسار هو إلى جيجل برسم لقاء أخيه.

علماء الجزائر يكاتبون[3] عرّوج :

رجعنا إلى خبر عرّوج، وكان في مدّة إقامته في جيجل كتب إليه أهل الجزائر[4] كتابا يرغّبونه في القُدوم عليهم وجِهاد عدُوّهم المجاور لهم في الحِصن الكائن بالجزيزة[5] ؛ وكان قد أضرَّ بهم غاية الضرر وضيّق عليهم غاية التضييق.

1. وسق الأجفان أي حمولتها.
2. بر بالضمة فوق الباء أي قمح أو حبوب.
3. يقول شوفالييه: «... وأوفد سكان مدينة الجزائر نحوهم عدّة شخصيات بارزة لإقناعهم وترجيهم بالقدوم لتخليصم من مضايقة وظلم المسيحيين وتهديم هذه القلعة، وقبلت عائلة بربروس هذا الطلب ورأت في ذلك فرصة للاستيلاء على مدينة الجزائر الهامة والغنية جدا والمأهولة بالسكان، وأنها مريحة ومناسبة لعمليات القرصنة » الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 27، مع تحفّظي عل هذه الترجمة التي قام بها جمال حمادنة .
4. جاء في كتاب: Histoire de Barberousse هذا التعليق من طرف المؤلفين:
«Une ville des pirates insolens, une grande défaite qui avait humilié jadis un empereur. Vol; 1, p:11. La ville d'Alger s'appelait toujours la Victorieuse, et ses cannale restaient fermées. Vol: 1, p:11. Les veritables annueles de l'Algerie ne commencent qu'a cette époque ou deux fils de renégat, sortie d'un ile de la Grèce, viennent constituer sur les cotes de la Barbarie une sorte de republique réligieuse, pareille à celle des Chevaliers de Rhodes. Cet événement a lieux vers 1516, et l'histoire des fréres Barberousse renfer-mes, pour ainsi dire, celle de l'etablissement de la regence, qu'ils soumirent à Salim, et plus tard à Solimam. Vol; 1, p: V.
5. هذا الحصن المشار إليه هو حصن الصخرة المعبّر عنه بالغة الإسبانية El Penon .والذي كثيرا ما يسمّيه صاحب المخطوط «حصن الجون، والجون هي الصخرة «وتقع هذه الجزيرة على بعد 300 م عن مدينة الجزائر وكان قبل مجيء الإسبان شيّد في ذلك الموضع الموركسيون برجا صغيرا يستعمل كفنار أو برج مراقبة للبحرية ثم حوله الإسبان إلى قلعة حصينة عام 1510 من قبل القائد بيدرو نافارو وصار بمثابة دركي يعيق عملية القرصنة والتجارة مع أعداء إسبانيا ولكن هذا يعتبر قليلا مقارنة بما ضاع من حريات حيث ستدوم هذه الوضعية 18 سنة وتعاقب على هذا الحصن حاكم ساحة مارتان دي فارقاس في عهد نيكولاس الخامس. أنظر شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 24، 25، 26، و 46، 47، 48 .

فلمّا وصل كتابهم إليه، وعلِمَ ما هم عليه من العدوّ الكافِر أدركته حميّة الإسلام ودخلته نخوة الجهادِ واستخر الله تعالى في جهادها، فأوصَى تلك النّاحية من أهل جيجل أنّه إذا قدِم أخُوه خيرالدّين يُهيّئ له مدَدًا من الغُزاة يستعين بهم على جهاد أهل ذلك الحِصن ؛ فبعد ذلك بمدّة وصل أخوه خيرالدّين إلى جيجل فلقيَة أهل تلك النّاحية بالتّرحيب والتّسهيل فعرفوا له قدره الملوكي، وبلّغوه وصيّة أخيه المتضمّنة لإرسال المدد، فهشَّ لذلك وأنعم به، وجهّز له مائتين وثمانية من الغُزاة بجميع ما يحتاجون إليه، ورجع خيرالدّين إلى مدينة تونس، فوصل هذا المدَدُ إلى مدينة الجزائر فاهتزّ لقدومهم عرّوج وأكرم نزلهم ووسَّع لهم في الجِراية.

وكان خيرالدّين لمّا وصل إلى تونس وجد قُرط علي[1] الذي أودعه الأجفان وقد أفرغ الوسَق من السُّفن ووضعه في ناحية، فأمر خيرالدّين بتقسيمه بين الغُزاة، وفي هذه المُدّة قدِم عليه أخُوه إِسحاق[2] من أقاليم الرّوم، وكان أكبرهم كما تقدّم ؛ وكان سبب قُدومه أنّه أراد أن يذهب بأخيه خيرالدّين إلى بلاد الرّوم ليستقِرّ بها، فلقِيه أخوه وأكرم نزله واهتزّ للقائه وفرح فرحا شديدا ولم يسمح له بالرّجوع إلى إقليم الرُّوم فأقام عنده.

وكان خيرالدّين قد كثرت غزواته على النّصارى وثقُلت عليهم وطأته واشتدّت فيهم نِكايته فاتّفق رأيهم على غزوه وغزوِ أخيه عرّوج في ثلاثمائة وستّين جفنا، فدخَلُوا إلى بعض المراسي بقُرب تونس فوجدوا فيها أربعة أجفان للمسلمين لم يكن فيها أحد فاستولوا عليهم، ثمّ إنّهم نزلوا إلى البرّ وكان هنالك حِصن للمسلمين فشرعوا في القتال معهم فضعُفَ أهل الحِصنِ عن مقاومتهم ولجأوا إلى اللهِ عزّ وجلّ بخالص التضرّع ؛

1. أو كرداوغلي.
2. الأخ الأكبر الذي يأتي بعده عرّوج ثمّ خيرالدّين ثمّ إلياس.

وكان ذلك الحصن منيعا فعجز الكفّار عن أخذه ورجعوا إلى أجفانهم بالخيبة وقُطع المسلمون عنهم سِتّة من أجفانهم فاستولوا عليه ؛ ثمّ إنّ الكُفّار قصدوا في سيرهم حلق الواد[1] وكانت به أجفان خيرالدّين. فلمّا نظر خيرالدّين، وهم قاصدون نحوه، تهيّأ لهم بآلاته الحربية من المدافع والمكاحل والنشّاب كما هي عادة حربه، فحين رأى الكُفّار ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم بقتاله في البحر فأرادوا النّزول إلى البرّ فمنعهم عن ذلك من كلّ ناحية أرادوا منها النّزول، فلمّا حال بينهم وبين ما أرادوا من المكر أخذوا في الذّهاب لطاغيتهم[2] وكفى الله المؤمنين القتال.

وكان قرط علي رايس ومُصلح الدّين رايس لمّا سمِعُوا بأسطول النّصارى متوجها إلى خيرالدّين توجّها إلى إقليم الرّوم وسافرا مع السلطان سليم إلى مصر برسم فتحها وأخذها من يد السلطان الغوري[3] والقضية معروفة، وحين أقلع الكُفّار ذاهبين عن خيرالدّين أحضر أربعة أجفان حربية بمجاديفها وشحنها بأبطال الغُزاة وأودَعها خمسة عشر مدفعًا وقدّم إسحاق أخاه عليها وأوصى أهل الأجفان بطاعته وأن لايخرجوا عن أمره وتوجّهوا إلى الجزائر مستقرُّ أخيه عرّوج، فوصلوا إليها ولقِيَ إسحاق أخاه

1. - المعروف باسم La Goulette ويقع في المدخل البحري لمدينة تونس من جهة الشمال الشرقي .

2. - المقصود بالطّاغية هوملك إسبانيا شارلكان الخامس (1519 – 1556) Carlos I de Espana Gante, 1550- Yuste,1558) Fue emperador del sacro Imperio Romano germànico con el nombre de Carlos v (1519 – 1556) y rey de Espana como Carlos I (1516 – 1556), el primero que unio en su persona a las coronas de Castilla y Aragon'. Heredo' los Paises Bajos y mantuvo Guerras con Francia, a la vez que con los movimientos de Castilla. Bib.Vera Zu'niga, Juan Antono de, Carlos1, Madrid, 1949. ولكن في سياق هذا النص هو قائد الحملة الإسبانية والذي يحتمل أن يكون المرتزق الجنوي القرصان أندري دوريا .

3. هو الملك الأشرف أبو النّصر سيف الدّين قانصوه الغوري الظاهري الأشرفي أصله من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم .كان قد تحالف مع الشاه إسماعيل لمحاربة الدّولة العليّة ... فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهباء في واد يقال له مرج دابق وهزم الغوري وقتل في 24 أغسطس سنة 1516. أنظر كتاب تاريخ الدّولة العليّة، ص: 75 .

عرّوج فسأله عن أحوال أخيه فأخبره بما يجب من ذلك واستبشر عرّوج بجماعة الغُزاة القادمين معه وأكرم نزلهم ووسّع عليهم في الجراية.

وأمّا خيرالدّين فإنّه أكمل فصل الشّتاء بمدينة تونس ولازم عُلماءها وصُلحاءها للأخذ عنهم، ولمّا دخل فصل الرّبيع عزم على السّفر للغزو والتوجّه إلى الجهاد كما هي عادته، ولمّا رجعت عمارة النّصارى إلى بلادهم بالخيْبة والحسرة، وعَلِموا أنّهم لا طاقة لهم بخيرالدّين، وأنّ جماعة غزاته لا يهربون من الموت، وأنّهم يبذلون أنفسهم في جهاد عدوّهم، ويحرصون على الموت حرصَ الكُفّار على الحياة، أخذوا في المشُورة فاتّفق رأيهم على غزو مدينة الجزائر[1] وفتحها والاستيلاء عليها، فأخذوا في الأهبة في ذلك قائلين: إنّ التُّرك إذا توطّنُوا مدينة الجزائر ومهّد مُلكهم

1. الجزائر أصل تسميتها: يقال إنّه أثناء هدم الدوّر البالية في الجزائر والتي كانت بحارة العمالة القديمة المسماة أيضا بحارة باب البحر وجدت قطعة صغيرة من العملة مصنوعة من النّحاس ومكتوب عليها من جهة واحدة ومن اليمين إلى اليسار كلمة باللغة الفينيقية مركّبة من خمسة أحرف وهي كلمة «إيكسيم» Icosim (الألف – الياء – الكاف – السين – الميم) حسب ما أثبته أستاذ اللغات السامية بكلية الآداب بجامعة الجزائر في مطلع القرن العشرين ؛ وإيكوسيم في الحقيقة هي مركبة من كلمتين تركيبا مزجيا وهما (إي) وهي اختزال لكلمة Ile أو Isla كما في اللغة الإسبانية والتي تعني الجزيرة، أمّا «كوسيم» Cosim فتعني طائر البحر الذي يسمّى «النّورس» Mouette فيكون المعنى الإجمالي «جزيرة النّورس» أو «جزيرة النّوارس» (L'ile aux mouettes) ولا شك أنّ هذا المعنى أنسب وأليق ومعروف عند البحرية أنّ هذا النّوع من الطيور (والذي تسميه العامة عندنا في الجزائر دجاج الماء) البحرية يوجد في الأماكن التي يجد فيها طعامه. ويلاحظ أنّ فعلماء الآثار يحكمون بأنّ أوّل من أعطى هذا الاسم إلى عاصمة الجزائر هم القرطاجنيون. إذ يسمّونها المؤرخين الأروبيين في العصر القديم والعصور المتأخّرة لا زالوا يوهمون في اسمها ويخلطون «إيكوسيوم»(Icosium) عوض إيكوسيم وهذا اللبس ناشئ عن أسطورة يونانية ابتدعها الكاتب الرّوماني صولين Solon الذي عاش في أواخر القرن الثالث المسيحي وقالوا إنّ الهرقل Hercule مرّ بالجزائر حين كان ذاهبا إلى جنوب إسبانيا فملّ رفاقه طول الطريق وتعبوا منها ولكن هرقل مضى في حال سبيله ولمّا بلغ الحدّ الذي تلتقي فيه أرض إفريقية بأرض أوروبا فإنّه فصل بينهما ونشأ بوغاز أو مضيق أو زقاق جبل طارق حتّى يحمي الأوروبيين من البرابرة سكان إفريقيا وخلّد ذلك الأثر برفع أعمدة توجد في مقابل مدينة قادس Cadix الإسبانية تعرف إلى اليوم باسم Les Colonnes d'Hercule أو كما يقال بالإسبانية «Las Columnas de Hercules» أنظر مجلّة هنا الجزائر العدد: 14، سنة 1953، ص: 11. ثمّ تسمّت جزائر بني مزغنّة حين تأسّست مدينة الجزائر في النصف الثاني من القرن العاشر من طرف الأمير زيري بن بلكين على أنقاض المدينة الرومانية القديمة الذي سبق ذكر اسمها .

بها، و فتحوا عَمالتها كثُرت أجفانهم وعساكرهم فقطعوا عنّا البحر وامتدّ طمعهم إلى بلادنا، وكان من جُملة ما اعتمدوا به على فتحها حصنهم المجاور للمدينة من ناحية البحر، فإنّه كثيرا ما كانت تحصل منه الإذاية لأهل المدينة، بحيث إنّ النّصارى كانوا يرمون على أهل المدينة بآلاتهم الحربية من المدافع والمكاحل.

فكان هذا الحصن شجًى معترضا في صدور أهل الجزائر[1] إلى أن خلّصهم الله منه على يد زعيم المجاهدين خيرالدّين، كما سيأتي إنشاء الله تعالى في محلّه.

ومن جملة ما دبّروه إنّهم إذا أخذوها يُشغلون السلطان الأعظم عنهم بضريبة من المال يؤدونها إليه كلّ سنة، فأجمعوا على غزوها وتوجّهوا إليها بثلاثمائة وعشرين جفنا ؛ وكان عدد عسكرهم من المقاتلين خمسة عشر ألفا فوصلوا إليها وأرسوا أجفانهم بقُربها ونزلوا في البرّ بقصد حراستها والتضييق عليها، فلزم عرّوج رايس المدينة هو وجماعته الغُزاة وكافّة أهل المدينة، ونشر أعلامه وتهيّأ لقتالهم مستعينا بالله، فقرُب الكُفّار من المدينة وتراصوا كما هي عادتهم في الحرب، ونصبُوا ألويتهم المعكوسة وشرعوا في قتال المدينة وتكالبوا على أخذها.

فهال عرّوج أمرهم فوقعت المشورة بينه وبين عسكره فاتّفق رأي عرّوج على الخروج إليهم والهجوم على عسكرهم ورأى أنّ ذلك ممّا يكسر شكوتهم

1. ... يظل الجنود الإسبان قابعين داخل هذا الحصن لا يبرحونه والمدينة هي أقرب ما يمكن منهم فنزول الجنود إلى المدينة وابتزازهم لبعض الأشياء كان يشكل إهانة لكل السكان مما دفعهم إلى إرسال رسول إلى إسبانيا في ربيع 1515 لاقتراح هدنة مقابل دفع بعض الضرائب لملك إسبانيا ... وعاشت مدينة الجزائر اضطرابات كان سببها اختلاف الأراء حول قضية دفع الضرائب ووجود الحامية الإسبانية قرب المدينة، وشجّع سليم تومي الثعالبي على احترام المعاهدة بحيث أنّ هذه الحامية كانت توفّر لهم الأمن والحماية ....أنظر تفاصيل أكثر في كتاب شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص، 25 .

ويُذهِبُ نخوتهم، فساعد جماعته على ذلك واتّفقُوا على الخروج قائلين :إنّ الخروج إليهم واجب علينا لأنّنا كنّا السبب في مجيئهم لهذه المدينة وأهلها ضعفاء ولا طاقة لهم بدفاعهم. فانتهز عرّوج الفُرصة وخرج منفردًا بنفسه فتبعه كافّة أهل العسكر وفتحوا أبواب المدينة وكبّروا تكبيرة واحدة وهجموا على عسكر العدوّ فمنحهم الله أكتافهم يقتلون كيف يشاءون ويأسرون كيف يشاءون، وفرَّ الكُفّار عن المحلّ الذي كانوا فيه وتركوا ألويتهم منصوبه به فنكّسَها المسلمون وتبعوا آثارهم فاستأصلوهم قتلا حتّى صارت دماؤهم تجري كالأنهار. قالوا: ولم يبق منهم إلاّ الألف والباقون قُتِلوا عن آخرهم. ثمّ إنّ هذه البقيَّة ركبوا في أجفانهم وذهبوا إلى بلادهم.

فلمّا سمِع الطاّغية بمأتم جيشه الذي وجّهه إلى الجزائر لَطمَ وجهَهَ وشقّ ثيابه ونادى بالويل والثُبور.

وأمّا المسلمون بالجزائر، لمّا فرّج الله عليهم من عدوّهم، حصل لهم من الفرح والسرور مالا مزيد عليه، وكتب عرّوج إلى أخيه خيرالدّين كتابًا يُعلمه فيه بشرح هذه القضية، وكيف هزم الله النّصارى وردّهم على أعقابهم خاسئين، وأمره في ذلك الكتاب أن يقدِم إلى بلاد جيجل فإذا وصل إليها أعلمه بذلك.

فقدِم خيرالدّين إلى بلاد جيجل وأرسل إلى أخيه فأعلمه بقدومه ؛ وكان قدم إليها في عشرة أجفان، فأرسل إليه عرّوج كتابا مضمّنه: «أنّ في غيّة[1] ناحية جيجل شيخاً هو مُقدّم على طائفة من البرابر[2]، هو عين

1. هذه التسمية غير مفهومة في المخطوطة صفحة 26 فقد جاءت على هذا الشكل «غيّة» ولعلّها تسمية مكان قرب جيجل أو ربّما هي «زغاية» التي تقع قرب جيجل.

2. لم نتمكن من معرفة اسم هذا البربري المتعاون مع الحامية الإسبانية أو الجنوية في تلك النّواحي ومن المستبعد أن يكون ابن القاضي أو قارة احسن أو حتّى سليم تومي، وربما يكون شيخ قبيلة بني عبّاس المدعو عبد العزيز والذي كان عدوّا لابن القاضي وبذل جهودا كبيرة من أجل خلق نزاع بين ابن القاضي والإخوة بربروس.

النّصارى على المسلمين وجاسوسٌ لهم، يمدُّ النّصارى الذين ببجاية كلّ سنة بسبعة آلاف دينار وألف صاع من البُرّ، وألف شاة وسبعمائة من البقر وأربعة عشر فرسا بسلاحِها. فضرب عليه خيرالدّين بجماعته من الغزاة حِصارا إلى أن تمكّن منه. فلمّا رأى الخبيثُ أنّه قد حصل في قبضته، وعلِم أنّه لا خلاص من يده صالحه على هذا العدد الذي كان يُعطيه للنّصارى وجعله لخيرالدّين فرضيَ منه بذلك وأعلم أخاه عرّوج بما قرّره على الخبيث الخائن، ثمّ ركب في أجفانه وقدِم إلى أخيه بالجزئر[1] وتفرّغ لتمهيد الملك بها وإرساء قواعده بأحوازها.

وكان سلطان تلمسان في ذلك العهد من بني زيّان[2] له ابن أخ أرادَ الوُثوب عليه ففطِن بذلك ففرّ منه إلى الطّاغية المستولي على بلاد الأندلس[3] لعهده فأكرم نزوله وأحسن إليه وظهر للّعين أن يُعينه على أخذ بعض البلاد الساحلية من عمالة بني عبد الواد[4] ويُقيمُه بها قاصدًا بذلك التّفريق بين المسلمين، وليتمكّن بذلك هو من البلاد بسبب ذلك، فأنشأ عمارة وشحنها بجماعته من المُقاتِلَة وقصدوا مدينة

1. وهكذا يدخل خيرالدّين إلى مدينة الجزائر لأوّل مرّة .

2. بنو زيّان ينسبون إلى أبي عبدالله محمد بن محمد بن ثابت بن أبي تاشفين عبد الرحمان أبي حمو موسى بن يوسف بن الأحمر بن تحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زيدان بن يندوكسن بن طاع الله علي بن يما بن برجي بن القاسم، ومن القاسم هذا تناسل جمهور بني عبد الواد ؛ وهم بنو طاع الليل وبنو دلول وبنومطهر وبنو غزان وبنو معطى وبنو حجى. أمّا بقية بني عبد الواد وهم: بنو ياتكتن وبنو وللو ومصحوبة وبنو تومرت وبنو رسطف فليسوا من ولد القاسم ... أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي. حققه وعلّق عليه محمود بوعياد. نشر المؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر، 1985، ص: 109 .

3. المستولي على بلاد الأندلس آنذاك هو الملك الكاثوليكي فرناندو دي أراقون ويقصد هنا بعد سقوط آخر ملك للعرب المسلمين بالأندلس وهو ما يعرف بمملكة غرناطة في شهر يناير عام 1492 .

4. بني عبدالواد هم بنو زيّان بدأت دولتهم عام 635 / 1237 واستمرّت إلى غاية سقوطها عام 943 / 1554. أنظر بغية الروّاد في تاريخ بني عبد الواد ليحيى بن خلدون.

تنّس[1] فاستولوا عليها وتمكّن منها ابن أخ سلطان تِلمسان تحت نظر الطّاغية ؛ وحين رجع النّصارى إلى بلادهم تركوا فيها أربعة أجفان وخمسمائة من المُقاتِلة فسمع بذلك خيرالدّين فأدركته الحميّة لدين الإسلام، فركب إليها في البحر في جملة أجفانه وحين أرسى بها فرّ النّصارى من أجفانهم وتحصّنوا بالمدينة، فشرع خيرالدّين في حصارها والتّضييق عليها، فأقام على ذلك يومَه إلى العصر، فقَدِمَ عليه شيوخ المدينة على لِسان (الشابة)[2] بها راغبا في صلحه ووعده أن يلقاهُ من الغد فركن إلى قولهم وكفّ عنهم القتال.

فلمّا كان اللّيل هرب القائم من المدينة ونجا تحت خفارته. فلمّا كان صباح تلك الليلة خرج أهل تلك المدينة إلى خيرالدّين وأعلموه بهروب القائم واعتذروا عن هروبه وقالوا له: يا مولانا ها هي المدينة لا يرُدُّك عنها أحدٌ، وأمّا القائم فإنه لابُدّ أن يقع في أيدينا ونُمكّنك منه، فقبِل خيرالدّين عذرهم ؛ وكان رجلا حليما، فدخل المدينة واحتوى على جميع ما فيها ؛ فكان عدد النّصارى الذي وجد بها أربعمائة، ووجد فيها مائة

1. مدينة اتنسّ أو تنّس تقع على شاطئ البحر المتوسط بين مدينتي شرشال ومستغانم غرب الجزائر العاصمة ؛ لعبت تنّس كغيرها من العواصم العلمية دورا عظيما في تاريخ الجزائر، وتقول بعض المصادر أنّ مدينة تنّس أسسها بعض التجّار الأندلسيين كانوا يتردّدون كثيرا على الشواطئ الجزائرية فبناها التجار المذكورون سنة اثنتين وستين ومائتين (262 هجرية) وكانت تنّس تابعة لبلاد مغراوة القبيلة البربرية العتيدة، وكانت مملكتها تمتد من عاصمة الجزائر إلى مدينة طنجة، وموطن هذه القبيلة الأصلي ما بين مدينة مليانة وقلعة بني راشد. محا آثار هذه الإمارة بلكين بن زيري مؤسس مدينة الجزائر ومليانة والمدية. اشتهر في مدينة تنّس كثير من العلماء لم تقتصر شهرتهم على الجزائر بل انتشرت في العالم الإسلامي مثل الشيخ ابراهيم بن يخلف التنسي والشيخ أبو إسحاق التنسي صاحب كتاب «الدر والعقيان في شرف ملوك بني زيّان». واختار كثير من الأندلسيين في عصر الطوائف اللجوء إلى تنّس والاستقرار بها بعد دخول المرابطين من مثل أمير المرية ابن معن بن صمادح التجيبي ....أنظر تفاصيل أكثر في مجلة «هنا الجزائر» عدد: 19 شهر ديسمبر 1953 صفحة: 2 – 4 .

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط، ص: 27 وتبدو كما رسمتها. ويقول شوفالييه .. «وجاء وفد عن سكان تلمسان يطلب المساعدة والحماية ضد السلطان أبي حمو الذي تحالف مع الإسبان ضدّ سلطانهم الشرعي أبو زيان .» ص: 36 .

وخمسين قنطارا من العِطر وثلاثمائة من مال برنجك[1]، وأربعة عشر ألف ذِراع شِقّة من الباز، وستمائة قنطار من الشّهد ومثلها من الشمع، فرجع بهذه الغنيمة العُظمى إلى الجزائر واقتسم هو وأخوه عَمَالَتها فكانت النّاحية الشرقية لخيرالدّين والغربية لأخيه[2]، واستوطن خيرالدّين مدينة دِلّس[3] من النّاحية الشرقية، وجعل معه عسكرا من جماعة غُزاته وقدّر لهم المراتب ليستعين بهم على فُتوح ما بقيَ من تلك النّواحي، وجعل في كلّ موضع من تلك العَمَالة نائبا من قِبلِه فكان نوّابه أربعة.

رجعنا إلى خبر تنّس[4] فإنّ القائم الذي كان بها لمّا سَمِعَ أن خيرالدّين أقلع عنها واستقرّ بمدينة دِلّس رجع إليها فقَبِلَهُ أهلُها ودخلوا تحت طاعته وجعل يغيرُ على عَمَالة عرّوج من النّاحية الغربية فأضرّ ذلك بعرّوج فاستقدم أخاه خيرالدّين من مدينة دلّس فوصل إليه إلى الجزائر فاستنابه بها[5] وجمع عسكرا برسم الخروج إلى النّاحية الغربيّة ليتفقّدَ أحوالها ويتمكّنَ من القائم بِتنّس، واستفتى علماء الجزائر في ذلك فأفتوهُ بإباحة دم هذا المُفسِد، وإباحة المُفسدين أمثاله[6]. فخرج بعسكره، وقد كان بلغه أن سلطان تلمسان[7] أضرّ بأهلها وعمّهم جوره وظَلَمَهُ فثنى عزمه

1. كلمة غير مفهومة المدلول.
2. المقصود عرّوج وهنا يتّضح أوّل تقسيم بادر به الأخوان لأمارة الجزائر التي ستصبح تحت حوزتهما.
3. مدينة دلّس تقع إلى الجانب الساحلي الشرقي من مدينة الجزائر ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم.
4. كان يسيطر عليها حميد العيد الذي شهد نكبة سليم التومي عندما خضعوا للإسبان بعين مملوءة بالحقد نجاه عرّوج ووجوده في مدينة الجزائر، وقام بتجهيز حملة ضده وكعادته فإنّ عرّوج لم ينتظر بل مشى لملاقاة خصمه حميد العيد وباغته على حين غرة في عقر داره. أنظر شوفالييه: الثلاثون سنة الولى، ص: 35 .
5. وهنا يتمّ أوّل دخول لخيرالدّين إلى مدينة الجزائر لأنّ فتحها قد تمّ على يد عرّوج.
6. بهذا الاستفتاء يبدأ أسلوب الأخوين في التّعاطي مع أحداث الجزائر في المستقبل حيث درجوا على هذا الأسلوب من المشورة والإفتاء في القضايا التي تهمّ البلاد وقد كان هذا هو أسلوب خيرالدّين في الحكم طيلة ولايته للجزائر. ويقول شوفالييه: التقى عروج مع جيش (ملك تنس) في سهل الشلف وانتصر عروج في هذه المعركة واحتل تنس في جوان 1517 .
7. أبو زيان.

إليه ؛ وكان لسلطان تلمسان أخوان قد حبسَهُما، فوصل عرّوج إلى أحواز تلمسان فجعل أهلها ينثالون عليه من كلّ ناحية ويتلقونه بالطّاعة والخدمة، فلمّا رآه سلطانه ذلك عَلِمَ أنّه لا طاقة له بحربه ففرّ من تلمسان بجميع ما احتوت عليه يَده من الذّخائر والأموال.

فدخل عرّوج تلمسان وأقام بها سلطانا[1] وأطلق أخويّ السلطان المعتقلين، توجّه السلطان المخلوع إلى مدينة فاس مُستجيرا بسلطانها من بني مرين[2]، ومُستعينا به على ردّ بلاده كما كانت عادة أسلافه، وكانت قلعة بني راشد[3] من أغنى بلاد الله زرعًا وضرعًا تذهبُ المِرَة إلى كلّ ناحية، وكانت وهران قد استولى عليها النّصارى[4] وكانت تأتيها المِرَةُ[5] من قلعة بني راشد فيرتزق بذلك أهلها ويستعينون بذلك على قتالِ المسلمين.

1. ... وبعث عروجا لتلمسان خليفة عنه إلى أن كثر فساده فقام أهل تلمسان وفرّ لبني يزناسن فمات هناك كما مرّ. أنظر كتاب: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزيّاني، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية النشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1978، ص: 184.
2. كان حكمهم للمغرب الأقصى وأحيانا الأوسط من 647 – 814 / 1350 – 1411 .
3. قلعة بني راشد هي قلعة من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تعطي الميرة أي الطعام لكلّ ناحية وكانت وهران إذّاك قد استولى عليها الإسبان فكانت تأتيها الميرة من قلعة بني راشد ؛ وقلعة بني راشد بلدة صغيرة في مكان مرتفع تبعد بنحو 25 كيلومترا من مستغانم، وأن قلعة بني راشد هي قلعة هوارة في سابق الزمان ومما جاء في رسالة مخطوطة أقوال عن قلعة بني راشد تقول :«إعلم أنّ هذه القلعة تعرف بقلعة بني راشد وذلك أنّ أولاد راشد بن محمد من بطون مغراوة. وراشد هذا أخ بارين أعطاه الله اثنتي عشر ولدا ثمّ كثر نسلهم وامتدّت فروعهم إلى بني ورين. وراشد هو جبل عظيم كما جا ء في كتاب «مجموع الحسب والنّسب والفضائل والتّاريخ والأدب» : راشد جبل عظيم أحد سلسلتي جبل درن أي الأطلس ببلاد الجزائر ممّا يلي الصحراء وفي ضمنه جبال تعرف بأسماء لها كجبل وانشريس وجبل السرسو وجبل العمور، ومن مدنه مليانة وتيهرت والقلعة ومستغانم ومازونة ومعسكر وغيرها، ومن سهوله: يسّر وعادة مدينة معسكر تدعى بالرّاشدية .. أنظر كتاب «نفح الأزهار عمّا في مدينة قسنطينة من الأخبار» للأستاذ سليمان الصيد، نشر المطبعة الجزائرية للمجلاّت والجرائد، الجزائر 1994، ص: 40-41 .
4. يقصد الإسبان الذين استولوا على المرسى الكبير عام 1505 وعلى مدينة وهران عام 1509 زمن فرناندو دي أراغون الذي توفي عام 1516 .
5. المِرَة المؤونة الغذائية وغيرها من المأكولات.

فلمّا تمكّن عرّوج من مملكة تلمسان[1] منع أهل القلعة من إمداد النّصارى بما كانوا يمدّونهم به فضاقت أحوال النّصارى بسبب ذلك واشتدّ عليهم الأمر فانتهز الفُرصة، بسبب ذلك، سلطان تلمسان المستوطن بمدينة فاس وأرسل إلى النّصارى قائلا لهم: «أنظروا إلى ما حلّ بكم حين انقطعت دولتنا عنكم وتمكّنت منها الأتراك، كيف قطعوا عنكم المِرَة من القلعة وغيرها، فلو كنتم أعنتُموني على قتال عرّوج وأمدَدْتُموني بالمال والرّجال ما صار أمركم إلى هذا ؟ فَانظروا الآن في هذا الأمر وتداركوا في هذه الحال قبل أن يتمادى طمع هذا الرّجل إلى أخذ المدينة من أيديكم وإزالتكم عنها بالكلّية؟» . فلمّا سمع النّصارى بذلك أجابوه قائلين: «أنتم لم تستعينوا بِنا ولم تطلبوا مِنّا مدَدًا، ولو كُنت فعلت ذلك ( )[2] لنا أنفسنا في نصرك وتوجيهنا إليك ما تريده من المال والرّجال، والآن قد أنعمنا لك بما تريده فتوجّه إلى عدوّك ونحن معك وكلّ ما تحتاجوه في هذه الحركة، فنحن متكلفون به»، فتوجّه إليهم قائلا: «أمدّوني بحملة وافرة من المال لأنفِقَه على الجيوش واستخلص به المدينة من يد الأتراك، فحين ترجع العَمَالة إلى حكمي ترجعون إلى ما كنتم عليه من إمدادكم بالزّرع والأنعام وسائر ما تحتاجون إليه وسبعة آلاف دينار ذهبا» . وأخذوا منه رُهُنا ستّين من أبناء أشياخ العرب. فاجتمع له من الخيل نحو الخمسة عشر ألفا وخرج النّصارى مؤيّدين له بخمسة عشر مائة. فلمّا سمع خيرالدّين بذلك وجّه جيشا إلى قلعة بني راشد وأمَّر عليهم أخاه إسحاق[3]، فوصلوا إلى القلعة، فوجد بها جيشا من نصارى وهران يحاولون أخذها، فوقع بينهم

1. يظهر من خلال المعلومات الواردة في هذا المخطوط أنّ فتح مدينة الجزائر عام 1516 ومدينة تلمسان عام 1517 يعود إلى عرّوج.

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط، المخطوط، ص: 28 .

3. هنا يظهر تدخل الأخ الثالث لخير الدّين وهو إسحاق عام 1518 السنة التي سيقتل فيها الأخوان: عرّوج وإسحاق.

قتال وكان النّصر لطائفة الإسلام فقتلوا منهم سبعمائة وأسروا ثلاثمائة ودخل المسلمون القلعة ؛ فلمّا تحصّن المسلمون بالقلعة وَرَد عليهم سلطان تلمسان بجيشه من العرب وأشياعه من النّصارى وأحاطوا بهم من سائر جهاتها وشرعوا في قتالهم فخرج إليهم المسلمون يوما فاستولوا على مائة وستين من الكفّار ودخلوا بهم القلعة وبقوا أيّاما وعزموا مرّة أخرى على الخروج إلى القتال، فخرج بعض الجواسيس المسلمين إلى سلطان تلمسان وأعلمه بذلك، فنصب النّصارى تلقاءهم المدافع، فحين خرج المسلمون رموا عليهم بجملة تلك المدافع فاستشهد جماعة كثيرة منهم ورجع بقية الجيش إلى القلعة فبقوا محاصرين في القلعة نحو ستّة أشهر، فجعل النّصارى نفقا في الأرض وملؤوه بالبارود فحين أخذت النّار فيهم انفجرت قطعة من القلعة، فأراد المحاصرون الهجوم من تلك الفرجة فمنعهم طائفة من الغزاة، فقال المحاصِرون لهم: لابدّ من أخذ هذه القلعة ولو مكثنا عليها ستّ سنين، فركن المحاصَرون إلى المواعدة ووقعت بين الفريقين شرائط منها: أن يردّ المحصورون إليهم جماعة النّصارى الذين استولوا عليهم، وأن يكون بين المحاصرين ستة عشر رجلا من أعيان القلعة المحصورين رهنا، واشترط المحصورون عليهم أيضا أن يخرجوا بجملة أسبابهم وما احتوت عليه من المتاع، فوقع الاتفاق بينهم على ذلك ؛ فأخذ المحصورون في الخروج فنقض المحاصرون شروطهم وجعلوا يأخذون ما يخرج به أهل القلعة المحصورون من المتاع واستولوا على أمور كثيرة من غير ذلك، فدخلتهم الحميّة ونادوا بإشعال الحرب فوقع بينهم قتال عظيم فمات في هذا القتال إسحاق، رحمة الله عليه[1]، فقام مقامه رجل من خواصّه

1. وأمر ملك إسبانيا سنة 925 هجرية بغزو قلعة بني راشد لمّا طلب منه ذلك سلطان تلمسان أبو قلموس فغزاها في جيش عرمرم ما بين جيشه وجيش أبي قلموس، فنزل عليها بالبراق ونصب مدافعه ورمى الكور على القلعة فخرج النّاس منها ومعهم أميرها إسحاق شقيق خير الدّين أول باشا بالجزائر وسألوا الأمان فأمنوا. = = =

من البحر باتّفاق من الجميع، فبينما خيرالدّين في انتظار سلطان تلمسان بأحواز الجزائر ولم يبعد عنها إذ ظهرت له سُفُنٌ[1] النّصارى تسير سير السحاب قاصدة إلى الجزائر[2]، وقد كانوا رأوهم وقت الزوال، فلمّا دخل وقت العصر إلاّ وقد أرسوا على ساحل المدينة فبعثوا إلى خيرالدّين كتابا يهدّدونه فيه مُضمّنه: «أنظر ما حلَّ بأخويك إسحاق وعرّوج، وما آل أمرهما إليه من الإهانة والقتل فإن لم تنج بنفسك وإلاَّ حلَّ بك ما حلَّ بهما فقد دانت لنا الدّولة عليكم، وقد ذهب نحسنا وأقبل سعدنا والحرب كما علمت سِجال[3] ؟.

فأجابهم خيرالدّين: «إن جماعتنا الذين ماتوا في حربكم أحياء يُرزقون عند الله، فقد رضيَ الله عنهم ورضوا عنه،فهم يتنعّمون في قصور وأنهار ويتمتّعون بحورعين ولهم الدّرجات العلى لكونهم باعوا أنفسهم إلى الله ونحن راغِبون في جهادِكم فإمّا الظّفر بكم وإمّا ( ) [4] إخواننا من كرامة الله سبحانه ورضوانه فأجهدوا علينا جُهدكم، فماذا لنا معشر الغُزاة في قيد الحياة فإنّكم لا تظفرون من الجزائر بحجر من أحجارها، وليس بيننا وبينكمُ إلاّ السّيف حتّى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين» .

فلمّا وصل جواب خيرالدّين إليهم دخلتهم الحميّة وأمرهم المُقدّم عليهم من قِبَل الطّاغية بالنّزول إلى السّاحل، فنزلوا مساء ذلك اليوم الذي قدِموا فيه، فسمع خيرالدّين بنزولهم فعيّنَ ثلاثمائة من الجُند

---

1. يكتب صاحب المخطوط «سفون» كما يكتب الأن.لوس، مما يدل على أنّه مغربي أو جزائري، فهم الذين يشبعون النّطق على هذا الشكل.
2. أرادت الجيوش الإسبانية بقيادة ماركيز دي كوماريز متابعة سيرها حتى مدينة الجزائر لإتمام نصرهم. أنظر شوفالييه، ص: 36 .
3. هذا التهديد يمكن أن يكون بعد 1518 .
4. كلمة غير مفهومة .وتظهر من خلال السياق أنّها الاستشهاد المخطوط، ص:30

برسم حراسة المدينة، ومثلهم أهلها، وجعل خمسة آلاف من الجُند ( )[1] واستعدّ للقاء أتمّ الاستعداد، وانشغل الكافرُ يومين عن القتال بسبب نزولهم إلى الساحل، ثم انْقسموا فرقتين وقصدت كلّ فرقة منهم ناحية من المدينة وصفّوا صفوفهم تجاه المدينة ووقعت المحاربة بينهم برًّا وبحرًا، فخرج إليهم خيرالدّين من المدينة في جماعة المجاهدين وشرع في قتالهم مستعينا باللّه عليهم، وجعل يُحرّضُ المسلمين على القتال تارة بالمَيْمنة وتارة بالميسرة وتارة في القلب، فاشتدّ المسلمون عند ذلك في القتال وأخلصوا نيّتهم للّه عزّ وجلّ وهجموا على الكُفّار من كلّ ناحية، ومن المسلمين ما لم يكن لهم حساب، ودام القتال بين الفريقين ثمّ أنزل اللّه نصره على أوليائه المؤمنين وألقى الرُّعبَ في قُلوب أعدائه الكافرين فانهزموا إلى سُفنهم وتبعهم المسلمون في إثرهم فقتلوا الكثير منهم ؛ وكان عِدّة مُقاتليهم عشرين ألفا فلم يبق منهم إلاّ ستّة آلاف. فلمّا ألجأهم المسلمون إلى ناحية البحر جعلت أجفانهم ترمي بالمدافع عليهم فاضطرّ المسلمون إلى الانحياز منهم بعد ما خلصوا إلى أجفانهم ؛ هذا والمسلمون لم يُقلعوا عن قتالهم بقدر الطّاقة إلى أن أظلم عليهم اللّيل فرجعوا إلى المدينة مستبشرين بهذا الفتح الذي هيّأ اللّه لهم.

وفي أثناء هذه الحال هاج البحر هياجا عظيما فانقطع في الساحل جماعة من الكُفّار لم يقدروا على الصُّعود إلى أجفانهم بسبب الأمواج المتراكمة، ولم يتمكّن المسلمون من قتالهم بسبب المدافع التي كان أهل الأجفان يرمون بها عليهم، فخندق الكُفّار الذين في البرّ على أنفسهم فلم يخف على المسلمين مكانهم فرأوهم صباح تلك الليلة فخرجوا إليهم بالآلات الحربية من المدافع وغيرها فقاتلوهم ذلك اليوم وليلته واليوم الذي بعده وليلته.

1. كلمة غير مفهومة. المخطوط، ص: 31.

فلمّا كان صباح اليوم الثالث سكن البحر وهدأت أمواجه قربت الأجفان من البرّ وجعلت ترمي بمدافعها على المسلمين، فاضطرَّ المسلمون إلى الانحياز عنهم فرجع بقيّة جماعتهم ومَا بقيَ لهم من الأسباب في البحر. وكان من قدر اللّه سبحانه وتعالى أنّهم لمّا أقلعوا عن الجزائر قاصدين إلى بلادهم هاج عليهم البحر مرّة أخرى وثار لهم الموج من كلّ مكان فألقى البحر سُفنهم إلى البرّ فانعطبت عامّتها إلاّ القليل، وكان ذلك من تمام عناية اللّه سبحانه وتعالى لأهل الجزائر، فقتل المسلمون الكُفّار الذين رمى بهم البحر إلى البرِّ قتلا، وأسروا أيضا مُقدّم العسكر، ومقدّم الأجفان الذي يُقال له بلسان الرّوم الجلنار[1] ؛ وكان اللّعين في أثناء انهزامه أمام المسلمين يُمنّي نفسه بالعودة مرّة أخرى إلى الجزائر والاستيلاء عليها، فقطع اللّه رَجَاءَهُ بالأسر.

فرجع خيرالدّين وطائفته بالأسارى إلى الجزائر وكان يومًا مشهودا وموسما في مواسم الدّهر معدودًا. وحبس الأسارى في أماكنَ أُعدّت لهم تحت الأرض[2] ووكّل عليهم وُكلاء يحرسونهم. وأمَّا الأميرال الأعظم فأنزله معه في قصر الإمارة[3]، وكان اللّعين جريحًا، فأمر بمراعاته في المأكل والمشرب، والقيام عليه أتمّ قِيام ؛ فكان يُطعمه أحسن الطعام ويُغذّيه بالأغذية اللّطيفة إلى أن استقلّ من مرضه وعُفيَ من جراحاتِهِ[4] ؛

1. ورد دائما في المخطوط «الجلنار» والمقصود الأميرال.

2. تذكر بعض المصادر أن هذه الزنزانات تسمّى «المطامير» حتّى أنّ هذه الكلمة دخلت إلى اللغة الأسبانية فتسميها «Mazmorras» أي المطامير، وقد ذكر ذلك مرارا الكاتب الإسباني الشهير Miguel de Cervantes أثناء حديثه عن سنوات الأسر التي قضاء بالجزائر والتي دامت خمس سنوات.

3. هذه إحدى معاملات خير الدّين لأسراه من ذوي المكانة الرفيعة. بحيث ينزل النّاس منازلهم حتّى ولو كانوا في الأسر

4. يقول شوفالييه: «... وفيما يخص الأسرى الذين يمكن مبادلتهم بفدية كبيرة فقد منحوا الاستراحة والأمن حتى يحين وقت شرائهم ثانية، ص: 56

وجعل له خيرالدّين ذلك لأنّ اللّعين[1] كان عظيما من عظماء النّصارى[2]، فظهر لخيرالدّين أن يحصل منه مالا برسم إعانته على الغزو، أو يفدي[3] به جماعة من المسلمين الذين ظفِرت بهم أيدي العدُوّ ؛ ثمَّ إنّه ألحقه بجماعة الأسارى المتّفقين بحضرته.

ولمّا وصل خبر هذه الواقعة إلى سلطان تلمسان، وسمع بما منح الله خيرالدّين وعسكره من الظُهور على عدوّ الدّين الكافر الذي استعان به المغرور ورجع إلى بلاده خائبا ( )[4] ثمّ إنّ الكفّار رجعوا إلى بلادهم لمْ ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القِتال، فاشتدّ حُزنهم وحنقهم وخوفهم من خيرالدّين ولقّبوه بلسانهم الرّومي«باربارشه»[5] ؛ بحيث إنّهم صاروا يُخوِّفون به صِبيانهم[6].

ثمّ إنّ جماعة الغُزاة قالوا لخيرالدّين: إنّ الأسارى قد كثروا بهذه المدينة وإنّا نخاف قد يمكروا بنا وحِصنَ العدوِّ مجاور لنا فربّما انتهزوا

1. – هذه الصّفة التي يطلقها المؤرخون العرب – اللّعين – كثيرا ما تغضب المؤرخين الأوروبين ولا يجدون لها مسوّغا منطقيا .

2. – المقصود هنا هم الإسبان .

3. – يقول المؤرخان: Sander Rang و Ferdinand Denis في كتابهما: Histoire de Barberousse عن كيفية ممارسة الفدية ؛
Dans les echanges des Captifs, les Algeriens ne donnent qu'un chretien pour deux Turcs; mais quand aux Maures, ils n'en prendraient point dix pour un chretien (note de traducteur). vol: 1 p: 113 .

4. كلمة محذوفة في المخطوط، المخطوط، ص: 32.

5. هكذا يكتب صاحب المخطوط «بربروس» دائما ؛ وهنا يؤكّد صاحب هذا المخطوط متى، ومن أطلق هذه الصفة على خير الدّين ؛ أي صفة Barba Rossa أي اللّحية الصّهباء أو الوردية ؟ وهو ما يدلّ على أنّ خيرالدّين هو أوّل من لقّب بهذه الصّفة من طرف الجنويين أو الإسبان إمّا للون لحيته التي كانت صهباء بطبعها أو كانت وردية مخضّبة بالحنّاء وبالتّالي فلا يجوز إطلاق هذه الصفة على عرّوج مثلا أو إسحاق ؛ وفي الحوليات الإسبانية نجدهم ينطقونها Barba Roja اللحية الحمراء .. وربّما من أثر الحنّاء التي كان يخضب خيرالدّين بها لحيته إمّا للوقار أو لإفزاع أعدائه ؟ ونقدّر أن يكون إطلاق هذه الكنية على خير الدّين بعد 1520.

6. – هذه شهادة تؤكد مدى السطوة التي كانت لخيرالدّين في عرض البحر المتوسط، واعتراف الأعداء بالخطر الذي يشكله وسوف نجد للبابا نفسه مثل هذا الاعتراف.

فرصة وقطعوا البحر إليهم، فإنّ المسافة قريبة[1]، فظهر لخيرالدّين أن يحفر ثلاثة أنفَاقٍ تحت الأرض ويُودع فيهم النّصارى. ثمّ إنّه أمر بالحديد الذي استخلصه من سُفنهم المُنعطبة على الساحل فصنع منه قيودًا بعدد النّصارى وأودَعهم تلك الأنفاق المحفُورة، وكلّ نفق يحفظ ثلاثين رجلا ؛ ثمّ أمر الموكّلِين أن يذهبوا بخمس مائة من الأسارى ليأتُوا بعدَّة الأجفان المنعطبة على الساحل، وقد كان أخبر هؤلاء الخمسمائة من النّصارى الأسارى أنّهم إذا بعدوا عن المدينة يقتلون المتوكّلين بهم، ويذهبون إلى الحصن المجاور للجزائر بعلامات كانت بينهم. فلمّا بعدُوا عن المدينة قتلوا بعض المتوكّلين بهم وفرّ البعض إلى الجزائر فانتهى خبرهم إلى خيرالدّين ؛ وقد كان جماعة الغُزاة لا يُفارقهم السلاح خوفا من ثورة النّصارى عليهم، فبعث في إثرهم العسكر ؛ وقد كان النّصارى لمّا وصلوا إلى ساحل البحر بعث إليهم أهل الحِصن قواربهم، فجعل أهل المدينة يرمون عليهم بالمدافع إلى أن منعوهم من الوصول إلى الساحل، فقتلوا جماعة من أهل القوارب، فحينئذ أدركهم العسكر المتوجّهون إليهم وقتلوا منهم أربعمائة وأربعة ورجعوا بستَّة وتسعين فأودعُوهم مع بقيّة جماعتهم.

وكان في جملة هذا العدد الباقي غلام من النّصارى صغير السنّ أصابته جِراحة فجعله كبير المتوكّلين عنده، وجعل يعالجه من جراحته ويُحسنُ إليه في تلك المُدّة إلى أن برئ، فبقيَ عند الموكّل يخدمه ويدخل إلى أميرالهم الأعظم بطعام خاص يأتيه به ؛ وقد كان من جُملة خُدّامه قبل الأسر، فالتمس منه الأميرال أن يأخذ مِفتاح النّفق من عند الموكّل ويفتح الباب ويقتلون الموكّل وجماعته وذلك ( )[2] ويذهب إلى الساحل المجاور

1. – تقدر بحوالي 300 م كما يقول شوفالييه.

2. – كلام محذوف في المخطوط، المخطوط، ص: 33 .

وقع باتّفاقهم أم انفرد به الأميرال فقط؟ فقال له الغلام: قد اتّفق عليه الجميع على ما ذكرته لك، فأمر عند ذلك خيرالدّين أن يأتوا بالأميرال بين يديه، فحين مَثُلَ بحضرته قال له الحديث الذي سمِعه عنه، وأخبره بما ذكر له الغلام، وجعل خيرالدّين يُوبّخه ويذكر له إحْسانه السّالف معه، وما كان فعله معه في حالة مرضه من إكرامه والقيام عليه بنفسه، وقال له في أثناء كلامه: لو غيرك عزم على هذا الأمر كُنت أنت تمنعه وتأخذ بيده عنه لمّا فرط من إحساني عليك وأنت تعلم ذلك فسقط في يد النّصراني وأجابه قائلا: جميع ما قلته حقّ، وأنت أحسنت إليَّ وأنا قابلتك بالإساءة فلذلك أطلعك الله على ما عزمتُ عليه ؛ لكن يا مولانا جرت عادة الأسير أنّه يسعى في تخليص رقبته بكلِّ مَا يمكنه من الحيلة، وعلى سيدي أن يحتاط في أمره ويُبالغ في حِراسته. فأمر به خيرالدّين أن يُرَدَّ إلى محْبسه. ثمَّ إنَّ الطّاغية، لعنه الله، وجّه إلى أهل الحِصن المجاور إلى الجزائر بأن يبعثوا إلى خيرالدّين في شأن فداء رؤساء الأُسارى الذين عنده، وهم ستّة وثلاثون رايِسا كما تقدّم، وبذل أهل الحِصن فيهم مائة ألف وعشرين ألف دينار ذهبا[1] فرَضيَ بذلك خيرالدّين، فبعثوا إلى الطّاغية وأعلموه بذلك فوجّه إليهم المال وأعلموا خيرالدّين بوُصول المال إليهم، فجمع فُقهاء الجزائر واستفتاهم في ذلك[2] فاَتفقت فتواتهم على عدم جواز فداء الأسارى بالمال[3] وقالوا له: أيُّها الأمير إنّ هؤلاء من أعيان النّصارى

---

1. ورد في كتاب «Histoire de Barberousse» في الجزء الأول، ص: 121، Cent vingt mille ducats.
والدّوكا هي العملة المتداولة آنذاك .

2. يبرز هذا المخطوط طريقة الحكم الذي اتّبعه خيرالدّين في الجزائر فهو دائما يستشير العلماء في مختلف القضايا .

3. جاء في كتاب: «Histoire de Barberousse» الجزء الأول ص: 121 ما يلي حول طريقة ومبلغ فدية الأسير آنذاك» Dans ce moment-ci (fin du 18 siècle) , le rachat d'une personne de marque à Alger, n'exige guère moins de cent mille francs. (Note de traducteur).

للمدينة ويجعلون لأهل الحِصن علامة ليبعثوا إليهم القوارب فأجابهم إلى ذلك. فحين تقرّر هذا بينهم وعزموا عليه رأى خيرالدّين في عالم النّوم كأنّ دار كبير الموكّلين بهم تزلزل زلزلة هائلة فانتبه مذعُورا من هذه الرُّؤيا[1] واستعاذ بالله من شرِّها وتأوّل أنّ ذلك المكروه يحدثُ من النّصارى ؛ وكانت هذه الرُّؤيا عِناية من الله سبحانه وتعالى لخيرالدّين، وكرامة كرّمه الله بها.

فلمَّا صلَّى الصّبح وفرغ من قراءة أوراده أتى إليه كبير المَوكلين[2] على عادته ليتفاوض معه ما يحتاج إليه، سأله عن الغلام النّصراني الجريح، وقد كان عَلِمَ بخبر جراحته فأخبره أنّه قد عفي من تلك الجراحات وهو عنده يخدمه، ويخدم الأميرال، فقال له خيرالدّين: عليَّ به السَّاعة ؛ وكان خيرالدّين ذا عقل وسياسة وتفطُّن وفِراسة،فجاء به إليه، فلمّا وقف بين يديْه استَفْهَمَه خيرالدّين عمَّا دار بينه وبين الأميرال من الكلام موهما للغلام أنّه عارف بما يدور بينهما من الكلام مُطّلعا على أميرالهم، فأنكر الغلام أن يكون بينهما كلام أو غدر أبدًا سِوى الدّخول والخروج وما يتعلّق بخدمته، وصار الغلام في أثناء ذلك يرتَعدُ كأنّه ورقة في ريح عاصف بحيث إنّه لا يخفى على من رآه أنّه مُرتاب، فتهدّده خيرالدّين وبالغ في زجره فحينئذ أقرّ له الغلام بما عزم عليه الأميرال من الثورة والخروج إلى ساحل المدينة والذّهاب منه إلى الحِصن. فقال له خيرالدّين: هذا الأمر

1. - الفرق بين الرؤيا Songe prophetique والرؤية: «يفرّق الشيخ محي الدّين بن عربي بين الرّؤيا والرؤية فيقول: إعلم أيدك الله أنّ للإنسان حالتين: حالة تسمّى النّوم وحالة تسمّى اليقظة، وفي كلتا الحالتين قد جعل الله له إدراكا يدرك به الأشياء تسمّى تلك الإدراكات في اليقظة حسّا وتسمّى في النّوم حسّا مشتركا ؛ فكلّ شيء تبصره في اليقظة يسمّى رؤية، وكلّ ما تبصره في النّوم يسمّى رؤيا ..» الفتوحات المكية، المجلد الثاني، الباب الثامن والثمانون ومائة في معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات. دار الفكر، ص: 375 .

2. في الكتاب المترجم Histoire de Barberousse يقول :جاء Le Gardien Bachi جزء 1، ص:115

وقع باتّفاقهم أم انفرد به الأمير [illegible]
الجميع على ما ذكرته لك، فأمر [illegible]
بين يديه، فحين مُثّل بحضرته [illegible]
بما ذكر له الغلام، وجعل خيرالدّين [illegible]
وما كان فعله معه في حالة مرضه [illegible]
في أثناء كلامه: لو غيرك عزم على [illegible]
عنه لمّا فرط من إحساني عليك وأنت [illegible]
وأجابه قائلا: جميع ما قلته حق، وأنت [illegible]
فلذلك أطلعك الله على ما عزمتُ عليه [illegible]
أنّه يسعى في تخليص رقبته بكلّ ما يقدر [illegible]
يحتاط في أمره ويُبالغ في حِراسته.فأمر [illegible]
ثمّ إنَّ الطّاغية، لعنه الله، وجّه إلى أهل الحصن [illegible]
يبعثوا إلى خيرالدّين في شأن فداء رؤساء [illegible]
وثلاثون رايِسا كما تقدّم، وبذل أهل الحصن [illegible]
ألف دينار ذهبا[1] فرَضيَ بذلك خيرالدّين [illegible]
بذلك فوجّه إليهم المال وأعلموا خيرالدّين [illegible]
فُقهاء الجزائر واستفتاهم في ذلك[2] [illegible]
فداء الأسارى بالمال[3] وقالوا له: أيُّها الأمير [illegible]

1. ورد في كتاب «Histoire de Barberousse» في [illegible]
والدّوكا هي العملة المتداولة آنذاك .

2. يبرز هذا المخطوط طريقة الحكم الذي [illegible]
القضايا .

3. جاء في كتاب: «Histoire de Barberousse [illegible] d'une personne de marque à [illegible] (Note de traducteur).

تحصل على هذا المال فإنّي أستخرجه، فاستشار العلماء في ذلك فأفتوا له بعدم الجواز فأمر بالأميرال أن يُلقى في بئر[1] فعندئذ انقطع رجاؤه منه ورجعوا بأسوأ خيبة.

ثمّ إنّ خيرالدّين عزم على السّفر إلى إقليم الرّوم لأجل الغزو ومُواصلة الجِهاد فجمع أهل الجزائر كلّهم، وجمع أعيان الجزائر من العلمَاء والصلحاء والمشايخ وقال لهم: «إنّي عزمتُ على السّفر إلى حضرة السلطان وقد أمِنتُ الآن على بلادكم بِما أخلّفه عندكم من العسكر المجاهدين، وقد وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير[2] وعندكم من السلاح والعُدّة ما تقومون به بأمر الجهاد،وعدوّكم الكافر قد نكبه الله تعالى وردّه على أعقابه مذموماً مدحُورا فلا مَطمع له في غزو بلادكم مرّة أخرى، وإنّي لمّا قدِمت إليكم لم يكن عندكم مِدفع واحد والآن قد تحصل بأيْديكم ممّا قد خلّفه العدوّ أكثر من أربعمائة مدفع فاَختاروا واحدا منكم يكن من خِياركم تُقدّمونه عليكم[3]، وقد كان استعمل على

---

1. - ورد في كتاب «Histoire de Barberousse» الجزء الأول، ص: 125 غير هذه النّهاية بحيث يقول: .. et jeté dans un four à chaux afin que personne ne put étre tenté de profiter des ses depouilles sacrilège .

2. هذه شهادة تاريخية تدلّ على احتضان الجزائر آنذاك لجالية معتبرة من الأندلسيين المهجّرين قصرا، والمعروفين بالتّسمية الإسبانية Los Moriscos .وهناك فرق في الأدبيات الإسبانية بين مصطلحي: «Moriscos» و «Mudejares» ؛ فالأول هو تسمية تطلق على جميع المسلمين الأندلسيين الذين بقوا تحت الحكم الإسباني بعد سقوط غرناطة عام 1492 وبمقتضى الاتفاقية المبرمة بين الملكين الكاثوليكيين: لإيزابيلا وفرناندو وأبي عبد الله الصّغير والتي تضمنت سبعة وستين بندا (67) ... أنظر تفاصيلها في كتاب «دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني من ص: 139 إلى 140 ؛ أما «الموديخار» فهم طائفة من المورسكيين أيضا سكنوا مناطق الشمال بنافارا وأراغون وتوطنوا إلى درجة التّدجين الكلّي والذوبان في المجتمع الإسباني المسيحي الذي اعتمد على مهاراتهم كيد حرفية صنّاع، ومن هناك جاءت تسمية «المدجّنين»، وانعدمت الثورات تقريبا في مناطقهم. وتسمية «المورسكيين» هي تسمية أطلقت عليهم من طرف الإسبان المنتصرين للتحقير من عرقهم ودينهم، وهي ردّ مباشر على التسمية التي أطلقها الفاتحون العرب على الإسبان الذين بقوا على دينهم وتسموا «بالمستعربين» Los Mozarabes ، أو المعاهدين.

3. لقد عالج خير الدّين باستمرار كلّ المواقف باللّجوء إلى المشورة وهي سمة عرفت بها مدّة حكمه للجزائر.

وإنّما استوليتُ عليها بعناية الله تعالى وخلّصتُها من يد العدوّ الكافر، وكذلك أخي عرّوج[1] رحمه الله تعالى، وكان الواجب على هذين الرّجلين أن يكُونا معي يدا واحدة على دفاع عدوّ الدّين وجهاد أعداء الله الكافرين، قد رأيتم ما وقع منهما وما قابلاني به، وقد ظهر لي من الرّأي أن نَعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى ونصِلَ يدَيْنا بِطاعة السُّلطان الأعظم، مولانا السلطان سَليم نصرُه الله[2] فيمدّنا بالمال والرِّجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد ولا يكون ذلك إلاّ بصرف الخطبة إليه وضَرْب السكّة عليه[3].

فرضي أهل المدينة وصرفُوا رأيه في ذلك، فأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتابا إلى حضرة السلطان يخبِرونه بصرف طاعتهم إليه، وأنّهم من جُملة من تُنفّذ فيهم أحكامه ويقع فيهم نقضه وإبرامه. ويكتب هو أيضا مثل هذا الكتاب.فرضيَ أهل المدينة بذلك وكتبوا كِتابًا كما أمرهم، وكتب هو أيضا آخر.

---

176 . أنظر دليل الحيران ... ص: 176 .

1. - قتل بجبل بني يزناسن. أنظر دليل الحيران ... ص: 176 .

2. هو السلطان سليم الأول الملقب بالقاطع ولد سنة 875 هجرية وتوفي في الحادية والخمسين من عمره أي في 926 هجرية الموافق لسنة 1520 ميلادية بعد فتوحات كثيرة من أبرز ما جاء فيها «أنّ محمد المتوكل على الله آخر ذرية الدولة العبّاسية الذي حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر الخلافة العباسية في قبضة هولاكو التتري سنة 656 هـ الموافقة لسنة 1019 ميلادية وكانت له الخلافة بمصر اسما تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي: البيرق والسيف والبردة وسلمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلا» . أنظر كتاب: تاريخ الدولة العلية، ص: 73 – 78 .

3. هذه هي الشروط التي وضعها خيرالدّين على سكّان الجزائر من أجل بقائه معهم وبإلحاح منهم وهو ما يكذّب أطروحة القائلين باحتلال الأتراك للجزائر وكان ذلك في حدود 1519. يقول شوفالييه: «بعد مدّة قليلة من موت عرّوج تعرف خيرالدّين على سليم الأول وفي السنة الموالية في 51 من شهر مارس 1519 تمّ قبول الاقتراح الذي قدّمه خيرالدّين للسلطان ودخلت مدينة الجزائر تحت الحماية «Régence» العثمانية. ص: 38 وتفاصيل أكثر ص: 40،39 .

إرسال خير الدّين الهديّة إلى السلطان وصرفه الخطبة إليه والسكّة باسمه في بلاد الجزائر

وعيّن أربعة أجفان برسم السفر إلى حضرة السلطان وقدّم عليه رجلا من خواصّ أصحابه اسمه الحاج حسين[1] ووجّه صحبتهم هديّة عظيمة من جُملتِها أربعة رؤساء من رؤساء النّصارى العِظام.

فوصلت الأجفان إلى حضرة السلطان سليم. فلمّا أرسوا بمرسى قسطنطينية العظمى وقابلوا قصر السلطان رموا على حَسَبِ ما جرت به العادة مدافع كثيرَة ونزلوا بتلك الهديّة إلى الوزير الأعظم، فأعلم السلطان بقُدومهم وأوصل إليه الهدية التي قدِموا بها فقبِلها السلطان وأمر بإنزالهم وإجراء النّفقة عليهم. ثمّ إنّهم لمّا أرادوا الرُّجوع وجّه صُحبتهم سنْجَقًا إلى الجزائر بقبول ما كتبوا إليه وأنّهم من تشملهم عنايته وتحرسهم رِعايته. وقد كان القُونص[2] المستقرّ بالقُسطنطينية من قبِل البنادقةَ[3] أعطاهم

1. جاء في كتاب تاريخ الدّولة العليّة: «... وقتل أمير الجزائر – سليم تومي الثعالبي – وأرسل من قبله أحد أتباعه واسمه الحاج حسين إلى السلطان سليم (وقد كان أتمّ فتح مصر) ليخبره بفتح مدينة الجزائر باسمه الشريف فقبله السلطان وعيّن خير الدّين باشا بكلربك على إقليم الجزائر وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه.» ص: 95 .

2. يقصد القنصل Bailli de Venise .

3. البنادقة نسبة إلى البندقية الواقعة على البحر الأدرياتيكي وهي أهمّ الثغور التجارية فإنّها فازت في مسابقة جمهورية بيشة ولم تقو على مجاراة جينوة إلاّ لمّا استولى عليها الاختلال وصارت سيّدة البحار إلى أن اكتشف رأس الرجاء الصالح بطرف إفريقيا الجنوبي الموصل إلى الهند واكتشفت قارة أمريكا الجنزبية فتحولت التجارة إلى هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية، واشتهرت هذه الجمهورية بمحاربة العثمانيين الذين جرّدوها من جميع أملاكها شيئا فشيئا فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها ببلاد مورة، وفي سنة 1571 استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص، وفي سنة 1696 فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد وكانتا تابعتين لها، وفي سنة 1797 احتلها الفرساويون ثمّ ضمّت إلى النمسا وفي سنة 1805 ضمت إلى إيطاليا، وفي سنة 1859 تنازلت عنها النمسا إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وهو تنازل عنها إلى فكتور إمانويل ملك بيمونتي الذي صار فيما بعد ملك إيطاليا ولم تزل تابعة إلى إيطاليا حتّى الآن ... أنظر تاريخ الدولة العليّة .. ص: 64 .

الذي يُسمّيه أهل البحر الباسَبَرْطَ[1] يتضمّنُ حمايتهم من كلّ ما يلقونه من أجفان العدوّ الحربية، فحملوه معهم وسافروا راجعين إلى الجزائر.

فلمّا كانوا في أثناء السفر لقِيهم ثمانية أجفان من أجفان البنادِقة فأروهم الكتاب الذي أعطاهم القُنْصل فقبلوه منهم في الظّاهر، وكان ذلك منهم مكرا وخيانة وقالوا لهم: لابدَّ لنا من الذّهاب معًا إلى ناحية أناضول[2] خشية عليكم من بعض الأجفان الحربية فيستولون عليكم ونُعاقب نحن بكم، فاَغترّ بذلك المسلمون وذهبوا معهم إلى ناحية أناضول فهجموا عليهم وصدموهم صدمة واحدة ولم تكن للمسلمين بهم طاقة فغرَّقوا ثلاثة أجفان للمسلمين ولم ينج منهم إلاّ ثلاثة أنفُس.

و أمّا الجفن الرّابع الذي فيه مُقدّم الجيش فإنّه عطب على الساحل وخرج الكفّار في إثرهم فقتلوا كثيرا من المسلمين وفرّ الباقُون من بين أيديهم. وأمّا مقدّم الجيش فإنّه دخل أناضول وكان بقربها كما ذكرناه، ولقِيَ قاضي المدِينة وأخبره بما جرى على أجفان المسلمين، وكيف مكر بهم كُفّار البنادِقة. فكتب القاضِي بذلك كتابا إلى حضرة السلطان يعلِمُه بما جرى على أجفان الجزائِر، وعيّن لحاملَ الكتاب مركبا بما يحتاج إليه من آلة السّفر، وسافر فيه مُقدّم أجفان الجزائر.

فلمّا وصلوا إلى الحضرة دخلوا إلى الوزير الأعظم وقدّموا إليه كتاب قاضي أناضول فلمّا قرأ الكتابَ استغاظ من ذلك استيغاظا شديدا وبعث إلى قُنصل البنادقة[3] يتهدّدِه ويُعلمه أن أجفان أهل الجزائر إن وصل خبرها إلى السلطان قبل أن تردّوها يقع عليكم بلاء عظيم من قبلِهِ، فامتثلوا إلى

1. الجواز أو تأشيرة العبور.

2. هكذا ورد في المخطوط ولعلّه يعني شيئا آخر غير أناضول ؟.

3. Bailli de Venise .

أمر الوزير وردّوا لهم جملة ما ضاع لهم من الأجفان والأسباب وغيرها، فرجع مُقدّم الجيش إلى مدينة أناضول فوجد بها الثلاثة رجال الذين نجوا من الأجفان التي استولى عليها العدوّ، فذهب الجميع إلى جزيرة بقُرب أناضول فوجدوا بها الأجفان التي أغرقها لهم العدوّ فركبوا فيها ورجعوا إلى الجزائر.

فلمّا دخلوها ووقفوا بين يدي خيرالدّين وصفوا إليه أمر السلطان والسّنْجق الذي وجّهه صُحبتهم وأعلموهُ أنّه قبل طاعة أهل الجزائر، وأذِن لهم في صرف الخطبة والسِكّة إليه كما تضمّنه الكتاب الذي وجّهه معهم، ففرح بذلك خيرالدّين فرحا شديدا وسُرَّ به سرورا عظيما إلاّ أنّه حصل له بعض الحزن على ما وقع على أجفانه من النّكبة التي حصلت لهم من عدوِّ الدّين، واستقرّ خيرالدّين أميرا من قِبل السُّلطان الأعظم سليم خان، وصرف دعوتها إليه وأمر بذكره على منابرها وضرب السكّة عليه[1].

فلمّا سمع بذلك سلطان تونس دخلته الغيرة من خيرالدّين فوجّه إلى سلطان تلمسان خطابا يقول فيه:» أنظُرْ إلى مملكة الأتراك كيف استقرت بالجزائر وإنّ هذا الرجل، وهو خيرالدّين، إن دامت أيّامه واتّصلت في المملكة أعوامه فلا بدّ أن يستولي على ما بيني وبينك فانظر لنفسك فإنّ هذا الرّجل قد فتح عمالة الجزائر واستولى على مدينتها بطائفة قليلة من العسكرالذين كانوا يغزون معه في البحر؟. وأمّا الآن فإنّ له مدد يأتيه من السلطان العثماني في البحر وجميع ما يحتاج إليه متيسّر من قِبله وهو يتفرّغ لي ولك، ويسلبنا ملك آبائنا وأجدادنا فتَدَاركْ هذا الخَرْق قبل أن

1. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدّولة العلية .... ص: 95 «وعيّن السلطان خيرالدّين باشا بكلربك على إقليم الجزائر وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النّقود باسمه.»

يتّسِع وأكون أنا وأنت عليه يدا واحدة، وقد ظهر لي من الرّأي أنّك تضرب بين محمد بن علي وبين خيرالدّين وأضرب أنا بين أحمد بن القاضي وبينه[1] فإذا دخل هذان الرّجلان في يده ووقعت بينهما العداوة تأتّى لنا جميع ما نريده علينا ؟».

فلمّا وصل كتاب سلطان تونس إلى سلطان تلمسان حرّك منه، وعلم أنّ خيرالدّين لا يقِيل عثراته، ولا ينسى له فِعلاته التي فعل معه: من قتل أخويه عرّوج وإسحاق وإجلابه النّصارى عليه... وغير ذلك ممّا وقع منه في جانبه.

فأخذ في النّظر بين محمد بن علي وبين خيرالدّين، وبعث إليه كِتابا:» إنّي ناصِحُك ومحذّرُك من خيرالدّين غاية التّحذير، فإنّه لابُدّ أن يغدُر بك ويستولي عليك فإن أطعتني وقبِلت نصيحتي فاصرف وجهك عنه إليَّ واجعل يدك موصولة بيدي على محاربته والانقلاب عليه وإلاَّ فإنَّه إن دَهتك من قِبله نابية ؛ وأردت الانحياز إليَّ والانضمام إلى ناحيتي فإنّي لا أقبلك فتدبّر فيما قلته لك، والسَّلام؟".

وأمَّا سلطان تونس فإنّه بعث إلى أحمد بن القاضي[2] كتابا مُضمّنه مثل كلام صاحب تلمسان وأزْيد. فأجابه أحمد بن القاضي: «يا عَجَبًا أيّ شيء فعله معك خيرالدّين من الشرِّ حتّى تكتب لي فيه مثل ما كتبت، فإنّي لا أقدر على خِيانته ولا يُساعدني قلبي على المكر به، فقد رأيت في

1. - يقول شوفالييه: «... إنّ الوضع سيّء للغاية فقد تخلّى ابن القاضي الحليف القبائلي عن الصفوف وتحديد أسباب هذا التخلّي صعبة ؛ هل كان اتهامه بالخيانة أثناء سير المعركة ظلما ؟ أو أنّه شعر بأن الوشاية هي تهديد مباشر له ؟ هل كان مدفوعا من سلطان تونس الذي يرغب في فك هذا التحالف مع بربروس الذي أصبح قويا جدا ؟ أو ببساطة أنه لم يغفر أبدا لموت سليم تومي الذي كان أحد أقربائه ؟» ص: 36، 37.

2. سبق التّعريف به ولانستبعد علاقته بالحفصيين لأنّ جدّه كان أحد قضاة بجاية لمّا كانت تحت الحكم الحفصي، وابن القاضي هو من قبيلة الغبريني وبينه وبين سليم تومي كما يذكر شوفالييه قرابة.

أنتما مخيّران إِن شئتما ذهبتما إلى أخيكما، وإن شئتما أقمتما عندي؟
فاختارا الذهاب إلى تلمسان وجمعا عليهما طائفة من العرب. فلمّا قربا
من أحواز تلمسان توهّما من أخيهما شرًّا ففرّ أحدهما إلى وهران[1]،
وأمّا الآخر فإنّه دخل في عمالة خيرالدّين وبعث إليه يستَلْطِفُهُ ويتذمّم له
ويستعين به على ملك تلمسان، فركب إِليه خيرالدّين ووافقه على ما أراده
منه لِمَا كان في قلبه على صاحب تلمسان من الأحقاد المتواصلة. فبعث إلى
أشياخ العرب كتابا يدعوهم فيه إلى خلع صاحب تلمسان، وبعث أخاه هذا
وكان اسمه مسعودا[2] فأجابه كافّة العرب إلى ذلك واجتمع مع المسعود
من معه من العرب والعسكر الذي وجّهه إليه خيرالدّين إلى تلمسان، ففرّ
صاحبها ودخلها المسعود وأقام بها سلطانا تحت نظر خيرالدّين.

فلمّا رجع عسكر خيرالدّين إلى الجزائر حدّثته نفسه بالاستقلال
بالملكة والخروج على طائفة خيرالدّين، فبعث إلى أهل وهران من
النّصارى يصل يدهم بيده ليكونوا يدًا واحدة على حرب أهل الجزائر
من طائفة الأتراك ونزعها من يدهم. فلمّا سمع بذلك خيرالدّين وجّه
إليه كِتابا يلومه فيه على ما فعل ويخبره عاقبة أمره ويقول له فيه:« إِن أنت
تماديت على مُولاة النّصارى والانحياز إليهم فلا بدَّ أن أنتقم منك غاية

1. هذه المدينة الشهيرة التي تقع على الساحل الغربي من القطر الجزائري وضع من حولها الكاتب محمد
بن يوسف الزياني كتابا كاملا سماه «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» وحققه العلامة
المرحوم الشيخ المهدي البوعبدلي، وجاء في التعريف بمؤسس وهران قوله: «اعلم أن أول من اختط وهران،
أي بناها وأسسها ومدنها وحرسها هو المغراوي خزر بن حفص بن صولات بن وزمان بن صقلاب بن مغراو
...وذلك في عام اثنين وتسعين وقيل إحدى وتسعين وقيل تسعين من القرن الثالث من الهجرة، وهذا القول
الأخير هو الأصح ...» ص: 31 وما بعدها، وقال: واختلف في سبب تسميتها بوهران عل سبعة أقوال: الأول إنما
سميت بذلك لكون خزر الذي اختطها لقبه وهران فسميت به، ويقال إنّ وهران بلغة زناتة هو الثعلب وذلك أن
مغراوة لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا به غارا فيه ثعلب واسم الثعلب بلغتهم وهران فسموها بذلك وغيره
أنظر تفاصيل أكثر في صفحة: 32 .

2. يسميه صاحب كتاب دليل الحيران في أخبار مدينة وهران: «المسعود حفيد العلج رضوان». ص: 144 .

الانتقام، وأجعلك حديثا بين الأنام، فانظر لنفسك وجدّد إسلامك وتُبْ إلى الله عزّ وجلّ من هذا الذّنب العظيم، فإنّ الله يقبَلُ التّوبة من عباده ويعفو عن السيّئات».

وقد كان خيرالدّين لمّا وجّه الكتاب إليه أخذ في تجهيز المحلّة والاستعداد إلى لِقائه فإن أظهر الرُّجوع والإنابة إلى الطّاعة أضرب عن الحركة إليه وإلاّ تمادى على هذه الحركة حتّى يُخلّص منه الوطن ويستولي على المدينة؛ وقد كان أخو المسعود المذكور فرَّ إلى وهران وأقام عند النّصارى[1]؛ فلمّا سمع ما وقع بين خيرالدّين وأخيه المسعود طمع في تملُّك تلمسان مرّة أخرى، فبعث إلى رجل صالح من صُلحاء الوطن يستشفع به إلى خيرالدّين؛ وكان ذلك الرّجل حاظيا عند خيرالدّين لا يرُدُّ له أمرا، وكان من جُملة ما قال له صاحب تلمسان المعاشِر عند النّصارى: «إن خلّصني خيرالدّين وردّني إلى مُلكي أكون عبدا من عبيده يتصرّف في كيف يشاء، وأنا تائب إلى الله من مُخالفته والخروج عن أمره» ؛ فتوجّه ذلك الرّجل الصّالح إلى خيرالدّين إلى الجزائر برسم الشّفاعة في صاحب تِلمسان، فلمّا قدِم على خيرالدّين أجمل لقاءهُ وأكرم نزوله، وبالغ في تعظيمه فأنهى إليه شفاعته في صاحب تلمسان المخلوع ؛ فكان من جملة ما قال له خيرالدّين: «يا شيخ إنّ ذلك الرّجل قد رسخ الكُفر في صدره، وهذا القبيل من ملوك تلمسان لا يُقِرّون بخير ولا يشكرون على نِعمة، ولا يُقابلون على الجميل إلاّ بالقبيح، أنظر أخيه مسعود كيف أعنته على الملك وبعثت إلى أشياخ العرب وانحيازهم إليه بطائفة من العسكر على ملك تلمسان، فلمّا حصل عليها استقرّ بها ونشب مخالبه في الوطن وأنكر الإحسان الذي أسلفته إليه

1. المقصود بالنّصارى الإسبان المحتلّين لمدينة وهران منذ 1509 ومن قبلها المرسى الكبير سنة 1505 .

وقابل الجميل بالقبيح، وصار يستعين بالنّصارى على حربنا ويحثّهم على الإجلاب علينا، وأنت تعلم أيّها الشيخ هذا، وحاشى أهل الإسلام أن يكون منهم هؤلاء القوم، ولكن لأجلك أيّها الشيخ أقبل هذا العذر الذي اعتذر به هذا الخائن وأتجاوز عمّا فرط منه»[1].

ثمَّ إنّ خيرالدّين بعث إليه ليقدم عليه إلى الجزائر ويتفاوض معه في أمر تلمسان فأجابه بالكتاب يقول فيه: «أنا لا أقدر على القدوم عليك خوفا من أخي فإنّه جعل من يرصدني في الطريق برسم إمساكي إذا قدِمت إليك، وإذا أردت أن يحصل الغرض الذي طلبته منك فاعمل الحركة إلى مدينة مستغانيم[2]، فإذا اقتحمتها أقمت أنا بها وبعد ذلك يقع الرّأي على استخلاص تلمسان والتوصّل إليها» ؛ فوقع الاتّفاق من خيرالدّين على ذلك، وجهّز إلى مستغانم ثمانية وعشرين جفنا بجميع ما يحتاج إليها من العدّة والعدَد، وجهّز حملة عظيمة في البَرّ فيها عسكر عظيم عازما على حصارها برًّا وبحرًا فيسَّر الله فتحها واستخلصها من يد صاحب تلمسان المسعود.

فلمَّا استقرّ على ملك خيرالدّين خرج إليها مولانا عبد الله من وهران واستقرّ بها فسُرَّ سرورا عظيما، وكانت الأجفان التي وجّهها خيرالدّين إلى مستغانم لمّا حصل لهم الغرض من فتحها ذهبوا إلى بلاد الأندلس برسم ترحيل من رضي منهم إلى بلاد المسلمين فحملوا منهم خلقا كثيرا ورجعوا بهم إلى الجزائر[3].

1. يلاحظ هنا مدى تقدير خيرالدّين لعلماء الدّين فهو لا يردّ لهم شفاعة .
2. مدينة قديمة تكرّر ذكرها عند المؤرّخ التّنسي، وغيره من المؤرّخين والرّحالة القدامى، وهي واقعة على شاطئ البحر على بعد 90 كيلومتر شرق وهران بالغرب الجزائري، وتكتب اليوم من دون ياء بعد النّون.
3. هذه إشارة تاريخية هامّة تؤكد وصول الكثير من الأندلسيين المعروفين باسم الموريسكيين إلى الجزائر واتخاذها وطنا لهم. والفضل في كلّ ذلك يعود إلى جهود خيرالدّين الكبيرة .

وأمّا المحلّة التي كان وجّهها خيرالدّين إلى مستغانم فإنّه لمّا وقع فتح مستغانم ذهبت إلى قلعة بني راشد[1] فاَستولت عليها واستخلصها من يدِ المسعود ومن ثمَّ توجّه إلى تلمسان برسم أخذها صُحبة مولانا عبد اللّه، فحين بقيَ بينها وبين المدينة مرحلتين خرج المسعود برسم لقائها، فلمّا حصل بينهما اللّقاء ناوشه أهل المحلّة الحرب فلم يثبت بين أيديهم وانهزم بمن معه إلى المدينة فاَستولى على جميع أهل محلّته المخالفة، فقصد أهل المحلّة المدينة ونزلوا عليها فجعل يُقاتلهم أيّاما ؛ وكان أهل المحلّة لم يكن عندهم شيء من المدافع فأقاموا عندهم عشرين يوما ولم يتأت لهم وجهٌ في فتحها، فاَتّفق أهل الرّأي من المحلّة أن يظهروا الفرارَ ويتركوا ستّين خِباء بأسبابها وما اَحتوت عليه من الحوائج فإذا اَشتغل أهل المدينة بالنّهب رجعوا عليهم( ) [2] منهم إلاّ القليل ؛ فلمّا كان صباح تلك اللّيلة خرج العسكر من الأخبيَة كالمنهزمين وجعل عربهم يطلبونهم من ورائهم باتّفاق وقع بينهم في ذلك تموِيها على أهل المدينة، فلمّا رأى ذلك أهل تلمسان قالوا: إنّ التّرك قد هربوا فخرجوا وخرج معهم المسعود لنهب المحلّة واَتّباع أهلها فوجدوا الأخبية التي تركوها خاوية ليس فيها أحد، ووجد في أهل العسكر رغبة في الظّفرِ بهم والإتيان على جميعهم. فلمّا وصل إليهم بأهل تلمسان استلّ العسكر سيُوفهم وحملوا عليهم حملة رجل واحد فاشتغل الرّجل بالرّجل والرّاكب بالرّاكب فلم تمض إلاّ ساعة حتّى

1. قلعة بني راشد مشهورة بنسج الزرابي، ولا زالت إلى الآن ينسجها نسوة البلدة ونواحيها بأيديهنّ، وهي مشهورة في الأسواق ومعروفة، ويرى بعض المؤرخين الأثريين أنّ هذه الصناعة قديمة جدّا، أي قبل الإسلام ويستدلون على ذلك بزهرة عليها. دليل الحيران ... ص: 191. وقلعة بني راشد كما سبق وأن ذكرنا هي التي قتل فيها الأخ الأكبرلخيرالدين إسحاق سنة 1518، وهي القاعدة الخلفية التي كان يتزود منها الإسبان المحتلين لوهران بالمؤونة والغذاء .

2. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 42 .

انهزمت جماعة المسعود ؛ وقد كان خرج معه من الرّجال ثلاثمائة فلم ينج منهم واحد.و أمّا جماعة فُرسانه فلم ينج إلاّ من كان له جواد من عِتاق الخيل ؛ ثمّ إنَّ العسكر رجعوا إلى أخبيتهم المُخلّفة واستقرّوا بها. وأمّا المسعود فإنّه دخل إلى تلمسان مهيض الجناح مفلولاً، ولّما رأى أهل البلاد ذلك، وأنّهم لا طاقة لهم بحرب عسكر أهل الجزائر، بعثوا إليهم قائلين: «إنّا لا نُحاربكم بل نحن طائعون للأمير خيرالدّين ولمن يولّيه علينا، وإنّما أطعنا المسعودَ ظاهرًا خوفًا منه، وقد كانت طاعتنا سابقة إليكم، فإنّ عرّوج لّما كان مستقرّا عندنا كُنّا نحن من جُملة عسكره.

ثمَّ إنّ أهل البلد عيّنوا للعسكر موضعا لدخولهم المرتقى ووضعوا لهم سلالم بغرب ذلك المحلّ، فلمّا كان ربع اللّيل الأخير[1] ذهب العسكر إلى ذلك الموضع الذي عيّنه لهم أهل تلمسان فوجدوا بقربه السلالم فنصبوها وصعدوا عليها إلى الصّور ؛ وكان عدد الصّاعدين مائتين فنزلوا إلى المدينة فقتلوا جماعة من أهل الحرس الذين كانوا على الباب، وذهب جماعة إلى المسجد الأعظم فصعدوا في مناره وزعقوا بالنّفير ليسمع أهل المدينة أنّهم دخلوا إلى المدينة، وكان ذلك علامة بينهم، فإذا سمعوا نهضوا نحو الباب، فلمّا وصلوا إلى الباب وجدوهُ قد كَسَرَهُ أصحَابهم الدّاخِلون، فنهض الجميع إلى قصر السلطان ليقع بأيديهم.

فسمع المسعود تلك الضجّة، وعلم أنّ التّرك قد دخلوا المدينة ففرَّ في مائة فارس من خواصّ أتباعهِ ؛ ثمَّ إنّ العسكر لّما استولوا على المدينة بَعثوا

1. هناك من الثراء في اللغة العربية ما جعلها قادرة على تسمية كل جزء من أجزاء الليل أو النهار، بل كل ساعة من ساعات الليل أو النهار ؛ فيقال في العربية لأجزاء الليل مثلا: الشفق، الغسق، العتمة، السدفة، الفحمة، الزلفة، الزلّة الهزيع الأخير، البهرة، السَّحَر، الفجر، الصبح ؛ والمجموع 12 ساعة ولكل ساعة اسمها الخاص بها. أما أجزاء النهار التي تقابل الليل فهي كالآتي: الشروق، البكور، الغدوة، الضحى، الهاجرة، الظهيرة، الرّواح، العصر، القصر، الأصيل، العشية، الغروب والمجموع 12 تسمية ولكل ساعة اسمها الخاص بها .

هذه الأفعال التي تفعلها معي؟ هل أخذت من يدك شيئا من البلاد أم لحقك منّي ضرر؟ هذا الفعل الذي فعلته معي لا يفعله إلاّ أهل النّفاق ؟.»

فأعرض عنه سلطان تونس ولم يُجِبْهُ، وأخذ في تجهيز عسكر إلى الجزائر. فسمِع بذلك خيرالدّين، فوجّه إلى النّاحية الشرقية عسكرا برسم حِراستها فلقوا عسكر تونس فتقاتل العسكران ووقعت الهزيمة على عسكر تونس ففرّوا إلى جبل في ذلك الموضع وتحصّنوا فيه. فأتى عسكر الجزائر على ذلك الجبل وحاصروا عسكر تونس فيه فأتاهم عند ذلك أحمد بن القاضي مُظْهرا للصدّاقة ( )[1] عليهم بالحبّ القديم وأشار عليهم بالصّعود إلى الجبل لاستئصال عسكر تونس والإتيان على جميعهم، فاغترّ العسكر بقوله وصعدوا معه إلى الجبل، وقد كان أحمد بن القاضي المذكور قسّم جيشه الذي قدم معه على قسمين: قسم صعد معه مع العسكر الصاعدين، وقسم خلّفه مع العسكر الذي في المحلّة، وقال لهم: إذا أغلقت في الجبل فاَقتلوا أنتم هؤلاء العسكر الذين معكم في المحلّة، وأنا اَقتل العسكر الذين صعدوا معي ؛ ثمّ إنّه قال للعسكر الذين صعدوا معه: تقدّموا أنتم وأنا أكون من ورائكم، فذهبوا على هذا الترتيب ولم يبق في المحلّة إلاّ القليل، فحين صعد عسكر الجزائر مع جماعة ابن القاضي وجدوا عسكر تونس في محلٍّ ضيّق من الجبل، فأراد عسكر الجزائر الهجوم عليهم، فبينما هم يدبّرون في هذا الأمر إذ وثبت جماعة ابن القاضي على العسكر المخلفين في المحلّة على حين غفلة منهم فاَستأصلوهم قتلا، فسمع بذلك عسكر الجزائر الذين بالجبل وعلموا بالمكيدة التي وقعت عليهم فحصلوا بين حجرين دامغين: ابن القاضي خلفهم وعسكر تونس أمامهم

1. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص:43.

عند ذلك ورأى أن لا حيلة له إلاّ في مُصالحة خيرالدّين، فبعث أكَابرَ قومه ومشايخهم إلى خيرالدّين يطلبون منه العفو والصفح ؛ وكان خيرالدّين رجلا حليما[1] فقبل ذلك منهم سياسة، وهو يعلم أن باطنهم في ذلك غير مُوافق لظاهرهم، لكن لمّا رأى أهل الجزائر وما هم عليه من الضّيق والشدّة من حصار العدوّ قبِلَ ذلك منهم في الظاهر وركن إليه واشترط عليهم في هذا الصّلح أن يردّوا بقيّة الأساري من قومه الذين تحت حوطة ابن القاضي، وأن يدْفع ابن القاضي إليه كلّ سنة مالاً مقدرا يجيز إليه في شهرين قطعة منه، فرضي ابن القاضي وجماعته بذلك وردّ إليه طائفة الأتراك المعتقلين عنده وأعطاه من ذلك المال المُقدّر عليه حسب أربع أشهر ؛ ثمّ إنّه نقض الصُّلح وأثنى حركة أخرى إلى الجزائر استناب فيها أخاه فسمع بحركتهم خيرالدّين فوجّه إليه جيشا برسم لِقائهم فالتقت الطائفتان في بعض نواحي تلك العمالة فوقع بينهم قتال انهزم فيه أخو ابن القاضي وأتباعه المفسدون ورجع عسكر الجزائر إليها مستبشرين لمّا وقع لهم هذا الفتح.

رجعنا إلى خبر المسعود الفار من تلمسان فإنّه جمع طوائف من العرب وأقواما من البربر وتوجّه إلى تلمسان بقصد حصارها والاستيلاء عليها فوصَلَ وحاصرها فضاق الأمر بسلطانها مولاي عبد الله وأراد الفِرار فمنعه من ذلك جماعة الأتراك المقيمون عنده من قِبل خيرالدّين، وفي أثناء ذلك سمع خيرالدّين بخبر هذا الحصار فجهّز خمسمائة من العسكر لحماية تلمسان فوصلوا إليها والمسعود محاصر لها فناوشوه إليها لقتال فلم يثبت لهم، وأقلع عن تلمسان فارًا بنفسه، فخرج إليهم صاحبها

1. يؤكّد صاحب هذا المخطوط على صفات العفو والصفح والوفاء التي اتّسم بها خيرالدّين.

وتستخلص جبايتها لنفسك؟ فلمّا وصله كتاب ابن القاضي فَطن لحيلته ومكره وأعرض عن جوابه وردَّ رسوله أقبح ردٍّ، فرجع إليه وأعلمه بالخبر، فلم ينته عن ذلك ابن القاضي ولم يزل يفتري في ( )[1] حتّى ركن إليه قارة احْسن فسوّلت له نفسه الاستبداد عن خيرالدّين بالبلاد الذي خلّصها من يد ابن القاضي واتّفق مع العسكر الذين معه عن الخروج عن طاعة صاحب الجزائر فبقيت النّاحية الشرقية بين ابن القاضي وبين قارة احْسن.

قيام أهل الجزائر على خيرالدّين وأصحابه

ثمّ دسّ ابن القاضي إلى مشايخ الجزائر وأعيان أهلها في الوثوب على خيرالدّين وطائفة الأتراك الذين معه فأجابوه إلى ذلك، وجعل مشايخ الجزائر وأعيان أهلها يدبّرون في ذلك فنما الخبر في ذلك إلى بعض الجند فذهب إلى خيرالدّين وأعلمه، وقال له: إنَّ أهل الجزائر مُجمِعون على الثورة والوثوب علينا والرّأي أيُّها الأمير أن نغدر بهم قبل أن يثبُوا علينا، فأجابه خيرالدّين: نحن لا نبدأهم بالشرِّ بل ندعهم وما هم عليه إلى أن يكشفوا لنا عن وجه الخلاف فحينئذ يسوّد الله وجههم ويغطسون في البئر التي حفروها لنا. وفي أثناء هذه المدّة اجتمع مشايخ الجزائر في دار أحدهم للمشُورة وكيفية الإيقاع بالأتراك وجعلوا يتفاوضون في ذلك وارتفعت أصواتهم بالقول فيهم ؛ وكانت دار بعض الجند مجاورة إلى تلك الدّار التي اجتمعوا فيها ففهم عنهم أنّهم يتدبّرون عليهم ويتشاورون في الوثوب عليهم. فدار في اللّيل على جماعة من أبناء جنسه وأتى بهم إلى تلك الدّار فسمِعوا عن القوم ما سمعوه منهم وتحققوا من مكرهم وما انطوت عليه نيتهم من الشرِّ فذهبوا إلى خيرالدّين وأعلموه بما اَجتمع

---

1. كلمتان غير مفهومتين، المخطوط، ص: 46.

بأمثال هذا، فعند ذلك رجع العلماء إلى خيرالدّين وقالوا: أيّها الأمير إنّ القوم لعب بهم الشيطان وهم عازمون على محاربتك وقِتال جماعتك فَاستعنْ بالله عليهم ودبّر أمرك. فأمر خيرالدّين بإحضار العسكر إلى دار الإمارة فحضروا ولبسوا سلاحهم واستعدّوا لِقتال أهل المدينة، وكان ذلك ليلا. فمكثوا بقيّة تلك اللّيلة ويومها إلى العصر ولم يروا أثرا لحركة القوم؛ وكانت دار الإمارة قد اكتنفها ثلاث سكك: السكة الأولى شارعها إلى باب عزّون[1] والسكّة الثانية المقابلة لها إلى باب الوادي[2] وهي أقصر منها، والسكّة الثالثة المقابلة إلى دار الإمارة منها يذهب إلى الجامع الأعظم وإلى باب البحر.

فلمّا كان بعد العصر بقليل أقبل أهل المدينة من السكّة[3] الثالثة وقد أكثروا الصِّياح وهم جماعة بلا رايس، وعاقِبة العامة في قِيامهم على الأمراء ذميمة كما حكم المؤرخون عن قيام العامّة بغرناطة على الحكم بن عبد الرحمان الدّاخل[4]. فلمّا رآهم خيرالدّين أقبلوا من الثلاث سكك أمر عسكره بان ينقسِمَ لهم كذلك. فلمّا قرّبوا من دار الإمارة خرج إليهم العسكر وذهبت كلّ فرقة من العسكر إلى الفِرقة المعيّنة لها من أهل السكك؛ فكان الواحد من العسكر يبطش بالواحد من أهل المدينة ويقسمه بسيفه على ثلاث أو أربع قطع ونكّلوا بهم نكاية عظيمة.

وكان أهل المدينة قوما لا خِبرة لهم بالحرب فحسِبوا أنّ كلّ سوداء ثمرة،

---

1. لايزال هذا الشارع يحتفظ بهذا الإسم إلى يومنا هذا وهو شارع «باب عزّون» الذي يمثل أحد بوّابات الجزائر.
2. أحد أشهر أحياء الجزائر القديمة الذي يتمّ الدخول إليه عن طريق باب الوادي أحد الأبواب الخمسة في مدينة الجزائر آنذاك.
3. يسمي صاحب هذا المخطوط الطريق بالسكة وفي كلام الجزائريين اليوم تطلق السكة على سكة القطار.
4. كلام غير مؤكد تاريخيا ولعله يقصد سكان قرطبة فيما يعرف بثورة الرّبض والتي قمعها الحكم بن عبدالرحمان الرّبضي نسبة لتلك الحادثة التي قامت بها العامة من سكان قرطبة.

فلمّا رأوا ما دار معهم علموا أنّهم لا طاقة لهم بمقاتلتهم ففرّوا من بين أيديهم هاربين، فبعضهم استجار بالمسجد، وبعضهم بالزّوايا، وبعضهم استجار بدِيار الأكابر فأمسك العسكر منهم مائتين، فأمر خيرالدّين بحبسهم. فلمّا كان صباح هذه الكائنة أمر خيرالدّين أهل المدينة أن يفتحوا دكاكينهم ويستمروا في بيعهم وشرائهم ونادى مُناد بذلك. ثمّ إنّ جماعة العسكر حثّوا خيرالدّين على قتال أهل المدينة وقالوا له:«أيها الأمير إنّ القوم تمخضت عداوتهم لنا فلا يطمئنّون إلينا ولا نطمئنّ إليهم ونخاف أن نكون في بعض الأيّام غافلِين عنهم فيهجمون علينا ولا يبقون منّا أحدا؟ فقال لهم خيرالدّين: يا إخوتنا كيف يمكن لنا قتل أهل المدينة كلهم وفيهم البريء والمتهم والصّالح والطّالح[1]. هذا أمر لا يمكن، ويؤدّي إلى فِتنة عظيمة وفساد كبير[2]. ثمّ إنّ خيرالدّين رأى إطفاء هذه الثائرة بأن يجمع أهل المدينة في المسجد الأعظم، فأَجتمعوا كلّهم فيه، ثمّ ركب إليهم خيرالدّين مع عسكره ووقف عند باب الجامع وقال: يا أهل الجزائر ما سبب قيامكم علينا، وماذا دعاكم إلى ذلك؟ ألسنا كُنّا جرينا في قتال العدوّ الكافر حتّى صرفه الله عنكم بسيوفنا مرّتين: مرّة في مدّة أخي، ومرّة في مدّتي وكان أثرنا في ذلك أثرا محمودا ومقامنا فيه مقاما مشهودا يعلم بذلك كافة أهل المشرق والمغرب ؛ وقد كنت عزمت على الله إلى إقليم الرّوم بعدما حصّنت مدينتكم وشحنتها بالعدّة والعدد بحيث إنّه لم يبق للعدوّ طمع فمنعتموني من ذلك وناشدتموني الله في عدم ترككم وقلتم لي: «إن ذهبت من هذه المدينة استولى عليها العدوّ الكافر، وكان هذا الكلام وقع من علمائكم، واتّفقت فتّياهم على منعي من السفر قائلين:» نخشى أن

1. تتّضح هنا مرّة أخرى حكمة وحنكة خيرالدّين السياسية الذي لا يتصرّف بحسب العاطفة والنّزوة.
2. يتجلّي في مثل هذه المواقف باستمرار حكمة خيرالدّين وقدرته على تجاوز الأزمات .

لا يكون لك أجر فيما تغزون في غير البلاد، فأَستخرت الله تعالى وأقمت بعسكري معكم أحرس مدينتكم برّاً وبحراً فلم تجدوا ما تكافئونني به إلاّ القيام عليّ وعلى عسكري، فما ترون أن أفعل بكم الآن أأقتلكم عن آخركم أم أعذّبكم بأنواع العذاب الذي تتمنّوا معه الموت؟» فأجابه عُلماء المدينة وصُلحاؤها قائلين له: «أيها الأمير المعذِرة إلى الله ثمّ إليك.أنت تعلم أنّ أهل المدينة لم يتّفقوا على القيام عليك ولم يرض عامة أهلها، وإنّما فعل ذلك السّفلة والأوباش وذووا الأحلام الحادثة، وأمّا المشايخ والأعيان لم يرضوا به ولم يوافقوا عليه، والله تعالى يقول في مُحكم تنزيله، «وإن تعفوا أقرب للتّقوى[1].وقال سبحانه وتعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله[2]» إلى غير ذلك من الآيات التي تُناسب الحال، وظنّ أهل الجزائر أن خيرالدّين وعسكره لا يبقون منهم أحدا فصارت تضطرب حوائجهم خوفا، واشتدّ من ذلك قلقهم، وغلبت عليهم الحياة وتولوا ثمّ قالوا له: «أيّها الأمير الذي ظهر لك أنّ هذه الفِتنة ومن سعى في إيقاد نارها فيدنا ويدك عليه واحدة»، فقال لهم : «يا معشر أهل الجزائر أنتم أعلم بأهل الفساد منّي، فجميع من سعى في هذه الفتنة منكم مكّنوه في يدي حتى أوفّي فيه حقّ الله عزّ وجلّ»، فقالوا له: «يا سيّدنا أنت الأمير والمُقدّم فالذي تعرفه من أهل الفساد منّا هاهو بين يديك فافعل به ما شئت.» فعند ذلك أمر خيرالدّين جماعة عسكره أن يدخلوا إليهم في الجامع ويخرجوا أهل الفساد منهم الذين في الفتنة المتقدمة. فخرجوا بمائة وستين رجلا فأمر بهم خيرالدّين إلى السجن بدار الإمارة ورجع خيرالدّين في آثارهم

1. من قوله تعالى «وإن طلّقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ ان تعفوا أقرب للتّقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إنّ الله بما تعملون بصير.» سورة البقرة، الآية: 237.
2. من قوله تعالى «وجزاء سيّئة بسيّئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنّه لا يحبّ الظّالمين» ، سورة الشورى الآية: 40.

وأمّا النّاحية الغربية فلم نر في الكِتاب المترجم[1] ما يدلُّ على قيامها عليه ولا يستبعدُ أن يكون أهلها قد رفضوا طاعته.

فلمّا رأى ذلك خيرالدّين بقي مفكّرا متردّدا هل يقيم بالجزائر أو يسافر عنها؟ واستخار الله عزّ وجلّ في ذلك، فبينما هونائم في بعض تلك اللّيالي إذ رأى نفسه في النّوم كأنّه يحمل أثقاله وأسبابه إلى البحر برسم السَّفر ؛ وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعينه في حَمْلها ويُساعده عليها. فلمّا انتبه من هذه الرُّؤية عزم على السّفر وجَدَّ، وكان عنده في الجزائر ستّة أجفان فجهّز منها ثلاثة كأنّه يريد أن يبعثها إلى حضرة السلطان لاقتضاء أمر من الأمور، واشتغل هو في خِفية في تجهيز نفسه واستعداد أسباب حركته.

خروج خيرالدّين من الجزائر إلى مدينة جيجل

فلمّا تمّ تجهيز الأجفان وحضر وقت السّفر أظهر خيرالدّين حينئذ سفره وصرَّح به وحمل أسبابه إلى السُّفن، ونصب دِيوانا عظيما بسبب ذلك قال فيه:» يا أهلِ الجزائر أنا ذاهب عنكم وتركت لكم بلادكم فها هي مفاتحها، فانظروا لأنفسكم؟».

فلمّا سمعوا منه أهل الجزائر ذلك، وتحقّقوا أنّه مسافر عنهم جزعوا

1. هذه إشارة عابرة في منتهى الأهمية لأنّ مضمونها يحيلنا على مصدر آخر، قد يكون أصل هذا المخطوط والمعبر عنه من طرف مؤلف هذا المخطوط «بالكتاب المترجم» أي أنّ هذا المخطوط هو ترجمة لكتاب مترجم وبالتّالي فالأصل لا يمكن أن يكون باللغة العربية وإلاّ لما اقتضى الأمر إلى ترجمته إلى اللغة العربية ؟ إذن فمن يكون مؤلف هذا الكتاب ؟ وما هي لغته ؟ ما يمكن الاقتناع به هو أنّ لغته الأصلية لا يمكن أن تكون اللغة العربية، فلغته إمّا أن تكون تركية «عصملية» أو لغة أوروبية فرانكة أو ما إلى ذلك ؛ والأرجح أن تكون لغة تركية لأنّنا لاحظنا كيف كانت مراسلات احسن آغا التي بعث بها إلى شارلكان الإسباني كلها باللغة التركية وقبلها كانت مراسلات خيرالدّين باللغة ذاتها ؟.

فعزموا على حربه وشرعوا فأغرق منهم جفنا فعند ذلك دهشوا وتحقّقوا أنّه خير الدّين فأسلموا أنفسهم إليه، فوجد هذه الأجفان موسوقة بُرًّا.

فلمّا كان بعد تسعة أيّام من سفره دخل بها إلى جيجل فشرع خير الدّين في توزيع هذا الزّرع على أهلها ؛ فالأغنياء منهم أخذوه منه بيْعاً، وأمّا فقراءهم فإنّه تصدّق به عليهم وحصل لهم بذلك اتفاق عظيم،وشكروا الله سبحانه على هذه النّعمة قائلين لخير الدّين: الحمد لله الذي مَنَّ علينا بك، وأتى بك إلى هذه المدينة حتى أجبرَ بك أهلها.

ثمّ سافر مرّة ثانية فغنم جفناً للكُفّار موسُوقا ملِحًا فرجع به إلى جيجل وكان من الاتّفاق الغريب أنّ أهلها قد فقدوا الملِحَ في أثناء هذه المدّة فوزعه عليهم كما فعله مع القمح. ثمّ إنّه أدركه فصل الشّتاء فأقام بها على رسم عادتِه، فلمّا كان فصل الرّبيع وتهيّأ أوان السَّفر جهَّز تسعة أجفان وعزم على السَّفر فيها ؛ وكان أهل تونس لمّا سمعوا باستيطان خير الدّين جيجل فرّ بعضهم في البحر خوفا من غائلتِه، فسافر خير الدّين بأجفانه إلى ناحيتهم واستولى على الكثير من أجفانهم فبقيَ أهلها في قبضتهِ كالأسارى ورجع بهم إلى جيجل، فسمع بذلك أهل حضرة تونس فجازوا إليه وقبّلوا الأرض بين يديْه، والتمسوا مصالحته فقبِل ذلك منهم وأطلق لهم جماعتهم الذين كانوا تحت طائلته ؛ وكانوا قدِموا إليه في تسعة أجفان فانْظمُّوا إليه، فكان الجميع ثمانية عشر جفْنا وسافروا برسم الغزو ولم يغنموا في هذه السَّفرة ورجع إلى جيجل.

ثمّ إنّهم عاودوا مرّة أخرى فلقي جفنا عظيما للكُفّار هائِل العِظم فأخذ خير الدّين معهم في القِتال، فوصل إليه كورة من العدوِّ وألقت صارية

في البحر وتلتها أخرى أسقطت عمامته من رأسه[1] ونجّاه الله منها. ثار به إقدامه وشجاعته المعهودة في تلك المواطن فلصق جفن العدوّ، وهجم عليه بجفنه بنفسه وضرب بسيفه يد رايسها فقطعها وثنى عليه آخر من المسلمين فرمى رقبته، فعند ذلك طلب الكُفّار من المسلمين الأمان، وألقوا إليهم بأيديهم فاستولى خيرالدّين على هذا الجفن ؛ وكان هجومه عليها بنفسه سببا لأخذها، فوجد فيها مائة قنطار حريرا وأربعة شقّة من الملف الملوّن وستة عشر مائة قنطار من الفصال وألف قنطار بندق وخمسة عشر صندوقا من سائر السِّلَع المختلفة فأرسل بها إلى جزيرة جربة[2]، وأراد الرّجوع من سفره فسمع أنّ مركبا للنّصارى يحتوي على جملة وافرة من أسارى المسلمين من أهل تونس، فثنى عزمه إلى لقائها والتصدّي لمقاتلتها بقصد ( ) [3] تونس، فبينما هو ذاهب إليها إذ لقيَ المركب الذي كان يطلبه فشرع في قتالها، ثمَّ إنّه لاصقها وهجم عليها هو وجماعته الغُزاة فاَستولى عليها بتأييد من الله عزّ وجلّ فوجد فيها أسارى المسلمين من أهل تونس، ففكَّ قيودهم وأنقذهم ممّا كانوا فيه من الأسر، فحمد الله عزّ وجل ودعوا لخيرالدّين بالنّصر وطول البقاء، وقصد خيرالدّين إلى جربة[4] فوصلها وقسّم الغنيمة بين الغُزاة فحصل من ذلك بأيديهم مال كثير ؛ وقد كان بعض أهل تونس وصلوا إلى جربة بسُفنهم فوجدوا بها خيرالدّين، وقد وصل سِنان رايس[5] إليها قبله بثلاثة أجفان فخرج الجميع برسم الغزو

1. هذه دقّة متناهية في رصد الأحداث التي تعرّض إليها خير الدّين مما يدل على أنّ صاحب هذه السيرة كان في عين المكان ومرافقا لخير الدّين في غزواته .
2. وهو ما يدلّ على أنّه كان يغزو في سواحل تونس الجنوبية .
3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 52 .
4. يجب التذكير هنا أنّ جزيرة جربة التي تقع في الجنوب الشرقي من القطر التونسي كانت قاعدة للأخوين بربروس قبل وصولهما إلى سواحل الجزائر .
5. أحد رياس البحر المشاهير في الأسطول العثماني .

في أربعين جفنا فاَستولوا على غنائم كثيرة وذخائر غزيرة، وضاق البحر على عدوّ الدّين من أجل خيرالدّين وجماعة الغزاة معه، ولمّا تمّ أمر سفره وأراد الرُّجوع إلى مدينة جيجل استأذن سِنان رايس في الرّجوع إلى جربة بسبعة أجفان واستأذنه رايس هو الآخر في السّفر إلى ناحية النّصارى فأذن بذلك ورجع هو إلى مدينة جيجل.

وأمّا رايس الذي ذهب إلى ناحية بلاد النّصارى[1] فإنّه غنِمَ منهم ورجع بحملة وافرة من أهل الأندلس المسلمين ووصل إلى خيرالدّين. وكان خيرالدّين رجع إلى جيجل وأدركه فصل الشتّاء فأقام بها إلى أن دَخل فصل الربيع. عيّن أجفانا للغزو على عادته وسافر إلى بلاد الأندلس وأتى منهم بعدد كثير من بلاد المسلمين، واتفقوا أنّ خيرالدّين كان ذات ليلة نائما فرأى النّبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه معه، وكان النبي (ص) يقول له:«تركت بلادك، يعني الجزائر؟ فأجابه خيرالدّين بقوله: «لا يا رسول الله ولكنّني ضقتُ فيها»، فقال له (ص): «توكّل على الله وارجع إليها». فاَستيقظ خيرالدّين واستفسر نفسه حيث رأى شمس الدنيا والآخرة صلّى الله عليه وسلّم، وعزم على الرّجوع إلى الجزائر امتثالا لأمره صلى الله عليه وسلم وقد كان بعض أجفانه أرادت الدخول إلى الجزائر فمنعت من ذلك لأجل استيلاء ابن القاضي عليها[2]، وسبب استيلائه عليها أنّه لمّا فارقها خيرالدّين وخلا الجوّ منه أطاعه أهل الجزائر فدخلت في إيالته.

1. المقصود بالنصارى هنا هم الأسبان لأنّ الغزاة تمكنوا من إنقاذ الأندلسيين الذين يعرفون باسم «المورسكيون» .
2. اختلفت آراء الباحثين حول المدّة التي دام فيها احتلال ابن القاضي لمدينة الجزائر ؛ فقد ذهب بعضهم أنّها دامت سبع سنوات من 1520 إلى 1527، وبعضهم قال ست سنوات، والغالبية تجمع على أنها خمس سنوات من 1520 إلى 1525، والأرجح هو ثلاث سنوات وأثناء هذه المدّة كما يقول شوفالييه: «... أقامت جيوش القبائل في مدينة الجزائر وارتكبوا الأخطاء الكثيرة والفوضى واغتصاب الغنائم. إلخ ... ص: 44، 45. وأرى شخصيا أنّها لا تتجاوز ثلاث سنوات بحسب العهد الذي قدّمه خير الدّين لسكان الجزائر قبل مغادرته الجزائر، وهذا الكلام مدون في هذا المخطوط.

ولمّا رجع إلى خيرالدّين بعض أجفانه التي توجّهت إلى الجزائر وأخبروه عن عدم الدخول إليها قالوا له:«يا مولانا إنّ هذه البلاد كانت بيدنا واستخلصناها من يدِ غيرنا وأتعبنا أنفسنا في تخليصها وجاهدنا الكفّار مرّتين حتّى أجليناهم عنها، ولولا نحن لكانوا أخذوها من يد أهلها لأنّهم لا طاقة لهم بدفاعهم لضعفهم وعجزهم، وقد ضاع منّا في تلك الحروب مع الكفّار خلق كثير، فكيف بنا تركناها لغيرنا وخرجنا منها باختيارنا[1] حتّى آل الأمر إلى أن منعونا من الدّخول إليها؟ فلم يبق الآن إلاّ أن تذهب إليها وتستولي عليها مرّة أخرى إمّا برًّا أو بحراً فنحن لا نخرج عن أمرك ونهيك بل رأسنا تحت قدميك» ؛ وكان خيرالدّين لم يرِ حرصهم عليها من قبل ولا امتدّ طمعهم إليها بعد الخروج منها إلاّ هذه المرّة فعلِمَ أنّ ذلك من قبل الله عزّ وجل تصديقا للرُّؤيا التي رآها.

وقد كان خبر خيرالدّين وفتوحاته وما احتوى عليه من الغنائم وكثرة أجفانه وصل إلى ابن القاضي بالجزائر فخشيَ منه وحذِر على نفسه من عاقبته، فصانعه بهديّة عظيمة وجّهها إليّه مع بعض خواصّ أصحابه. فلمّا وصلت الهديّة لم يلتفت إليها وحجب الرّسول الذي ورد بها عنه، فأخذه العسكر ومثّلوا به بحيث إنّهم قطعوا يديه ؛ فسمع بذلك ابن القاضي

1. هذه إشارة تدلّ على خروج خيرالدّين منها اختياريا وليس بسبب هجوم ابن القاضي وانتصاره عليه وإلاّ لحدث هناك أكثر من تحالف بين أعداء خيرالدّين من أجل قطع الطريق أمام عودته ؛ وأعداؤه آنذاك كثر ومن بينهم سلطان تلمسا ن وسلطان تونس وحكام تنس وأعيان الجزائر التابعين للمغتال سليم تومي، وابن القاضي والأسبان على وجه الخصوص ولعلّ هذا ما جعل باحثا كشوفالييه يتعجّب بل يتحسر كيف لم يقع تحالف من أجل التصدّي لخيرالدّين أثناء غيابه وطرده نهائيا من أرض الجزائر، فقال شوفالييه: «... لقد دهشنا أمام خمول وعدم مبالاة الإسبان لهذا التغيير في الحكم ؟ هل تلقوا ضمانات التحالف من رئيس القبائل – يقصد ابن القاضي – ؟ هل كانوا مسرورين لهزيمة القرصان الرهيب والمرعب ؟ ومهما يكن الأمر فإنّ شرشال وتنس تحركت في الوقت ذاته مع الجزائر لتتخلّص من عبودية الأتراك ؛ إنّهم لم يقوموا بأيّ جهد كي يستفيدوا من هذه الحالة، وكذلك لم يحاولوا أيضا زيادة نفوذهم في هذه المنطقة خلال هذه المدة كلها ؟ وما يدهشنا أيضا هو عدم ردّة الفعل من قبل الإمبراطورية العثمانية ؟ ... أنظر صفحة: 44.

فتحسّر غاية التّحسر واشتدّ خوفه من خيرالدّين. وقد كان مشايخ المدينة بعثوا إليه سلفا يطلبونه للقدوم عليهم وتمكين البلد من يده مرّة أخرى، وتكرّر ذلك منهم مِرارا، وكان يعرِض عنهم في كلّ مرّة ولا يلتفت إليهم حتّى رأى الرُّؤيا التي أسلفنا ذكرها[1]. عزم على القدوم إليها وأمر بتجهيز الأجفان وأنشأ الحركة إلى الجزائر ثمّ أضرب عن ذلك ورأى أن المسير إليها من البَرّ أولى فخرج في محلّة عظيمة مُوهما بذلك غزو مدينة بجاية وإنقاذها من يد الكُفّار[2]، فبينما هو كذلك إذ وردَ عليه كتاب من أهل الجزائر يستحثّونه في القدوم إليهم فأجابهم بكتاب يقول فيه: «إن كنتم صادقين في موالاتنا والتحيّز إلى جانبنا فليخرج إلينا كافّة أعيانكم بمراهنَ منكم يكونوا تحت أيدينا، ونحن قادمون عليكم إنشاء الله» .

فلمّا وصل كتابه إلى أهل الجزائر رضوا بذلك وخرج إليه أعيان المدينة بما طلبه من الرّهن حتى وصلوا إليه بأحواز جيجل، فعند ذلك ركن وسار خيرالدّين قاصدا الجزائر. فوصل بعض النّواحي التي استولى عليها ابن القاضي، وكان بها بعض أصحابه ومقدّم رجاله. فخرجوا إلى محاربة خيرالدّين في ثمان عشر ومائة مُكحله، وخرج طائفة العسكر برسم الحرس ليلا ليظفر بهذا الرجل فأتوا إلى خيرالدّين ؛ ولمّا كان صباح تلك الليلة ورأى عسكره الذي قدم معه لمحاربتهم فناوشهم الحرب فانهزموا بين أيديهم واستولوا على تلك النّاحية، فسمع بذلك ابن القاضي فاستعدّ للقاء خيرالدّين في ثمانية آلاف فارس وألف رجُل وتوجّه للقائه، فجاء إلى جبل

1. هنا يتأكد ما ذكرته المراجع من أنّ سكان الجزائر ضجوا من سلوك جيش القبائل المتعجرف ،وكذا قائدهم ابن القاضي لذا حاولوا إقناع خيرالدّين بالعدول عن مغادرة الجزائر وترك أهلها في مواجهة الأعداء سواء الإسبان أو «جبايلية» بجاية ؛ وهنا يظهر لي أنّ تسمية «القبائل» هو تحرف لتسمية «الجبايلية»، والدليل أنّ بتونس يسمون هكذا .

2. تبدو بجاية آنذاك ما تزال تحت نفوذ الحامية الإسبانية أو الجنوية .

وأسند ظهره إليه وخندق على عسكره، وكان خيرالدّين قريبا منه وبينهما وادٍ[1] فكانوا يقاتلون، وكان عسكر ابن القاضي إذا رجعوا وخلّفوا الوادي وراءهم أراد عسكر خيرالدّين الهجوم عليهم في معسكرهم وهبوا عليهم على جرع الوادي ومنعوهم من الوصول إليه، فبقي خيرالدّين مُتَحيّرًا لكونه لم يصل إلى عدوّه، فاَستخار الله ليلة من تلك اللّيالي وتضرّع إليه سبحانه وتعالى، فرأى في علم النّوم كأنّ عسكرا يتقاتلون في( )[2] المغرب، فلمّا استيقظ من نومه ركب فرسه ونشر ألويته وهدرت طبوله وقصد ناحية المغرب، فلمّا سمع بذلك ابن القاضي قال لأجناده وجماعة فرسانه: «إن العدوّ قد فرّ أمامنا فاَجتهدوا في طلبه لتمحوا أثره من هذه البلاد وتصْفوا لنا من غير منازع»؛ فخرجوا بخيلهم ورجلهم في طلب خيرالدّين، فكان من قدر الله أن قصدوا النّاحية التي هو بها، فلمّا وصلوا إلى عسكر خيرالدّين وقع بينهم قِتال عظيم وكانت الكرّة فيه على ابن القاضي وعسكره فولوا الأدبار منهزمين، وجدَّ عسكر خيرالدّين في إثرهم فقتلوهم كيف شاءوا، فكان عدد المقتولين من عسكر ابن القاضي أربعة آلاف رجل ثمّ إن الباقين منهم تحصّنوا في بعض الأوعار من الجبل الذي كانوا أسندوا ظهورهم إليه أوّلاً، وأتى خيرالدّين إلى رأس الجبل ونزل به وبعث إلى أهل تلك النّواحي رُسُلَه يدعونهم إلى طاعته فأجابوه كلّهم وأطبقوا على مبايعته ومحو دعوة ابن القاضي من بلادهم وأوفدوا إليه رسُلهم بذلك.

ولمّا علِم ابن القاضي بذلك تمكّن خوف خيرالدّين من قلبه فلم يسعه إلاّ الهروب بعدما أضرم نارا في معسكره مُورياً لإقامته في الموضع؛ ثمّ إنّ بقية العرب الذين كانوا مع ابن القاضي أقبلوا إلى خيرالدّين وأعطوه

1. وادي سيباو وبوقدورة.
2. كلمة غير مفهومة. المخطوط، ص: 54.

طاعتهم وقالوا له أشياخهم: «أيّها الأمير إنّه قد فرغ علينا الزّاد فَأذِن لنا في الذّهاب لتجديده ونرجع إليك لنكون معك يدا واحدة على حرب عدوّك. فأذن لهم وأقام في موضعه لموعدهم».

وكان ابن القاضي رجع إلى الجزائر وجهّز جيشا آخر وخرج به إلى خيرالدّين فجاء إلى مكان ضيّق ونزل به وأمر بضرب خندق عليه ولم يدع إلاّ مكانا للدّخول وآخر للخروج وجعل حرسا على الطريق خوفا من هجوم خيرالدّين عليه، وأمّا خيرالدّين فإنّه استبطأ مشايخ العرب الذين وعدوه بالقدوم عليه فتقدّم إلى ناحية العدوّ، فلمّا أشرف على عسكر ابن القاضي لم يجدْ مسلكا إليه للخندق الذي ضربه على عسكره، فعند ذلك استخار الله خيرالدّين ونام فلم ير شيئا ثمّ إنه عاود الاستخارة ونام فرأى كأنّ ناساً سائرون إلى ناحية المغرب، فلمّا انتبه من نومه ركب فرسه ونشر ألويته وهدرت طبوله وسار إلى النّاحية التي رآها في المنام، ولمّا علم بذلك ابن القاضي بعث في إثارة ثلاثة آلاف من جيشه، فلمّا وصلوا إلى خيرالدّين أخذوا في قِتاله؛ وكان خيرالدّين في مَضيق وجعل يتأخَّرُ عنهم قافلا والحرب في أثناء هذا لم تنقطع، وكان الجيش الذي مع ابن القاضي لمّا علموا اَختلال أمره وأنّه لا طاقة له بملاقاة خيرالدّين، تآمروا على قتله، فبينما هو في ذلك المجال إذ وثب عليه بعضهم بحربته فطعنه بها فكان بها ذهاب نفسه[1] وكان سبب هزيمة عسكره، وأرادوا الفِرار فلم يجدوا له سبيلا، وتمكنت منهم سيوف عسكر خيرالدّين يقتلونهم كيف شاءوا.

1. قتل ابن القاضي الذي كان حليفا سابقا لخير الدّين وأحد قادته على المنطقة الشرقية وسبب ذلك أطماعه وتحريض السلطان الحفصي له .. وكما يقول الباحث شوفالييه: «... وهكذا فإنّ ابن القاضي قد أعدّ في لقائه هذا. ومما زاد من كثرة أعدائه أعماله التعسفية وابتزازاته وأخطائه بحيث برز له أعداء في وسط جماعته حين كانت الجيوش مستعدة للالتحام في منطقة بني عيشة (بالثنية) حيث تمّ اغتياله من قبل جماعته وأحضر رأسه إلى خير الدّين بربروس وانهزمت القبائل الضالة ...» ص: 45.

وأقام خير الدّين بعد هذه الواقعة في ذلك المحلّ فظهر له أن يذهب إلى قارة حسين الثائر[1] عليه بإغراء من ابن القاضي سابقا، وكان قد انحاز بمن معه إلى مدينة شرشال[2] واتفَق مع النّصارى على أخذ الجزائر ومحوِ دعْوة خير الدّين منها مرّة واحدة، فنما خبره إلى أهل الجزائر فبعثوا إلى خير الدّين يستحثّونه في القدوم عليهم، فنهض متوجّها إليهم.

قدوم خير الدّين إلى شرشال لمحاربة قارة حسن

خرج أهل الجزائر إلى لقائه واستبشروا بقدومه، وكان دخُوله إليها يوما مشهودا فدخل دار الإمارة في بروز عظيم وأُبّهات زائدة ونزل( )[3] بها وتجرّد في الخيل إلى محاربة قارة حسن الثائر عليه بشرشال، وجدّ السّير إليها فوصل في يوم واحد، فتحصّن قارة حسن منه مع ثلاثة عشر رجلا من جماعته ببعض حصونها، وأمّا الباقون فذهبوا إلى خير الدّين وطلبوا العفْو منه فعفا عنهم وقبلَ طاعتهم واستدلّهم على مكان قارة حسن فدلّوه عليه فوجّه إليه من أتاه به ومن معه.

لمّا مثلوا بين يديه طلب الثلاثة عشر الذين كانوا مع قارة حسن العفو من خير الدّين والصّفح عنهم، فقال لهم: «لو أردتم أن يكون لكم ذلك منّي لأتيتم إليّ أوّلا مع جماعتكم»، ثمّ إنّه ردّ وجهه إلى قار حسن وقال له: يا أخبث الخلق، ويا أسود الوجه[4] أي شيء فعلته معك من القبيح حتّى

---

1. أحد قادة خير الدّين على المنطقة الغربية والذي بدوره انساق وراء تحريض السلطان الزياني لتلمسان. تذكر المراجع أنّ هذا القرصان قارة احسن كان قد عاصر عرّوج ونال جزاءه بعد 22 سنة نتيجة خيانته على يد خير الدّين. أنظر شوفالييه،ص: 29 .
2. مدينة شرشال تقع على الساحل الغربي من مدينة الجزائر .
3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 56 .
4. كلمة قارة التركية تعني الأسود لذا خاطبه خير الدّين بهذه الصفة.

تكافئني بالقيام عليّ والخروج على طاعتي؛ وجعل خير الدّين يقرّعه بمثل هذا الكلام فلم يرُدّ جوابا.فأمر بقتله[1] ومن معه فتمهّدت تلك النّاحية فأقام بها أيّاما ثمّ رجع إلى الجزائر.

ومن غرائب الاتّفاق أنّ خير الدّين كان قد قال لأهل الجزائر انتظروني ثلاثة أعوام فإن رجعت إليكم وإلاّ فانظروا لأنفسكم. فأرّخوا يوم سفره إلى يوم رجوعه فكانت مدّة غيبته عنهم ثلاث سنين، ودخل إليهم في السّاعة التي خرج عنهم فكان ذلك أمرا غريبا.

رجع خبرنا إلى صاحب تلمسان مولاي عبد الله فإنّه لمّا خَلاَ له الجوّ من خير الدّين رايس ومن رجوعه إلى الجزائر سوّلت له نفسه: صرف الخطبة إليه وضرب السكّة عليه فأرسل إلى أخ ابن القاضي[2] يُغريه بخبر خروج خير الدّين ويُحرّضه على إثارة أخيه طمعًا أن يشغل خير الدّين عنه، ويقول له: جهّز إليّ جيشا يكون عوْنا على قتال خير الدّين والإراحة منهم، ولمّا سمع خير الدّين بما دار بين صاحب تلمسان وبين أخ ابن القاضي من المراسلة في شأنه، وجّه كتابا إلى صاحب تلمسان يلومه فيه على ذلك ويحذّرهُ عاقبة البغي ويمنّ عليه فيه بما وضعه عنه من الضريبة التي كان يؤديها إلى جماعة الغزاة إعانة لهم، وعاقبه على صرف الخطبة والسكّة إليه ونقض العهد الذي أخذه عليه أوّلا. ومن جُملة ما قال له:«أنت جعلتني في مقام الأب وأنا جعلتك في مقام الابن فأمّا أنا فقد أعطيت البنوّة حقّها، وأمّا أنت فلم توف الأبوّة حقّها، وأنا أدعُو الله أن يُسلّط عليك ابنا من أبنائك يُعوقك وتشقى بسبب ذلك قريبا إن شاء الله، وقد كنتُ أنا وإيّاك على أنّك تُوجّه

---

1. هكذا كان مصير هذا القائد المسمى قارة احسن كما كان مصير القائد ابن القاضي .من قبل. وكلّ من الرجلين كان من خيرة أعوان خير الدّين في البداية، وتكون هذه الأحداث قد جرت في حدود 152% بعد انهزام ابن القاضي الذي استمرت سيطرته على مدينة الجزائر إلى غاية 1520.
2. شقيق ابن القاضي يسمى حسين، وظلّ مطاردا من طرف خير الدّين لمدّة سنتين.

لي كلّ سنة عشرة آلاف دينار برسم إعانة الغزو، وقد ترتّب بذمّتك ستّون ألف دينار فإن أنت وجّهت إلينا بما ترتّب عليك بهذا المال وصرفت الخطبة والسكّة إلى السّلطان الأعظم نصره الله، فنحن وأنت على ما كان عليه أوّلاً وإن أنت تماديت على ما أنت عليه من الشّقاق فإنّي أراك تندم حيث لا ينفعك النّدم، وقد رأيت ما حلّ بأخيك المسعود حيث نقض العهد.» ومن جُملة ما حذّره منه في هذا الكتاب موالاة أهل وهران للنّصارى والرّكون إليهم والثّقة بأحوالهم فإنّهم أعداء الدّين يجب على كافة المسلمين قتالهم واستعادة البلاد من أيديهم، وأكثَرَ له الكلام في هذا المعنى. فكان من جُملة جواب صاحب تلمسان للرّسول الّذي توجّه إليه بالكتاب: «قلْ لصاحبك إنّه لم يكن أسلف لي مالا حتّى يستوجب عليّ ردّهُ، وإن كانت له قُدرة على نزع المملكة من يدي فليأتِ بتلك: فإنّ هذه البلاد بلاد آبائنا وأجدادنا من بني زيّان[2] لا يعرفون التُّرك ولا سبيل لهم علينا.»

لمّا انفصل عنهم الرّسول متوجّها إلى خير الدّين جمع أرباب دولته وأعيان حضرته من بني عبد الواد فأجمع الرّأي بالمشورة فقال لهم: يا أهل تلمسان ألم تعلموا أنّ هذه البلاد بلاد أبائي وأجدادي من عهد يغُمراسن[2] بن زيّان إلى زمننا هذا وورثناها كابرا عن كابر فأيُّ سبيل

---

1. كانت مملكة بني زيان كثيرا ما تعرف الانقطاع بسبب تعرّضها لغزو جيرانها آنذاك لذا كانت فترة حكمهم قد امتدت من 1236 – 1337 ثم 1359 – 1554.

2. يغمراسن: تولّى يغمراسن بن زيان الحكم من سنة 633 / 1236 إلى سنة 681 / 1283 وإنّ هذا الاسم أمازيغي الأصل لذا اختلف في ضبطه ومن الخلاف في شكل الغين: فقد ذكر ابن تاويت الطنجي أنّ ابن خلدون قد ضبط هذا الاسم في غالب الأحيان بياء فغين مفتوحة تتبعها ميم ساكنة فراء مفتوحة تليها سين مفتوحة فنون ساكنة (يغَمْرَاسَن) أمّا الشكل الذي جرى عليه المؤرخون العرب فهو كالتالي: ياء مفتوحة تليها غين ساكنة فميم مضمومة (يغْمُراسن). وقال بعض العارفين باللسان الأمازيغي البربري: إنّ هذا الاسم يجب أن تنطقه بألف مكسورة وضمّ الغين ثمّ تسكين الميم (إغُمْراسن). أمّا في تلمسان حيث ما زال أهل عاصمة بني زيان يطلقون هذا الاسم على أولادهم فإنّنا نجد التخفيف. أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 115.

لخير الدّين حتّى يبعث إلينا يتهدّدنا ويحمل أموال بلادنا كلّ سنة؟ أليست عمالة الجزائر كانت بيدنا وامتدّت طاعتها إلى نحو المسيلة[1] كما تقرّر ذلك لأسلافنا من الملوك فآل الأمر أن صار خير الدّين الّذي رمت به رياح الغُربة من بلاد العجم إلى بلاد العرب يريد الاستيلاء على ما في أيدينا وينزعها من مملكة آبائنا وأجدادنا بغْيا ماله عليّ من الجميل؟.

إنّه وقع بيني وبين إخوتي ما يقع بين الملوك وإخوتهم فأعانني هذا الرّجل وحين حصلت لي مملكة تلمسان ضاعفتُ له الجزاء واستقبلت له الهدية وأكرمت جماعته التي وجّهها إليّ برسم الإعانة فطمع بسبب ذلك في تمليك هذه البلاد ونزعها من يدِ عبد الواد مرّة واحدة. فأشيروا عليّ بما أفعله مع هذا الرّجل؟ فأجابوه قائلين: «السلطان أعلم بما يفعله إن أراد الحرب أو السّلم، فنحن تابع له فيما يريده»، فعند ذلك أخذ في إنشاء الحركة إلى خير الدّين. وفي أثناء ذلك فرّ ابنه إلى الجزائر خوفا من عاقبة حرب أبيه مع خير الدّين. فعلم أنّ الدّائرة تكون على أبيه. فحين وصل إلى خير الدّين أفاض عليه سِجال النِّعَم وأكرمه غاية الإكرام، ووهب له بعض الجواري الحظيّات لديه.

ولمّا تمّ لمولاي عبد الله ما أراده من إنشاء هذه الحركة توجّه قاصدا إلى الجزائر برسم قتال خير الدّين، وخرج هو أيضا إليه فالتقيا ووقع بينهما قتالٌ عظيم كانت الكرّة فيه على جيش تلمسان، ففرّ صاحبها يطلب النّجاة لنفسه فتبعه جيش الجزائر فقتلوا كثيرا من أصحابه ورجعوا منصورين. ولمّا علِم صاحب تلمسان أنّه لا طاقة له بمناهضة عسكر الجزائر، ولا قدرة على ملاقاتهم رجع إلى المُراهَنَة وإعطاء الطّاعة ظاهرا، فبعث

---

1. المسيلة هي المحمّدية قديما وإليها ينسب الناقد العربي الكبير ابن رشيق صاحب كتاب العمدة، وتقع المسيلة في الأطلس التلّي الجزائري.

إلى خيرالدّين أعيان حضرته وأكابر دولته ليلْتمِسوا منه العفو والصّفحَ، ويعيدون له مجمل الدَّين الستّين ألف دينار التي اَستوجبها على صاحب تلمسان، ويُضاعفون الخراج الذي كانوا يؤدّونه إليه، فتكون جملته عشرين ألف دينار، مع جوائز وهدايا أخرى يوجِّهونها كلَّ سنة. فرضي خيرالدّين بذلك، وفي أثناء ذلك بلغهُ أنَّ أخ ابن القاضي وصل إلى الجزائر وعاث في أطرافها[1]، فجدّ خيرالدّين السير إليها فسمع بقدومه أخو ابن القاضي ففرَّ هاربا لا يولي على أحد، فجدّ خيرالدّين في طلبه ؛ قالوا: وبقيَ في طلبه نحو السنتين ليريح ذلك الوطن من دائه، وخرّب دياره واستولى على أهله وولده فعند ذلك بعث إليه في شأن الصُّلح وقدّر على نفسه ثلاثين حِملا من الفضّة يوجّهها إليه كلّ سنة فقبِل منه ذلك خيرالدّين ورجع إلى الجزائر وأقام بها مدّة طويلة في راحة وهناء مستمِرّ. وكان يتمنّى ذلك لِمَا قاساه من حروب ثِقال تقدّم ذكرها.

هجوم خير الدّين على برج الفنار[2] أو برج تمنفوست

ثمّ إنّه فكّر في أمر الحِصن المجاور للمدينة وما يحصل لأهلها منه من الإذاية فوجَّه إليه قائلا: «إنّ تكفّوا على ما أنتم عليه من الإذاية وإمّا أن نتفرّغ لكم ولئن ظفرت بكم لا أبقى منكم أحدا؟» فلم يلتفتُوا إليه وتمادوا

1. في مثل هذه الحوادث المتكرّرة دلالة على عدم التحكّم في أمن الجزائر من طرف خيرالدّين.

2. يعلّق صاحب المخطوط في الهامش على برج الفنار قائلا: برج تمنفوست المقابل للجزائر على شاطىء البحر وهو الآن خرِب. المخطوط، ص:59. ويقول شوفالييه: «ولا يوجد على هذه الجزيرة التي تقع على بعد 300 م من مدينة الجزائر سوى حصن صغير بناه الأندلسيون القادمون من إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر حيث كان يستعمل كمنارة أو برج مراقبة وفي هذا المكان تمّ بناء قلعة على شكل مثمّن ومحصّنة بحصنين ...أنظر تفاصيل أكثر ص: 24 – 25.

على ما هم عليه ؛ وكان هذا الحِصن حصنا عظيما لا يعادِله حِصن ببلاد النّصارى ولم تُعرف كيفية بناء النّصارى لهذا الحِصن، ولم يصل إلينا خبر استيلائهم على هذه البُقعة[1] هل كان ذلك بمرضاة أهل الجزائر لأجل البيع والشراء معهم أم استولوا عليها بالقهر والغَلَبَة؟ وبلغ النّصارى في بنائه وتحصينه لكونه يمري[2] عليه من الجزائر بحيث إنّ السّهام كانت تصل إليهم من المدينة، وتصِل إلى المدينة منه، فشرقت بذلك صدور أهل الجزائر، وأقاموا على هذه الحالة أربعة عشر سنة[3]، وكان كافّة النّصارى في جميع أقطارهم يمدّونه بالأموال حتّى أنّ من اكتسب منهم دِرهمين يعين بنصف درهم منهما برسم الإعانة على المسلمين، وكذلك من اكتسب سلاحين، ويفرغون المدافع العِظام ويبعثون بها إليه حتّى اجتمع فيه من المدافع وآلات الحرب وأنواع السلاح مالا يحصيه العدُّ[4].

ولّما عزم فتحه خيرالدّين لم يوجد من البارود ما يقوم بذلك لتوزيعه في الحروب المتقدّمة فأمر بصنعِهِ ؛ وقد كان بعض أجفان جِربة غنِمُوا بعض أجفان البندُقية موسوقة بالبارود، فسمِع بذلك خيرالدّين فوجّه في شِراء ما يحتاج إليه من المدافع. فلمّا تمّ له ما أراده من هذا الاستعداد عزم على محاربة الحِصن. توجّه إلى الله في اللّيلة التي عزم على محاربته وصبيحتها وبات ليلهُ كلّه ساجِداً راكِعًا متهلِّلاً إلى الله سبحانه وتعالى

1. تمّ الاستيلاء على هذه البقعة أثناء هجوم الأسبان على الجزائر عام 1510 بقيادة بيدرو نافارو وشيدوا قلعة Penon التي استمرّ وجودها لمدّة 18 سنة وتعاقب على حكم هذه القلعة العديد من القادة الإسبان من مثل مارتين دي فارقاس ونيكولاس الخامس وغيرهم إلى أن هدمها خيرا الدين عام 1528.

2. يمري من ميرة جمع ميَر ما يجمعه أو يدّخره الإنسان من طعام ومؤونة.

3. بهذه الإشارة التي تحدد مدة وجود القلعة 14 سنة تختلف مع ما أوردته المراجع من كونها دامت 18 سنة.

4. إشارة تدل على أنّها قلعة متقدّمة شيّدها الإسبان بدافع الاستيلاء على الجزائر واسترجاعها إلى العالم المسيحي لاعتقادهم الدّائم أنّ العرب المسلمين قد استولوا عليها بعدما كانت إحدى قواعد النصرانية في شمال إفريقيا ولهذا قرّروا استعادتها.

انهدم من المدينة ولم يبق سوى منارة الجامع الأعظم[1] فشرعوا في بنائها، فبينما هم في بنائها إذ سقط حجر من أعلا الصومعة فصادفت رجلا من عسكر خيرالدّين فأصابت رأسه فسمع بذلك خيرالدّين فاتّهم بذلك النّصراني، فأمر بالنّصراني الذي أسقط الحجر أن يُحرق بالنّار، وقد كان الطّاغية سلطان إسبانيا[2]، لعنه الله، وجّه إلى هذا الحِصن بتسعة أجفان موسوقة بالبارود وآلات الحرب والرّجال، وقال لأهل الأجفان إن احتاج إليكم أهل الحِصن فكونوا معهم ؛ وقد كان خيرالدّين رحمه الله[3] قد استولى على الحصن قبل مجيئهم وأمر بهدمه كما تقدّم.

فلمّا وصلت الأجفان بأحواز المدينة نظروا إلى الحِصن فلم يروا له أثرا فبهتوا من ذلك وارتابوا في أمرهم، ثمّ إنّهم راجعوا عقولهم فعلموا أنّ أهل الجزائر فتحوه وهدموه ورجعوا مسافرين إلى بلادهم ؛ وكانت أجفان خيرالدّين مجهّزة إلى السفر، فلمّا رأوا أجفان العدوّ ركب العسكر في الأجفان وأقلعوا من المرسى في طلبهم، ولم تمض إلاّ ساعة حتّى وصلوا إلِيهم، ولمّا رأى النّصارى أجفان خيرالدّين في إثرهم علموا أنّهم لا ينجيهم الفِرار منهم فوقفوا لهم وأخذوا في قتالهم، فنصر الله المسلمين عليهم واستولوا على جُملة هذه الأجفان ودخلوا إلى الجزائر في أبّهة عظيمة، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا ؛ وكان عدد النّصارى ألفين وسبعمائة سِوى من مات منهم في القتال. فأمر بضمهم إلى أسارى الحصن فاجتمع بعضهم

1. هذا الجامع الأعظم ربما يكون هو الذي أشار إليه شوفالييه أثناء حديثه عن مساجد الجزائر حيث قال على احدها :» إنّ الكتابة التي وجدت داخل مسجد جمعة الشاووش تبين لنا تاريخ بنائه سنة 1520 هذا الجامع المبارك الذي بناه في سبيل الله السلطان البطل خيرالدّين» . ص: 42.
2. مرّة يكتبها صاحب المخطوط صبانية ومرّة اصبانية والمقصود هنا هو شارلكان.
3. هنا يتأكد مرّة أخرى أنّ تدوين هذا المخطوط أو ترجمته إلى العربية قد تمّ بعد وفاة خيرالدّين عام 1546 ومن هناك يحتمل أن يكون المترجم قد أدخل بعض الإضافات عل الأصل.

ببعض وجعلوا يبكون ويُعانِق بعضهم بعضا. ثم إنّ خيرالدّين أمر بإحضار كبير هذه الأجفان وسأله عن أمر إسبانيا[1] وسبب مجيء هذه الأجفان؟ فأخبره أنّ سُلطان إسبانيا مقيم بمدينة برشلونة وهو عازم على السّفر إلى أرض الجنويين، أمّا سبب مجيء الأجفان فإنّه لمّا سمع بأمر هذا الحِصن بعث إليه المِيرة[2] وجميع ما يحتاج إليه، ولو علمنا أنّ أجفانك حاضرة ما كُنّا نقترب من هذه السّاحة حتّى تمّ علينا ما تمّ من مِحنة الأسر.

ولمّا سمِع خيرالدّين بسفر سلطان إسبانيا إلى بلاد الجنويين اجتهد في إنشاء الحركة البحرية وجهّز خمسة عشر جفنا برسم الغزو، وقدّم عليها أحد رجال البحر المعروفين بالكفاءة وقال لهم: «تغنموا إنشاء الله غنيمة كبيرة، وكانت ساعة إجابة»، وأقلعوا عن الجزائر مسافرين وصاروا يهجمون على بلاد النّصارى ويضربون على قُراهم[3] فأسِروا منهم جملة وافرة، حتّى أنّ أهل السّواحل أخلوا تلك البلاد وذهبوا مستغيثين إلى سلطانهم شاكين له ما نزل بهم، قائلين له: «إنّ المسلمين يستولون على بلادنا لا محالة لأنّك أهملتها ولم تشتغل بحراستها حتّى تسلّط علينا المسلمون، فنحن نحاكمكم إلى المسيح وإلى الصّنم الأكبر».

فلمّا سمع بذلك الطّاغية منهم: أرْعدَ وأبْرق وأمر في الحِين بتجهيز خمسة عشر جفْنا في طلب أجفان خيرالدّين، فخرجت في إثرها يطلبونه في كل موضع ؛ وكانت أجفان المسلمين قد دخلت إلى بعض المراسي وأقامت بها، وعزم أهلها على الرّجوع إلى الجزائر ؛ فبينما رايِسهم الأعظم نام

1. مرّة يكتبها صبانية ومرّة اصبانية.
2. الميرة سبق شرحها.
3. هذه دلالة على قوّة أسطول خيرالدّين الذي لم يكتف رجاله بالتعرّض لمن يسلك البحر بل يصلون إلى الإغارة على سكان السواحل داخل اليابسة في أراضي إسبانيا والجزر المنتشرة في عرض البحر المتوسط.

العدوُّ الذي سمِعوا به وقال بعضهم لبعض: «إنّ هذه الأجفان فيها «بربا روشة»[1] وليست بالأجفان التي سمِعنا بها»، وألقى الله الرُّعب في قلوبهم فشرعوا في الفِرار، فعندَ ذلك طلبهم أجفان المسلمين فلحقت بهم. فهجم الرّايِس الأعظم من المسلمين على المركب الأعظم للكُفّار فاستولى عليه، وعندما رأى النّصارى أنّ جفنهم الأعظم استولى عليه المسلمون ذهلوا وتحيّروا، فعند ذلك هجمت عليهم بقيّة أجفان المسلمين واستولوا على تسعة منهم وغرّقُوا ثلاثة وفرّ ثلاثة ورجعوا إلى الجزائر بهذا الفتح العظيم.

بعوث الهدية للسلطان الأعظم من خير الدّين

ثمّ إنّ خيرالدّين ظهر له أن يوجِّه إلى السلطان الأعظم[2] بهدية عظيمة ويخبره بجميع مَا جرى له من لدُن قدومه من جيجل إلى وقت توجيه الهدية له ؛ من مُحاربة ابن القاضي، وكيفية الاستيلاء على قارة حسن، وانتفاض صاحب تلمسان ورجوعه إلى الطّاعة، وما جرى له مع أخ ابن القاضي، وكيف خيّر على ما تقرّر بينهما، وأخذ الحِصن المقابل للمدينة والاستيلاء على الأجفان[3]. فوصلت إلى حضرة السلطان ونزل الرُّسل المعْنيُّون بحمل الهديّة إلى دار الوزير، ففرح بِهم وأعلم السُّلطان بقدومهم، وقرأ عليهم

1. هكذا يكتب صاحب هذا المخطوط كنية خيرالدّين «باربا روشة» وبعضهم يكتبها «بارب روس» أي ذي اللحية الصهباء Barba Rosa. أو Barba Roja وهي صفة أطلقها الجنويون أو الأسبان على خيرالدّين وحفلت بترديدها كلّ الكتب الأجنبية والأوروبية منها على وجه الخصوص، ولا تشمل هذه الصفة غيره من إخوته سواء إسحاق أو عرّوج، وهي متأتية من صفة لحيته التي يمكن أن تكون صهباء من ناحية اللون أو ربّما كانت مخضّبة بالحنّاء ودرج الدارسون على تسمية الإخوة جميعا بكنية «بربروس» وبخاصة عروّج منهم وهذا غير صحيح ..
2. المقصود السلطان العثماني سليم الأول.
3. كلّ هذه الأحداث التي ذكرت انتهت في حدود 1530 حسب المسار التاريخي.

الكِتاب الذي وجّهه خيرالدّين، فسُرَّ بذلك سرورا عظيما، وأمر أن يخلع على رؤساء تلك الأجفان وينزلوا بدار الضّيافة، وأقاموا بالحضرة إلى أن أذِن لهم السلطان في الرّجوع، فرجعوا في صُحبتهم أمْرُ كريم إلى خيرالدّين[1] وقصد من قبل السلطان قاصد اسمه مصطفى، فوصل إلى الجزائر وأكرم خيرالدّين قاصد السلطان وأنزله في دار معيّنة. ولمّا وصل خبر الحِصن والأجفان التي أتت برسم إعانته إلى الطّاغية عضَّ أنامله من الغيظ وكاد اللّعين أن يتمزّق في جلده، فبينما هو يُردّدُ هذه الحسرة إذ ورد عليه أخبار أجفانه التي استولى عليها المسلمون كما قدمناه. فعند ذلك نَصب اللَّعين ديوانا عظيما جمع فيه رؤساء البحر وأكابر دولته وقال لهم: «كيف يكون العمل مع بربروس، ما يسافرُ لنا جفن إلاَّ أخذه، والبلاد التي على الساحل قد سبى الكثير من أهلها حتّى أنّ أهلها أخلوها وذهبوا عنها خوفا منه؟» فلم يُجيبوه بكلمة لِمَا خَفَر قلوبهم من الخوف من خيرالدّين وعسكره الغزاة! ثمَّ إنّه أعاد عليهم الخطاب مرّة ثانية واستفهم على عدم ردِّ الجواب، وقال لهم: «ما لكم ساكِتون وأنا قد احترق فؤادي وتفتّت كبدي بسبب هذا المُورو[2] (Moro)؟» فلم يردّوا

1. هذا الأمر الكريم قد يكون المقصود به تعيين خيرالدّين من قبل السلطان بيلارباي وهو ما تؤكده الموسوعة التركية كما يقول شوفالييه: «... وهذا التاريخ هو سنة 1534 وهو ما أكده لنا هامار في كتابه تاريخ الإمبراطورية العثمانية الذي وصف فيه الاستقبال الذي خصّ خيرالدّين في اسطنبول بهذه المناسبة (مناسبة منحه لقب بيلارباي) ...» ص: 41 .

2. هنا نجد صاحب المخطوط وهو يتحدّث على لسان شارلكان ملك الإسبانيا يطلق على خيرالدّين صفة «المورو» أو جماعة خيرالدّين، والتي تعني العربي المسلم آنذاك أو كل من يأتي من جنوب إسبانيا، ولمدلول المورو العديد من الدلالات بحسب الحقب التاريخية فكانت في عزّ ازدهار الأندلس تحمل مدلولا إيجابيا لكن بعد سقوط الأندلس صارت تعني مدلولا سلبيا أقرب إلى معنى الهمجي أنظر تفصيلا أكثر حول هذا المصطلح في د. عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التنتيش في الأندلس (1492 – 1616) نشر مشترك الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر 1989، ص: 13 .

له جوابا أيضا لِمَا خامرهم من الرّعب. وكان في هذا الدّيوان عظيم من عظماء الرّوم أندري دوريا[1] فلمّا رأى سكوت أهل الديوان تقدّم إلى السلطان وقبّل الأرض بين يديه وقال له: «أيّها الملك لا تحزن من هذا الأمر ولا تتشوش منه، فأنا أقوم بحرب بربروس وأبقى أُضيِّق عليه حتَّى أُخرجه من بلاد البرابرة[2] وأخرجه من بلاده، ولكن إذا قبلت رأيي وبما أشير عليك حتى يتمُّ لنا الغرض المطلوب من إزعاجه من بلاد البرابرة وأخرجه منها كما دخل إليها ؟» فقال له الطّاغية، لعنهم الله: «تكلّم بما عندك من الرّأي حتّى أسمعه وأتدبّر فيه؟». فقال له: «جهّز لي عشرين جفنا بما نحتاج إليه من العِدّة والعدد، وأنا أقطع أَثَرَهُ بحيثُ لا يبقى له أثرٌ». فأصغى السلطان إلى كلامه وخُيّل له أنّه ما قال هذا الكلام إلاّ لِمَا يثِق به من نفسه بشجاعته والإقدام، فأنْعم له بها وخلع عليه خلعة التقديم عليها ؛ وكان بين هذا الطاغية وبين سلطان فرنسا[3] عداوة مستمرّة، فبعث إليه سلطان إسبانيا قائلا له: «أنت تعلم ما لحِقني من هذا الرّجل التّركي[4] ولابدّ أن يتفرّغ إليك فيلحَقُك منه مثل ما لحِقني والرّأي أن نتّفِق ونكون عليه يدا واحدة» .

1. - أندري دوريا Andrea Doria هو: «Oneaglia, en Italia – 1466 – Génova, 1560).
Almirante genovés. Estuvo al servicio de diversos principes italianos, entre
ellos el Papa y Alfonso 11 de Napoles. Después de Carlos V111 de Francia se
apoderarse de Nàpoles, se puso al servicio de los Sforzza de Milan. De vuelta
a Génova, reconquisto Corcega y derroto a los turcos en la batalla de Planosa
en 1519. Aliado del Rey francés, poco a poco se distancio y acabo al lado
del espanol Carlos V, al cual le entrego Génova, de donde fue gobernado).
Bibliografìa: Lengua, Paolo, Andrea Doria: principe e pirata nell'Italia del
'500. Milàn, 1984 .

2. يقصد أرض الجزائر Tierra de los Béréberes.

3. فرانصه هكذا يكتبها في المخطوط.

4. المقصود خيرالدّين بربا روس .

فلمّا وصل إليه الكتاب وقرأه فرأى هذا الأمر في خاطرهِ وتقرّر في قلبه وعلِمَ أنّ خيرالدّين قد يحصل له منه مثل ما حصل لصاحبه من الضرّ، فعند ذلك وجّه إليه العشرين جفنا فجهّزها بجميع ما تحتاجه من الجهاز ومعها عساكر مقاتلة.

فلمّا وصلت إليه ضمّها إلى أجفان أندري دُوريا[1] وأمره بالسفر لطلب أجفان خيرالدّين، فسمع بذلك خيرالدّين فبادر إلى تجهيز أجفانه واجتهد في عمارتها بجميع ما تحتاج إليه من العدّة والعدد وسافر هو بنفسه، وكانت عدّة أجفانه في هذه السَّفرة خمسة وثلاثين فاستولى على أجفان كثيرة من أجفان العدوّ وخرّب كثيرا من بلاد السَّواحل وهو في أثناء ذلك يتوقّع أن يُصادف أندري دوريا فلم يُقدّر اللّقاء، فرجع إلى الجزائر وترك أجفانه على ما هي عليه كأنّها تترقّب السّفرَ مرّة أخرى ؛ وكان سِنان رايس[2] لمّا استأذن خيرالدّين في الرّجوع إلى جربة في سبعة أجفان كما تقدّم فأذن له بذلك، ومضت على ذلك مدّة استقرَّ فيها خيرالدّين بجيجل، وكتب أهل الجزائر في قُدومه عليهم فخرج إليهم ووقع بينه وبين ابن القاضي ما وقع واستولى على الجزائر بعد ذلك حتّى أنشأ هذه الحرة في طلب اندري دوريا. فلمّا رجع منها تخوّف على سِنان رايس المقيم بجربه أن يُصادف اللّعين اندري دُورية في بعض سفراته فكتب إليه يحذره من عاقبة ذلك ويُراوده في القدوم عليه إلى الجزائر.

1. أحد كبار لصوص البحر وهو الذي سبق التعريف به، ولتعميم الفائدة أكثر نضيف هذه المعلومات المتعلّقة بأحد كبار المرتزقة آنذاك: «هو قائد بحري شهير من عائلة جنوية الأصل عريقة في المجد والشرف كان ضدّ الفرنسيين في حروب إيطاليا التي أثارها شارلكان وفرانسوا الأول ملك فرنسا ثمّ انحاز إلى فرنسا وحارب سفن شارلكان وانتصر عليها وحصلت بينه وبين مراكب العثمانيين عدّة وقائع ثمّ ترك فرنسا وانحاز إلى شارلكان مقابل إرجاعه مدينة جنوة إلى استقلالها الأصلي في سنة 1528 وحارب مراكب فرنسا والدولة العثمانية وأخيرا اشتغل بتنظيم جمهورية جنوة حتّى استحقّ أن يلقّب بأبي الوطن وأقيم له بها تمثال عظيم كتب عليه (إلى أبي الوطن) وكانت ولادته سنة 1464 ووفاته سنة 1560 بعد أن عمّر نحو قرن كامل. «أنظر كتاب: تاريخ الدولة العليّة، ص: 89 .

2. أحد القراصنة العثمانيين الكبار الذي أوكلت إليه مهمة تدعيم خيرالدّين .

فلمّا وصل الكِتاب تجهّز إليه بجملة أجنانه وقدم إليه ؛ فكانت جملة الأجفان الحربية بالجزائر سبعين، وقد كان خيرالدّين بعث إلى شرشال في عمل البشماط[1] فبقي يترجّاه حتّى يقدم عليه، وكان أحد أجنان العدوّ كثيرا ما يدخل إلى الجزائر على الأمان قد أخذ من خيرالدّين الكتاب المسمّى عند أهل البحر الباسبرط[2] فأمر أندري دورية[3] أهل الأجنان أن يتوجّهوا إلى الجزائر على عادته ويتخيل في حمل رجل من أهلها ليتوصّل بذلك الخبر إلى خيرالدّين، فتوجّه الجفن إلى الجزائر فلمّا كان بالموضع الذي يُقال له بهور[4] من أحواز المدينة، وجد هناك رَجُلا يصيد السمك في قارب له كان من أهل الأندلس المستقرّين بمدينة شرشال[5] فأخذه رايس الجفن ورجع به إلى أندري دوريا وأوصل الرّجُل إليه فاستفهمه عن أحوال خيرالدّين وعلى ما هو عليه عازم، فأخبره أنّ أجفانه برسم السَّفر ولم يبق له إلاّ البشماط يَرِدُ عليه من شرشال، فتحيّر اللّعين عند ذلك وعلم أنّه لا طاقة له بحرب خيرالدّين، وأراد أن يُغالِط لسانه ويُقيم غزوة في عدم ملاقاة خيرالدّين بأن يسافر إلى ناحية الجزائر ويرجع منها إلى بلاد النّصارى ويتعذّر للسلطان بعدم خروج خيرالدّين ؛ ثمّ إنّه سافر إلى ناحية الجزائر فوصل إلى شرشال من أحوازها وظهر له أن ينزل في البرّ ليستولي على المدينة ؛ فلمّا

1. البشماط ذكر مؤلفا كتاب: Histoire de Barberousse في تعريفهما للبشماط قالا: le biscuit ج:2 ص:17 والبشماط كلمة تركية قد تعني الخبز اليابس ولكنها في هذا السياق تعني مؤونة الجيش..

2. هكذا سجّله والذي يعني Passeport جواز العبور .

3. صاحب المخطوط يكتب دائما اسم هذا الأميرال الجنوي هكذا «أندريه دورية» بحسب النطق الإيطالي، ولما وجدنا مؤلف كتاب تاريخ الدولة العلية يكتبه: أندري دوريا «فضلنا كتابته بهذه الطريقة وليس هناك من فارق بينهما وحتى لا نشوش على القراء.

4. هكذا وردت الكلمة في المخطوط «يبور» أو «بهور» وتعني اسم مكان لم أتمكن من تحديده. وهو قريب من سواحل مدينة شرشال .

5. هذه الإشارة تؤكد استقرار بعض الموريسكيين الأندلسيين بشرشال التي تقع على الساحل غرب عاصمة الجزائر .

أحوال النّصارى وعن سفرِ أندري André حين أقلع من شرشال فأجابه
الرّومي : « إنّه سافر إلى بلاد الجنويين ولم يظهر له خبر آخر؟ » فأقلع
خيرالدّين عن شرشال في طلبه فاجتاز بمدينة مرسيليا من بلاد الإفرنج
وعلى بعض الجزر من أحوازها ؛ وكانت تلك الجزيرة خالية من العامر
وكان وراءها مدينة يُقال لها بالرم[1]. وفي أثناء إرسائه على هذه الجزيرة
ظهر له جفن صغير فسارع إليه أحد أجفان خيرالدّين بالمجاديف فاستولى
عليه وأتوا به إلى خيرالدّين فوجد ( )[2] الرّوم فسمعوا بذلك بالرمو، وكان
عندهم أربعة أغْرِبة فسافروا في طلب من أخذ لهم ذلك الجفن ولم يعرفوا
أنّه خيرالدّين. وكان أحد أجفان خيرالدّين قد أرسى بعيدا عنهم فاستولت
عليه تلك الأغربة وذهبوا به. فسمع بذلك خيرالدّين فتأسف عليه كثيرا
واسترجع إلى الله.

ومن غرائب الاتّفاق والأخبار التي تشرح في أخبار الفرنج[3] بعد الشدّة
أنّ ذلك الجفن المأسور لمّا وصلوا به إلى جزيرة بالرمو[4] جعلوا الأسرى
مقيّدين في عنبره ووكّلوا عليهم من يوصلهم إلى حضرة مالكهم فكان من
قدر الله سبحانه وتعالى والطاقة الخفيّة[5] أنّ النّصارى تركوا غلاما[6] من
المسلمين لم يقيّدوه برسم الدّخول والخروج إلى الأسرى والقيام بأمرهم،
ففكّ قيدا على أسير من المسلمين حتّى فصله منه وتعاونا على قيد آخر
فخلّصا صاحبه منه ولم يزالوا كذلك حتّى تخلّصوا جميعا من القيود.

---

1. هي مدينة Palermo الإيطالية.
2. كلمة غير مفهومة تبدو ممحوّة في المخطوط ص: 66.
3. الفرنج هم الأوروبيون بصفة عامة أو الصليبيون وأحيانا تعني الفرنسيين.

فلمّا كان اللّيل، وكان الحرس ينامون مُناوبة، قام أهل نوبة منهم وبقي الآخر فخرج أسارى المسلمين من العنبر فظنّهم بقية الموكّلين الذين لم يناموا أنّهم إخوانهم انتبهوا من النّوم برسم الحراسة فلم يتّهموهم بشيء، فاستولى المسلمون على سلاحهم وقتلوا سائر الموكّلين بهم سِوى خَدَمة المركب من أهل المجاديف فإنّهم طلبوا الأمان منهم فعفوا عنهم، ولم يشعر خيرالدّين إلاّ والجفن المأسور قد دخل عليه:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... نمْ فالمخاوف كُلهنّ أمان
واصطدْ بها العنقاء فهي حبائل ... واقتل بها الجوزاء فهي عنان

فحصل له به من الفرح ما لا مزيد عليه ؛ وكان بقرب الجزيرة التي أرسى فيها خيرالدّين جزيرة أخرى فيها سبعون من النّصارى فتوجهوا إلى خيرالدّين بهديّة احتوت على ثلاثين طاسا من الفضّة وعسل وسمن ودجاج والطيور التي تُعرف بالسمّان وغير ذلك من الألطاف، فقبِلَ منهم الطّعام وردّ لهم الباقي ؛ ثمّ إنّه سألهم عن بالرمو هل يمكن أخذها أم لا؟ فقالوا له: «لا يتأتى لك أخذها فإنّها محصّنة غاية التحصين»، والمنشار كما قيل أين له ليثني عزمه عن حصارها! وقال لعسكره الغزاة إن ذهبنا إليها ولا نحصل على فتحها تبقى لنا معرّة عند النّصارى فنتربّص بها إلى أن يُهيّئ لنا الله أسباب التّيسير في فتحها في غير هذه المدّة، ثمّ إنّ خيرالدّين أقلع عن تلك المرسى فردّته الريح إليها مرّة أخرى.

رجعنا إلى خبر اللّعين أندري دُوريا ؛ وكان لمّا أقلع عن شرشال فارًّا وصل إلى بلاد الحنويين فبعث إلى طاغيته أن يرسل إليه بثلاثة آلاف من المقاتلين ومائة قنطار من البارود، ومن البشماط[1] ما يحتاج إليه،

1. هنا يتأكد أنّ مدلول «البشماط» آنذاك هو مؤونة الجيش.

فأجابه إلى ذلك ووجّه إليه ما يحتاج إليه في يومين، ما عدا العسكر فإنّه اشتغل بجمعه وتجهيزه ؛ وكان قد وجّه إليه بالبارود وغيره من الأسباب في جفنين، وكان من قدر الله سبحانه وتعالى أنّ الرّيح الذي ردّ خيرالدّين إلى مرساه ساق هذين الجفنين إليه فظهر لخيرالدّين أحد الجفنين على بُعد، فبعث إليه أحد أجفانه لينظرها فرجع إليه وأخبره أنّهما جفنان، فبعث من أجفانه من استولى عليهما.

فلمّا وصلوا بهما إلى خيرالدّين فرِح بذلك، وحمِد الله على ما هيّأ له، فبينما هو في ذلك المرسى إذْ ظهر له شِراع في البحر يلوح فتميزوا ذلك الجفن فرأوا جفنا عظيما في مُنتهى الكِبرِ، مستعد غاية الاستعداد، فأمر خيرالدّين أجفانه أن يحاربوه من بعيد ولا يلاصقوه، وحذّر سِنان رايس من ذلك على الخصوص، فلمّا أخذوا في قتاله لم يملك نفسه سنان رايس لفرط شجاعته وإقدامه إلى أن قرّب إلى الجفن يريد الاستيلاء عليه فأصابته بندقية في إحدى عينيه ذهبت بها [1] فتأسّف لذلك خيرالدّين وقال له:«من هذا كنت أخاف عليك ؛ وإنّه رجل شجاع لا يملك نفسه عند رؤية القتال» ؛ ثمّ إنّ أجفان خيرالدّين قرّبوا منها وجعلوا يرمون عليها ويواصلون الرّمي حتّى أشرفت بذلك على العطب، فحين رأوا ذلك أهل المركب بقوا ينظرون حتّى استولوا عليه ودخلوا إلى المرسى فرفعوا ما فيه من المتاع وأمر خيرالدّين بإحراقه وفرح فرحا شديدا.

ثمّ إنّ خيرالدّين بذل أموالا كثيرة لأهل الجزائر برسم الصّدقة ممّا أفاء الله عليه حتّى أغناهم بذلك. ولمّا استقر خيرالدّين بالجزائر أخذ في تجهيز هدية عظيمة برسم السلطان الأعظم ووجّهها صُحبة مصطفى

1. ما يلاحظ على الأخبار الواردة في هذا المخطوط هو دقّة صاحبه في رصد تفاصيل الأحداث.

جاوش الذي قدِم عليه سابقا كما أشرت إليه. وكتب كتابا إلى السلطان يُعلمه بسائر أحواله وبما أولاه الله تعالى من الفتح في غزواته البرّية والبحريّة. فسافر مصطفى جاوش المذكور إلى حال سبيله ؛ وكان سفره في جفن واحد، وحصلت بين خيرالدّين وسِنان رايس في أثناء هذه المُدّة وحْشة ببعض سعي أهل الفساد وسَماسِرة الفِتَن وتصافيا بعد ذلك؛ وكان سِنان المذكور، وبعض الرؤساء الأعيان عزم على السّفر في غير إبّانه فرُفع الخبر إلى خيرالدّين وحذّر من غائلة ذلك، فقال خيرالدّين: «إنّ سِنان رايس قوِيّ العزم لا يردّه عن رأيه أحد ولابد أن تقع له نَدَامَة على السّفر في غير أوانه؟». فسافر الرؤساء إلى ناحية بلاد النّصارى وكان لخيرالدّين ابن هو الذي يعرف في زماننا مولاي احسن[1]، وكانت أمّه ذات نسب وشرف[2]، وكان أبوه صنع له مركبا وكان يسافر فيه برسم الغزو فلقيهما في هذه السفرة ولقي رايسين آخرين من رؤساء الجزائر أحدهما: صالح والآخر شعبان فهاج عليهم البحر وتراكمت أمواجه، فلمّا أرادوا الدّخول إلى بعض الجزر والإقامة بها إلى وقت سكون البحر فلم يُمكّنهُم ذلك فعطب الجميع على الساحل وأجفان مولاي احسن بن خيرالدّين وجفنان آخران من جُملة من أجفان أبيه، وإنّهم سلِموا، ثمّ إنّ أهل الأجفان المعطوبة خرجوا إلى الساحل فحملهم أهل الأجفان السّالمة ؛ وكانت هذه الأجفان وافِرة العِمارة المقاتلة. فلمّا حملوا هؤلاء القوم كثر الازدحام وضاق على

1. هنا نجد صاحب المخطوط يشير إلى ابن خيرالدّين لأوّل مرّة والذي يسمّى «احسن» ثمّ يحدّد ذلك بعبارة «زماننا» ممّا يدلّ أنّ مترجم الكتاب كان زمن حسن بن خيرالدّين والذي لا يمكن أن يكون خيرالدّين أثناء هذه الترجمة على قيد الحياة لأنّه سبق وأن ذكر خيرالدّين قائلا: رحمه الله، أو يحتمل أنّها إضافات من قبل المترجم ؟ ...

2. يحتمل أنّ والدته من أهل جيجل نظرا لتردد خيرالدّين المستمر على مدينة جيجل. وهي امرأة ذات حسب ونسب ولا يمكن أن تكون تركية حسب تصورنا لأنّ مرحلة حياة خيرا لدين التي تؤهله للزواج كانت بالجزائر.

كل واحد موضعه فعند ذلك قال لهم أهل الأجفان: «لا نطيق حملكم معنا وقد شهدتم ما نحن فيه من الضّيق والكرب فانظروا لأنفسكم ؟ » ؛ وكانت بقربهم جزيرة فقالوا لهم المحمولون اذهبوا بنا إلى تلك الجزيرة واتركونا فيها لنحتال على أنفسنا في كيفية الخلاص، فأنزلوهم بتلك الجزيرة ؛ وكان أهل ذلك الساحل الذي عطبت فيه الأجفان سمعوا بذلك ففزعوا إلى ذلك الموضع بكلّ ما قدروا عليه من أهل تلك البلاد ليستولوا على المسلمين الذين على الساحل ؛ فكان من لطف الله سبحانه وتعالى أن إخوانهم المسلمين حملوهم إلى ساحل الجزيرة المذكورة ؛ فلمّا أرادوا أن ينزلوهم بها تضرّعوا إليهم أن لا ينزلوهم وقالوا لهم: «إخواننا إن تركتُمُونا بهذه الجزيرة استولى علينا عدوّ الدّين، وأنتم المطالبون عند الله يوم القيامة» ؛ فقال لهم رؤساء الأجفان: «تعلموا أنّه قد لزِمنا لتجهيز كل جفن من هذه الأجفان خمسة آلاف دينار وإن أنتم بقيتم معنا شغلتُمونا عمّا نحن بصدده من طلب العدوّ، ولم يسعنا إلاّ الرّجوع بكم إلى الجزائر ونرسو بساحل تمنفوست »[1].

فلَمّا رفع خبرهم إلى خيرالدّين تدبّر بعقله في ذلك وفكّر فيه فعلم أنّهم لم يفعلوا ذلك لأمر دَاهمهم، ثم أرسل إليهم من يكشف أمرهم ويأمرهم بالدّخول فأقاموا ذلك اليوم في موضعهم ؛ فلمّا كان من الغَدِ دخلوا إلى الجزائر وأرسوا بمرساها فلمّا اجتمعوا بخيرالدّين قال لهم: «ألمْ أكنْ حذّرتكم من السّفر في غير أوانه فأبيتُم إلاّ مخالفتي وهذا جزاء

1. تمنفوست هي روسيفينيا Rusguiniae القديمة، وهي إحدى مراسي الجزائر وحسب المراجع التاريخية قد اعتمد خير الدّين في ردم الهوة البحرية التي تفصل بين الجزائر والقلعة الإسبانية التي تعرف باسم «البنيون» والتي تعني الصخرة باللغة الإسبانية أو «الجون» كما يسميها صاحب المخطوط Roche، على صخور هذا المرفأ القديم الذي يسمى روسيفينيا. وتمنفوست باللغة الأمازيغية تعني المروج الخضراء.

من خالف رأي نُصحائه؟»[1] وإنّما لم يأذن لهم خيرالدّين لرِؤيا رآها ولم يذكرها لهم؛ وتلك الرُّؤيا على ما قِيل أنه رأى سِنان رايس وأحد الرؤساء كأنّهما قد وقعا في وحل عظيم فغرِقا فيه إلى أعناقهما فجعل يستعينان بخيرالدّين ويمدّان إليه أيديهما لينقذهما فكأنّه مدّ إليهما يدهُ وأنقذهما من ذلك الوحل فظهر تأويل رؤياه فحملهما في أجفانه وكان ذلك سبب نجاتهما من مِحنة الأسر. ثمّ إنّ خيرالدّين عوّض سنان رايس ورفيقه بجفنين بدل جفنيهما وأحسن إلى سائر أهل الأجفان المعطوبة بالصِّلات والإنعام وإخلاف ما ضاع لهم، ثمّ إنّهم لمّا حضر فصل السفر المعهود تأخّر سنان رايس ورفيقه عن السفر وقالا( ) [2] ونخاف إن سافرنا أن نبتلي بأعظم ممّا ابتلينا به. فقال لهم خيرالدّين: «اعزموا على السّفر وتوكّلوا على الله سبحانه وتعالى ولا تَرَيا إلاّ خيرًا »، فامتثلا إلى أمره وسافرا مع بعض أجفانه فاستولوا على مركب عظيم للكفّار ودخلوا به في اليوم السَّابع من سفرهم إلى الجزائر ؛ وكانت تلك الغنيمة لم يعهد مثلها ولا سمعوا بنظيرها في سالف الدّهر، عزموا أنهم اطلعوا على ثبت مذكور فيه تعشير[3] وصفها وهو المُعبّر عنه في زماننا بالقمرق[4]، فكان ذلك مائة عام ألف ذراع فما ظنُّك بالمتاع الذي يلزم في تعشير هذا العدد؟ وكان خيرالدّين، رحمه الله، لما استولى على الحِصن المجاوِر للجزائر وعلى الأجفان التي بقيت غنيمة جمع كلّ من قُطعت يدهُ أو رجْلهُ أو فَقئت عيْنِه أو أصيب بغير ذلك من الكُفار في جفن ومَنَّ عليهم وأرسلهم إلى بلادهم.

1. قد يظهر من مثل هذه التصرفات أن هناك قراصنة لا يخضعون لأوامر خيرالدين .
2. أربع كلمات غير مفهومة وتبدو كالآ تي :«إن تنجح خطة قد أقل» المخطوط، ص: 69 .
3. لا أدري ماذا يقصد بهذا الثّبت الذي وجد فيه تعشير ؟ هل هو لغز من عشرة رموز، أو شيء آخر ؟. المخطوط، ص: 70.
4. القمرق كلمة تركية كانت تعني دكان بيع الدخان بمختلف أصنافه .

فلمّا وصلوا ذهبوا إلى الطّاغية، لعنّه الله، وسلمّوا عليه وأخبروه بكيفية استيلاء خيرالدّين على الحِصن وعلى التّسعة أجفان الواصلة إليه كما تقدّم الخبر بذلك.

فلمّا سمع بتفصيل ذلك منهم قام اللّعين وقَعَدَ واستشاط غيضًا ونزل عن سريره وقال أرماني أهل الجزائر بسهام حيث وجهت لهم الأجفان هدية؟ وكشف رأسه وجعل ينتف شعره ويحثُّ التراب عليه، وأخذ خنجرا، أو أراد أن يقتل نفسه من ذلك ولم يزل وزراءه معه حتّى أجلسوه على السّرير مرّة أخرى[1] وقالوا: «أيّها الأمير لا تتأسّف على حِصن في البربارية[2]، وعلى الأجفان التي ذهبت فإنما هي لوْحٌ ومسمار عندك من القوّة ما تنشئُ كلّ يوم أضعافها، وأما الذين ماتوا من إخواننا فإنّهم ساروا إلى رضوان المسيح، وأمّا الذين استولوا عليهم هكذا وقع عليهم قدر المسيح، ولعلهم خالفوا أمره فحكم عليهم بذلك». فقال لهم اللّعين: «إنَّ ذلك الحِصن كان لي سُلَّما إلى فتح الجزائر وأخذها من المسلمين. فلمَّا استولوا عليه لم يبق لي طمع فيها، فهو قبلة أهل الجزائر». وقالوا له: «إن عزم الملك على أخذها يأخذها في أقرب مدة، وجعلوا يسلّونه بمثل هذا الكلام حتى سكن غيظه واستروحُوا منه روائح التآنس والانبساط » ؛ ثمّ إنّه شرع في تجهيز أجفانه فلمّا تمَّ تجهيزها أرسلها إلى ناحية إقليم الرّوم من بلاد السلطان الأعظم سليم خإن بن سليم خان[3]، وكان في ذلك الوقت حديث عهد بالسلطان[4] فقصدت إلى ناحية غرناؤوط من تلك البلاد وأضرّت

1. هذه تصورات صاحب المخطوط .
2. المقصود حصن «البنيون» بـ «Berberia» الجزائر .
3. يبدو أنّ المقصود هو السلطان سليمان، ويمكن أن يكون سهوا من ناسخ المخطوط .
4. يقول مؤلف كتاب تاريخ الدولة العلية :» ولم يكن السلطان متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلا عن إضافة شيء إليها ولولا وجود الوزير الطويل الباع محمد باشا صقلّي المدرب على الأعمال الحربية

ذلك واستصوب رأيهم ؛ وقد كان في أثناء هذه المُدّة عزم خيرالدّين على السّفر إلى حضرة السلطان الأعظم برسم ملاقاته والإتمار بما يأمر به من إقامته عنده أو إرساله إلى الجزائر مرّة أخرى وأخذ في تجهيز السّفر برسم ذلك.

إعداد الطّاغية إلى مولاي عبدالله صاحب تلمسان على خيرالدّين رحمه الله

وقد كان الطّاغية، لعنه الله، وجّه إلى سلطان تلمسان يعِده ويمّنيه، وأرسل مالا عظيما وأغراه بالانتقاد[1] على خيرالدّين والإجلاب[2] على الجزائر مع إجلاب أجفان الطّاغية بحرا، والتزم أنّه إذا اَستولى على الجزائر يردّها إلى إيالته كما كانت في عهد آبائه من قبل. وأنّ سلطان تلمسان في قلبه حزازة عظيمة من خروج إيالة الجزائر من يديه.

فحين ورد عليه كتاب الطّاغية بذلك ألقى سمْعه وأخذ بجوامع قلبه وانتفض على خيرالدّين وأخذ في الحركة إليه، فجعل يجمع عَرَبه وأهل عمالته وضرب أخبيته خارج تلمسان وتبرّأ من كل ما سلف له مع خيرالدّين.

وكان الطّاغية وجّه إليه أربعة عشر جفنا برسم إعانته فأرست بأرشكون[3] من سواحل تلمسان فأحسَّ خيرالدّين بالخبر فبعث أحد أجفانه ليأتي له بخبر أجفان العدوّ، وأجّل له عشرة أيّام ؛ ثمّ إنّ مولاي عبد الله تحرّك إلى الجزائر في جيوشه من العرب ورجاله من زناتة[4] فنزلوا على الحدّ

1. هكذا وردت العبارة في المخطوط وأعتقد أنّه يقصد «الانقضاض»
2. هكذا وردت العبارة في المخطوط واعتقد أنّه يقصد الهجوم على الجزائر أو الزّحف عليها.
3. لم أتمكن من تحديد هذا المرفأ .
4. زناتة اسم قبيلة بربرية تسكن شمال إفريقيا ذات قوة ومنعة وعصبية مشهورة.

الفاصل بين عمالته وعمالة خيرالدّين ؛ فكان هنالك عامل لخيرالدّين فوجّه إليه بخبر صاحب تلمسان فعند ذلك وجّه خيرالدّين إلى سائر عسكره المتوزّعين على قُرى الجزائر في القدوم عليه وأجلّ لهم ذلك إلى الثلاثاء، وخرج من الجزائر بعسكره المقيم فيها، وكان خروجه منها في اليوم الثاني من ورود الخبر عليه في وقت الزّوال، وفي اليوم الثاني من سفرِه قدِم الجفن الذي وجّهه للتجسّس على الأجفان المقيمين بمرسى أرشكون، فكتب إليه نائبه يُعلمه بقدوم الجفن، وأنّ رؤساء البحر عزموا على الخروج إلى هذه الأجفان وَمَنَعَهم ولم يأذن لهم بذلك، وبعد ثلاثة أيّام من سفره ورد عليه الكتاب فكتب (إليهم فيها هم عن)[1] طلب أجفان العدوّ ويأمرهم بترك أجفانهم على ما هي عليه.

وكان سِنان رايس خرج في مَدَدٍ إلى خيرالدّين يضمّ خمسمائة مقاتل من العسكر فاَجتمعوا معه وجدّ في السّير في طلب صاحب تلمسان إلى أن حصل بينهم اللّقاء في بعض تلك النّواحي الغربية فوقع بينهم قتال عظيم.

فلمّا علم العرب أنّهم لا طاقة لهم بقتال العسكر اِنهزموا كما جرت عادتهم في تلك المواطن وجدَّ العسكر السّيْر في آثارهم، فبعد جهد عظيم خلُص عبد الله إلى تلمسان فجدَّ خيرالدّين السّيْر في إثره حتّى نزل عليه بتلمسان فعند ذلك وجّه إليه مولاي عبد الله بمشايخ العرب وكُبراء أهل دولته يلتمِسُ منه الصُّلح كما جرت عليه عادته، وبعث معهم إلى خيرالدّين بثلاثين ألف دينار فلم يقبلها خيرالدّين وقال لهم: « إنّ هذا الرجل لا دِين له ولا إيمان فيُنغّص علينا المرّة بعد المرّة تارة بما تُسوّل له نفسه، وتارة

1. هكذا وردت الصياغة في المخطوط وأعتقد أنّه يقصد «فكتب إليهم بالكفّ عن طلب أجفان العدوّ».

بإغراء النّصارى فليس منّي له أمان أبدا» فرجعوا إلى صاحبهم بذلك وأعلموه بمقالة خيرالدّين، فعند ذلك خرج هو بنفسه وترامى بين يديه وجعل يتذرّع إليه في الإبقاء عليه.

وكان خيرالدّين رجلا صالحا حليما كريما[1] فقبل منه وعفا عنه ورجع خيرالدّين إلى الجزائر مؤيّدا منصورا. ووصل خبر هذه الواقعة إلى الطّاغية اللّعين فكتب إليه بذلك ؛ وفي أثناء ذلك جهّز اللّعين أندري دوريا بعمارة إلى ناحية الشّرق ومكث يترّقب. وكان صاحب أنكروس قد استنصر بالطّاغية اللّعين كما تقدّم، ولم يزل يلحّ عليه بذلك حتى أجابه وسافر هو بنفسه لنُصرته فقبل وصوله استولى السلطان سليمان[2] على أنكروس فرجع اللّعين إلى بلاده خائبا، ثمّ إنّ خيرالدّين جهّز أجفانه وأرسلها إلى ناحية بلاد النّصارى فأرسوا ببعض مراسيهم ؛ وقد كان سائر النّصارى ضجّوا إلى طاغيتهم من خيرالدّين وجماعة غزاته وقالوا له: «أيّها الملك أنت منشغلٌ عنّا في أكلِك وشربك وهذا الرّجل وأصحابه قد فعل ما فعل من القهر والغَلبة، ولم يبق لنا إلاّ الذّهاب إليه والدّخول في طاعته؟»[3] فانتفض اللّعين من قولهم وجهّز خمسة عشر جفنا برسم حراسة سواحل بلاده وإن ظفِروا بأجفان المسلمين دَلَفوا في قِتالهم ولا يرجعون عنهم إلاّ بعد الظّفر

1. دائما يكرّر صاحب هذا المخطوط مثل هذه الصفات التي يتحلّى بها خيرالدّين بربا روس.
2. السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني ولد هذا السلطان الذي بلغت الدولة العلية في مدّته أعلى درجات الكمال في غرّة شعبان سنة 900 هجرية الموافق 27 أفريل 1494 ميلادية وهو عاشر ملوك آل عثمان ولو عدّه بعض المؤرخين حادي عشرهم باعتبار سليمان الذي نازع أخاه محمد جلبي الملك سلطانا فذلك خطأ لأنّه لم يحكم بصفة قانونية ولذلك أجمع المؤرخون على تسمية السلطان سليمان بالأول واعتباره عاشر ملوك هذه الدّولة وهو الأصحّ ... واشتهر بالقانوني لما وضعه من النظامات الداخلية في كافة فروع الحكومة ... توفي هذا السلطان في 20 صفر سنة 974 هجرية الموافق 5 سبتمبر 1566 ميلادية. أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 79 – 109.
3. في هذا الكلام دلالة على مدى السطوة التي كان يتمتّع بها خيرالدّين في البحر المتوسط، والحقّ ما شهدت به الأعداء كما يقال.

بهم أوإهلاك أنفسهم، ثم إنّهم بقدر الله ساقهم الرّيح إلى المرسى التي بها أجفان خيرالدّين وكان طلوعهم عليهم عند اسفِرار الصّباح ؛ وقد كانت أجفان خيرالدّين مستعِدّة للقائهم فكادهم بمكيدة وهي: أنّهم خرجوا من تلك المرسى موهمين بطمع في أجفان العدوّ وتبعوهم. فلما بعُدوا في آثارهم انعطفت عليهم أجفان المسلمين واستولوا عليهم بتأييد الله تبارك وتعالى ورجعوا إلى الجزائر بهذه الغنيمة العظمى، فسمع بذلك الطاغية لعنَهُ الله فمات بعد ثلاثة أيّام من وصول الخبر إليه أسفا وجزعًا وولّوا آخر مكانه فجمع الرّهبان والقسّيسين وقال لهم: «إن الأندلسيين الذين في بلادنا يظهرون دينهم ويشهرون شريعتهم فهل يجوز ذلك في ديانتنا أم لا؟[1] وإذا كان لا يجوز فكيف العمل معهم؟» فأجمع الرُّهبان والقسّيسون على عدم جوازها، وقالوا له: «أيّها الملك لأجل إشهار دينهم وإشهار ملّتهم في بلادِنا غضِب علينا المسيح ونخاف على أبنائنا ونسائنا أن يستملوهم ويدخِلوهم في دينهم فإنّهم أعداؤنا ومنْ قاربهم عِندنا، ولا تجتمع ملّتان في أرض واحدة[2] ولا يتأتّى لنا النّصرُ على عدُوّنا ما بقِيَ هؤلاء القوم عندنا؟» فعند ذلك رسم الطّاغية بأن يحمل أبناء المسلمين وبَنَاتهم إلى الكنائس لقراءة الإنجيل والدخول في دين النصرانية، وأشاع النِّداء بأنّ من أظهر آذانا أو تلاوة أو ذكرا أحرق بالنّار[3]. فأجتمع المسلمون من أهل الأندلس ودخلتهم حميّة الإسلام فأخذوا سلاحهم وحملوا نساءهم وأبناءهم إلى

1. جرت العادة أنّ المورسكيين الذين بقوا تحت الحكم المسيحي الإسباني يظهرون اعتناقهم للدين المسيحي ويخفون عقيدتهم الاسلامية خوفا من جواسيس محاكم التفتيش التي نصّبها الملك الكاثوليكي فرديناند وأطلق عليها تسمية La Santa Inquisicion.

2. وهو موقف ينمّ عن التعصّب وعدم التسامح.

3. وقد أشرف على تنفيذ هذه التعليمات الجائرة كما نعرف جهاز محاكم التفتيش الذي يسمى في زمانه La Santa Inquisicion، فالغريب في الأمر أنّ هذا الجهاز الإجرامي الذي مهمّته التطهير العرقي والثقافي يحمل سمة القداسة عندهم.

جبل تلك البلاد يقال له بارد[1] وتحصّنُوا به من الكُفَّار فتحرك إليهم النَّصارى بقضّهم وقتلوهم فاستولوا عليهم آخر الحال وردُّوهم إلى المكان الذي كانوا فيه، فكتب أهل الأندلس إلى خيرالدّين[2] يُعلِمونه بما تمَّ من النّصارى من هذه المِحن ويتضرّعون لإنقاذهم ممّا هم فيه. فوصل إليه كتابهم في الاستغاثة بالمسلمين ودخلته حميّة الإسلام والغيرة على الدّين المحمّدي فعند ذلك جهّز إليهم ستّة وثلاثين جفنا ؛ فلمّا رآهم الأندلسيُّون خرجوا إلى ذلك الجبل المتقدّم فتحرّك في طلبهم النّصارى. فلمّا وصلوا إلى الجبل رجع إليهم أهل الأجفان من المسلمين وأتوهم من ورائهم ووقع بينهم قِتال عظيم، فنصر الله المسلمين عليهم، فأخذ الكُفّار في الفرار وتبعهم المسلمون في إثرهم حتى أُبعدُوا عن مكانهم ؛ ثمّ إنّهم رجعوا، ولمّا رأى أهل الجبل من أهل الأندلس ما منح الله عسكر المسلمين من النّصر نزلوا إليهم من الجبل وسلّموا عليهم واستبشروا بقدومهم، وذهبوا بهم إلى مدينتهم فحملوا نساءهم وأبناءهم وما قدروا عليه من أموالهم وأثاثهم فأتوا به إلى الأجفان وأوسقوها بذلك، وركب فيها عدد كبير منهم ورجعوا إلى الجزائر بعدما خلّفوا ألف مُقاتل من العسكر يحرسون جماعة المسلمين الباقين في الأندلس خوفا عليهم من غائلة النّصارى لعنهم الله. فلمّا وصلت الأجفان إلى الجزائر تركوا ما حملوا من الأندلسيين بها ورجعوا إلى ذلك الجبل لحمل بقية المسلمين، فتكرّر ذلك منهم سبع مرّات

1. أعتقد أنّ صاحب المخطوط أخطأ في تسمية الجبل لأنّ المصادر التي اعتنت بثورات المورسكيين تحدّثنا عن ثوراتهم التي كانت شرارتها الأولى من جبال «البشارات» شمال شرق غرناطة والتي تعرف تسميتها بالإسبانية Las Alpujarras، وتوالت ثورات المورسكيين من 1500 و1568 و1570 وما بعدها ...أنظر د. عبد الله حمادي: المرسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس .. ص: 130- 131.

2. إلى حدّ الآن لم نعثر على هذه المراسلات التي كانت بين المورسكيين وخير الدّين من أجل نجدتهم.

فكان جملة ما حملوه سبعين ألفا[1]، وبقيت عادة أجفان الجزائر أنّهم في كلّ سفرة يُسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل بلاد الأندلس ويعودون بجماعة المسلمين منها.

سبب سفر خيرالدّين إلى السلطان سليمان خان ؟

ذكر سفر خيرالدّين إلى حضرة السلطان سليمان خان ؛ كان السلطان سليمان رحمهُ الله[2] لمّا استولى على أنكروس فرَّ صاحبها منه فغرق في بعض المروج يُقال له مرج الفضّة فأوتي به إلى السلطان فأمر بحمله إلى مقبرة آبائه ببلغراد، ورجع السلطان بعد ذلك إلى حضرة "اسطنبول» فعزم على السّفر بسائر عسكره إلى إقليم إسبانيا للاستيلاء عليه، وظهر للسلطان سليمان خان أنّه لابُدّ له من رجل يعتمد عليه في تلك البلاد ويكون عارفا بأحوالها فوقع اختياره على خيرالدّين لمّا يعرف من شجاعته وإقدامه وكثرة غزواته وما فتحه من بلاد العرب بنفسه، وكيف أقرّ دعوة بني عثمان في المغرب ؟ فوجّه إليه كتابًا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره بإسناد الأمر لمَنْ يظهر له بالجزائر من بعده، وإن لم يجِد له ذلك بعث إليه السلطان من عنده نائبا، ورسم له في ذلك الكتاب أن لا يترك الجزائر من غير

1. هذا المخطوط يقدّم لنا العدد الأوّل من المرحّلين من الأندلس أيّام خيرالدّين إلى الجزائر وهم الذين استوطنوا مدينة الجزائر ومن أشهر أحيائهم حي «ثاغارا» Taghara وتعني هذه العبارة «الثغريين» وهم الأندلسيون الذين كانوا يسكنون الثغور المحاذية للأعداء الإسبان أو المتاخمة لهم حتّى أنّ كثيرا من الندلسيين أصبوا يكنون بالثغريين.

2. – يذكر هنا صاحب المخطوط السلطان سليمان ويقول رحمه الله وهو ما يدلّ على أنّ تاريخ ترجمة هذا المخطوط أو كانت كتابته بعد تاريخ وفاة السلطان المذكور أي بعد 1566 وهو ما يتناسب وما سبق ذكره من كون ترجمة الكتاب كان أيام مولاي حسن بن خيرالدّين، وبعد وفاة خيرالدّين عام 1546، وكذلك بعد وفاة السلطان العثماني عام 1566 كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

نائب وأرسل الكتاب مع رجل من خُدّامه يُقال له سِنان جاوش، فوصل إلى الجزائر وحضر بدار الإمارة ووصل كتاب السلطان إلى خيرالدّين فقبّله ووضعه فوق رأسه ؛ ولمّا قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانا عظيما وأحضر كافّة العلماء والمشايخ وأعيان أهل البلاد وقرأ عليهم كتاب السلطان الذي وُجّه إليه وأعلمهم أنّه لا يمكن التخلّف عن أمره، وأنّه أخذ في السفر إليه وعيّن لهم رجلا يقيمه نائبا عنه إلى حين رُجوعه من خدمة السلطان، وقال لهم: «إنّي قد أوصيْته عليكم وأمرته بالعدل فيكم فاَستوصوا أنتم به خيرا »[1].

ولمّا سمع اللّعين أندري دوريا بما عزم السلطان عليه من فتح إقليم إسبانيا واستقدام خيرالدّين من الجزائر لذلك أراد أن يشغل خيرالدّين عن سفره إلى حضرة السلطان فاَحتال لذلك بحيلة وهي أنّه جهّز جفنا إلى الجزائر فيه متاع ما قدره ستّة آلاف دينار وأودع فيها سبعين أسيرا من المسلمين برسم الفِداء وبعثه إلى الجزائر برسم التّجارة والمُفاداة[2]، وأمر النّصارى من أهل الأجفان أن يُشيعوا في الجزائر أن سلطان إسبانيا أخذ في الحركة إليها عازم على غزوها بنفسه. فلمّا وصلوا إلى الجزائر اشترى منهم خيرالدّين تلك السِّلع وأعطاهم فِدية المسلمين الذين قدِمُوا بهم، وأشاع النّصارى بالجزائر تلك المقالة التي أمرهم بها أنْدري فسمِعها خيرالدّين فَعلِمَ أنّها مكيدة، ولكنه أمر بتحصين الجزائر ونصب المدافع على حُصونها فرجع رايس الجفن إلى أندري وأخبره بما شهد من حزم خيرالدّين وتحصينه البلاد واستعدادِه للحرب وأخذ أهبته.

1. كان هذا الحدث التاريخي الهام في حياة المجاهد خيرالدّين سنة 1533 والذي سيجعل منه أمير الأسطول العثماني .

2. المفاداة هي El Rescate .

وفي أثناء هذه المُدّة كانت بعض أجفان خير الدّين مُسافرة فغنِمَوا أربعة أجفان صِغار للنّصارى كان فيهم عشرون رايسا من رؤسائهم، وكان فيهم مائة وأربعون من كُبرائهم الذين يجعلون المناديل في أعناقهم[1] لم ترهم الشمس قطّ لتِهمُّمِهم وتَرَفِهِم وفيهم فتًى من ملوك رودس[2]، فرجعوا بهم إلى الجزائر فحزِن النّصارى لذلك حزنا شديدا وأقاموا في الكنائس ثمانية أيام ينوحون على رؤسائهم، ثمّ اَتّفق رأيهم على فِدائهم من يد المسلمين وبعثوا إلى خير الدّين بذلك وبذلوا لهم في الفتى الذي هو من أبناء مُلوك رودس[3] وزنه مالاً فاَمتنع خير الدّين من فدائه وسدّ أذانه عن سماع ذلك وقال لمن حضر من أعيان البلاد إنّ هؤلاء الكلابِ لا ينسون ثأرهم فإذا وصلوا إلى بلادهم عمّروا الأجفان في طَلبِنا فاَستصوبوا رأيه وقالوا لمن قدِم إليهم من النّصارى برسم الفِداء: «أميرنا لا يقبل فيهم فداء ونحن على مثل رأيه ؟» فرجعوا إلى بلادهم خائبين، فتضاعف حزن النّصارى لذلك وشدّدوا على أسارى المسلمين الذين في أيديهم وضاعفوا عليهم العذاب، وراجع خير الدّين رأيه في السّفر إلى إقليم الرّوم وقال: «إنْ

1. هذه صفات تدلّ على أنّهم من النّبلاء .

2. روظس أو رودس هي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط يشكل موقعها حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر. يشتق اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ومعناها الورد، فتحها السلطان سليمان الأول الغازي سنة 1522 ولم تزل تابعة للدولة العثمانية، وكان بها تمثال عظيم الجثة يقال إنّ ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين مترا هدمته الزلازل في القرن الثالث قبل المسيح .

3. يكذّب شوفالييه هذه الرواية ويقول: «...إنّ ابن قائد السفن الإسبانية (الذي قالت عنه غزوات خير الدين خطأ بأنّه ابن أحد قضاة جزيرة رودس) هو جون دوبور تونتو الذي كان قد أسره خير الدين أثناء معركة حيث أسر معه في نفس الوقت أربعة سفن حربية، قد نظم مؤامرة هو ومرافقوه في النكبة هدفها استعادة سيادة المدينة أو إنقاذ أنفسهم بالسلاح واكتشف خير الدين خطتهم بواسطة إنذار أو وشاية رآها في حلم وهو نائم وقد حصل على أدلة عن هذه المؤامرة بواسطة اللجوء إلى الحيلة والمخادعة وفي ديسمبر 1531 أذهل الجناة المذنبين وقطع رؤوس عشرين من بين هؤلاء المسيحيين الذين ظهروا له بأنهم الأكثر ذنبا وأرسل الآخرين إلى السجن المخصّص للأسرى. ص: 61 .

ذهبت وتركت الأسارى من النّصارى بالجزائر أخشى على الجزائر من غائلتهم، وإن سافرت بهم معي أخاف من أمور البحر فربّما تخلصوا إلى بلادهم وضاعفوا على أسرى المسلمين ما هم فيه من العذاب والمِحن».

وكان خير الدّين سمع بما فعله النّصارى من التضييق على أسرى المسلمين فزاد هو في التضييق على أسرى النّصارى الذين عنده، فسمع بذلك الرّوم فنفّسوا على أسرى المسلمين، فنفَّس هو على أسراهم أيضا.

وكان عدد الأسارى بالجزائر سبعة آلاف أسيرا، ولمّا يئسوا من الفِداء والتخلُّص من يد خير الدّين اتّفق رأيهم على الثورة بالجزائر فإمّا ظفروا بها وإلاَّ هربوا ؛ وكان خير الدّين قد وكَّل عليهم أحد ثِقاته من أهل بلاده مدللّي.

وكان النّصارى قد عزموا على قتله حين أرادوا الثورة، فرأى خير الدّين في علم النّوم كأنَّ دار هذا الموكّل في مدينة مدللّي أرادت أن تسقُط منها أسطُوانة فأقامها خير الدّين بيده فتأوّل هذه الرؤيا أنّ حادثا بهذا الموكّل يُخلّصه منه خير الدّين. فلمّا كان صباح هذه الرؤيا أرسل إلى الموكّل فلمّا حضر بين يديه أعلمه بما رآه وبما تأوّله، وأمره خير الدّين أن يشكو إلى النّصارى منه لعدم الإحسان إليه ويكثر من شكواه في ذلك ليطّلِع على ما في ضمائرهم من الوقوع في خير الدّين وإفشاء بعض أسرارهم في ذلك، وهذا من شدّة حذره رحمهُ الله، فذهب الموكّل من عنده وهو كأنّه مغضب فلقيَ بعض من كان يخدم النّصارى منهم ويدخل ويخرج إليهم وجعل يشتمّ خير الدّين بحضرته ويقول: «كم لي في خِدمة هذا الرّجل ولم أر منه خيرا قطُّ وهو مع ذلك يُمنّيني دائما ويتوعّدني بلا سبب فرط منّي إليه ؟» ؛ وجعل يردّد مثل هذا الكلام، فجعل بعض كُبراء النّصارى المحبوسين يقول لجماعته اسمعوا ما يتكلّم هذا الرّجل، ودخل الموكّل إليهم بعد ذلك يذمّم ويوقع في خير الدّين

بالكلام القبيح ويقول في جُملة كلامه: «كم لي في خدمته ونُصحه وما كفأني على ذلك سوى أن جعلني في هذا المقام ؟، وكنت أظنُّ أنّه يقدّمني على بعض النّواحي من عمالته أكون عليها أمينا من قِبله وما أراه صنع الإحسان إلاّ مع الأجانب، وأمّا الأقارب مثلي فلم يرْوا خيرا، وكلَّ ما أرفعه عليكم وأسعفه لجانبكم وأردُّ عزمه على التّضييق عليكم يزداد عليّ غضبا ويسمعني من الكلام على ذلك القبيح ما لا أقدر على التعبير عليه ؟»، ومن جُملة المكايد التي نصبها هذا الموكّل أنّه ردَّ وجهه إلى الفتى الذي هو من أبناء ملوك رودس وقال له بِلسان الرّوم: «أي شنيور[1] مثلي يكون حاكما عليكم وكلّ واحد منكم كان حاكما على مدينة خُصوصا أنت فإنّ أباك كان ملك رودس، وأنا من مدينة مدلّى الغربية وفيها قد صنع أبوك معي خيرا كثيرا لا أقدر على مكافأته وأن لا أقدر أن أرفع طرفي أمامكم حياءً منكم ولو قدرت على الفِرار من هذه المدينة لفررتُ منها، وأنا أترقّب وقتا لذلك، ولم يزل يردّدُ إليهم هذا الكلام وأمثاله حتّى أطمأنّوا وركنُوا إليه، فعند ذلك قالوا: إنّا قد دبّرنا أمرًا يكون فيه خلاصنا إن شاء الله من يدِ هذا الرّجل، فإن أنت ساعدتنا عليه وبذلت مجهودك معنا فيه ترى ما نُقابلك عليه من الجميل وحسن المكافآت». فقال لهم: «أيُّها الرّؤساء وأبناء الرّؤساء أيّ شيء اتّفقتم عليه ودبّرتُموه لخلاصكم فإنّ يدي ويدكم في ذلك يدا واحدة واستروا ما أفعل من الاجتهاد في خلاصكم فدبّروا لأنفسكم واحتالوا بأيّ حيلة ترونها ؟» فأروهُ كتابا كتبُوه إلى الوالي ببجاية، وكانت تلك بيد النّصارى كما تقدّم ذكره في حِصار عرّوج وخيرالدّين إيّاها، ولم تزل في يد النّصارى الجِنويز[2]

1. – نعم يا Senor باللغة الإسبانية ،أي يا سيد .

2. أي الجنويون نسبة إلى جنوة وبالتّالي لم تكن بجاية تحت السيطرة الإسبانية .

حتّى فتحها المرحوم صالح باشا[1] كما سيأتي ذكره في أخباره إنشاء الله تعالى، ومُضمّن هذا الكتاب الذي كتبه النّصارى التأكيد على والي بجاية أن يرسل إليهم بعض الأجفان إلى تمنفوست وأعلموه في ذلك الكتاب أنّهم عزموا على القيام في الجزائر بثورة مع أهلها فإذا تمّ لهم ذلك فرّوا إلى ناحية تمنفوست وركبوا البحر إلى بجاية وأكدّوا عليه في ذلك وشكوْا إليه ما هم فيه من الضّيق وأنواع العذاب، وطلبوا منه أن يردّ لهم الجواب ويعيّن اليوم الذي يقدم فيه جفنه إلى ذلك المحلّ المذكور ؛ ثمّ إنّهم قالوا لهذا الموكّل كم لهذا الكتاب من يوم حين كتبناه، ولم نجد مع منْ نُوجّهه ؛ لأنّنا في هذا المحلّ، كما تعلم، من الحبس والتّضييق حتّى مَنَّ المسيح بك علينا وقد كُنّا عزمنا على قتلك ؟" فعند ذلك عِلمَ هذا الموكّل أنّ هذه كرامة صدرت من خيرالدّين لأجل الرّؤيا المتقدِّمة التي رآها. فقال لهم: «إذًا سأطلب من خيرالدّين أن يجعلني وَاليا على بعض النّواحي الغربية من بجاية فإذا وصلت إليها بعثت الكتاب إلى واليها» ؛ فعند ذلك بعث إليه الكتاب فأوصله إلى خيرالدّين وقبّل يديه وقال: «يا مولانا الآن تحققتُ من وِلايتك»[2] وأراه الكتاب الذي معه. فلمّا قرأه خيرالدّين وعلِم ما فيه قال له: « سِرْ به أنت إلى بجاية ومكّنه من يد واليها». فلمّا وصل إلى بجاية ورآه أهلها من النّصارى قالوا: «هذا تركيّ وصل إلينا» فذهبوا به إلى الوالي فدفع إليه الكتاب، فلمّا قرأه، قال: نعم أبعث إليهم ما طلبوه ولكن أخاف أن يفطن به بربروس ؟ ؛ وجعل هذا الرّجل يرى سِكَكَ بجاية وأسارى المسلمين الذين

1. هنا يتأكد أنّ المخطوط الذي معنا تنقصه تكملة وهي التي أشار إليها المترجم في آخر هذا المخطوط والتي وعد فيها بذكر مؤلف المخطوط الحقيقي والتعريف به وكذلك الاعتراف الضمني بأنه ليس مؤلف هذا المخطوط.

2. يقصد كراماته كوليّ من أولياء الله الصّالحين.

هنالك يسبّونه ويبصقون على وجهه لمّا عَلِموا أنّه أتى رسولا من النّصارى الذين في الجزائر، ويقولون لبعضهم بعضا كم أحسن إليه خيرالدّين، وكم نعمة أسناها إِليه ومع ذلك غدره وصار عينا للنّصارى وجاسوسا لهم يوصل كتابهم إلى عدوِّهِ يحمله منه إِليهم؟ وهم مع ذلك لا يعرفون حقيقة الأمر، ولا المكيدة التي كادهم بها خيرالدّين. وأقام ببجاية إلى أن كتبوا إليه كتابا إلى النّصارى بالجزائر يُعيِّن لهم فيه اليوم الذي يرسلون إليهم الجفْن إلى المحلّ المعهود بينهم، ورجع هذا الرّجل بالكتاب. فلمّا كان بقرب الجزائر وجّه إِليه خيرالدّين بعض خدّامه فأوثقوه ومعه الكتاب ودخلوا به إلى خيرالدّين على هذه الحال. فقال له: «يا خائن يا غدّار تكون من جُملة خُدّامي وخواص حاشيتي ومع ذلك أنت جاسوسا لهم تحمل كتابهم إلى أهل بجاية وتأتي به إِليهم؟» ثمَّ إنّه أمر بتفتيشه فوجد معه الكتاب الذي وجّهه والي بجاية إلى نَصارى الجزائر فأخذه منه وأمر بحبسه مع النّصارى في المحلِّ الذي كانوا فيه، فحين اجتمع بهم قال لهم: «أنظروا ما حلَّ بي من أجلكم، ذهبتُ أنا بنفسي إلى بجاية وأوصلت الكتاب إلى واليها ورجعت بالجواب منه إليكم ففطن بربروس ففعل بي ما ترون؟» وما هو إِلاّ شيطان من شياطين التّرك والله يخلّصنا جميعا من هذه المحنة فصاروا ( ) [1] لحالهم ويعضُّون أيديهم من النّدامة على توجيه الكتاب. ولمّا قرُب وقت مجيء الجفْن من بجاية بعث خيرالدّين أحد أجفانه ليرصدونه هنالك، وجعل فيه جماعة من المُقاتلة الذين كان يستعملهم في المهمّات، فأقاموا في ذلك الجفن يرصدون الجفن البِجائي ؛ وكان والي بجاية جهّز جفنا وجعل فيه مائة وعشرين رجلا من رِجال البحر، فحين وصل إلى جِوار تمنفوست

1. كلمة غير مفهومة وقد تعني يرثون، المخطوط، ص:79.

رأى جفن خيرالدّين هنالك فعلم أنّه جفن التُّرك، فعزم على الفِرار منه فلم يمكّنه ذلك وأدركه الجفن واستولى عليه فدخل به إلى الجزائر فاَستبشر بذلك خيرالدّين وحصل لأهل الجزائر بذلك سرورا عظيما، وعند ذلك أحضر خيرالدّين النصارى المأسورين في الجفن ورؤساء النّصارى الأسرى عنده وأراهم الكتاب الذي وجّهه والي بجاية إليهم فبهتوا وأخرصوا عن الجواب، وقال لهم: « قد عوّضني الله منكم بمائة وعشرين من أبناء ملّتكم وأمر بضرب رقاب العشرين، وأمر بحمل النّصارى من أهل بجاية إلى الحبس المُعدّ لهم».

ذهاب خيرالدّين باشا [1] إلى إسطنبول الحضرة السلطانية نصره الله

ولمّا تمّ لخيرالدّين ما تمّ من هذا الغرض وآمن على الجزائر من العدوّ ركب البحر متوجّها إلى حضرة السلطان سليمان كما رسم له في الكتاب الذي وجّهه إليه مع سنان جاوش، بعدما جعل على الجزائر نائبا ينوب عنه في غيبته، وأوصاه بأهل الجزائر خيرا ؛ وكان سفر خيرالدّين في أربع وأربعين جفْنًا، فكان لا يبقى جفنا من أجفان العدوّ إلاّ واستولى عليه حتى حصل على غنائم كثيرة، وذهب إلى سواحل جِنوة فعاث فيها وتركها خاوية

1. - يعلّق صاحبا كتاب: Histoire de Barberousse على اللقب التشريفي الذي ألحقه صاحب المخطوط بخيرالدّين وهو «باشا» قائلين:

..ici le traducteur porte dans une note la nomination de Khair-ed-din à la dignité de Pacha à l'année 1521, c'est un erreur; Khair –ed-din fut nommé Pacha en 1534 et immédiatement il eut l'ordre d'aller ravager l'Italie; , Gène, et d'attaquer Tunis: vol: 1, p: 309.

لأنّ خيرالدّين نال لقب باشا عام 1534 ولعل هذا ما يتناسب مع الأحداث الوارد ذكرها بعد هذا العنوان والتي يمكن أن تكون حدثت بعد هذا التّاريخ .

على عروشها، واستولى في نواحي صقلية[1] على ثمانية عشر جفنا للكُفّار فحمل الأسرى في أجفانه وأمر بإحراق تلك الأجفان التي استولى عليها، وسأل النّصارى المأسورين عن اللّعين أندري دوريا أين توجّه؟ فأخبروه أنّه في نواحي مُوره في أربع وعشرين غلياطة[2] وستة وعشرين مركبا كِبارا. ثمّ إنّ خيرالدّين أقلع عن نواحي صقليّة وسافر إلى ناحية بروازن برسم لقاء أندري فلمّا أرسى ببروازن استبشر به أهلها لأنّهم كانوا خائفين من هجوم أندري دوريا عليهم ؛ وكان اللّعين قد سمِع بأنّ خيرالدّين في طلبه بأربعين مركبا. فابتعد عن خيرالدّين خوفا منه، وقد كانت عمارة أندري قد تبادلت التجارة بين أهل بروازن منذ ستّة أيام، وعندما علم خيرالدّين بفرار أندري أرسل خمسة وعشرين جفنا إلى الجزائر وسافر إلى حضرة السلطان في تسعة عشر جفنا ؛ وكانت الأجفان التي سافرت إلى الجزائر صادفت سبعة أجفان للعدوّ من أهل نابل فاستولوا على اثنين منهم وفرّ الباقون فدخلوا إلى الجزائر واستمرّ خيرالدّين مُسافرا إلى أن دخل وارين فصادف هنالك عمارة السلطان سليمان فصنعوا بروزا عظيما من رمي المدافع كما هي عادة أهل البحر في ذلك فَرَحا بالقادمين عليهم، وخرجوا جميعا حتى وصلوا فارون ومن ثمّ كتب خيرالدّين كتابا إلى السلطان يُعلمه بوصوله ويستأذنه في القدوم على حضرته، فوجّه إليه السّلطان كتابا يستحِثُّه في القدوم عليه، فعند ذلك سافر خيرالدّين من فارون، ولم يزل مسافرا حتى وصل إلى إسطنبول حضرة السلطان سليمان[3] وأرسى بها

1. هي أكبر جزائر البحر المتوسط وواقعة في طرف إيطاليا وعاصمتها مدينة بالرمو واحتلّها العرب عدّة قرون في أيام دولة بني الأغلب والفاطميين بتونس ثمّ استقلّت وهي الآن تابعة لإيطاليا .

2. نوع من الزّوارق البحرية التي يقال لها: Galera .

3. يقول صاحب كتاب تاريخ الدولة العليّة: «... وفي أوائل سنة 1533 استدعاه السلطان سليمان إلى الأستانة ليتفق معه على ما يلزم اتخاذه من الاحتياطات لصد هجمات الأميرال أندري دوريا الجنوي أجير شارلكان

في جملة أجفانه الذين قدموا معه وأطلقوا المدافع كما هي العادة في ذلك، ومَثَلَ خيرالدّين بين يدي حضرة السلطان وقبّل الأرض واقفا بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواصّ أصحابه وعيّن لهم الجرايات الوافرة وأنزله بقصر من قصور الملك، وفوّض إليه النّظر في دار الصّناعة[1] وكان الوزير الأعظم إذّاك في مدينة حلب فسمع بقدوم خيرالدّين على حضرة السُّلطان، وقد كانت أخبار غزواته وفتكاته بالكفّار تصِل إليه كلّ حين، فاشتاق إلى لقائه، فوجّه بكتاب إلى السلطان يَلتمِس منه أن يُوجّه إليه خيرالدّين ليتبرّك برؤيته[2]، فأرسل السلطان قائلا إلى خيرالدّين: "إنّ خادمنا بحلب طلب منّا الاجتماع بك هنالك فهل لك اعتراض على ذلك أم لا؟" فأجابه خيرالدّين: "حيث ما يأمرني السلطان بالتوجّه إلى أيّ عبد من عبيد حضرته يكون ذلك" ؛ ثمّ إنّ السلطان جهّزه بجميع ما يحتاج إليه من خيل وسلاح ورجال يقومون بخدمته وسافر متوجّها إلى حلب بعدما ركب البحر مدانيّة ومنها سافر في البرّ.

فلمّا قرُب إلى ناحية حلب وجّه رسولا كان معه من قِبَل السلطان إلى الوزير يعلمه بوصول خيرالدّين، فاَهتزّ الوزير للقائه، وخرج الديوان إليه

فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية بعد سفر الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمحاربة العجم بقليل فقابله الملك وأحسن وفادته وأمر بالاستعداد وإنشاء المراكب الكافية لفتح إقليم تونس فاشتغل خيرالدين باشا طول الشتاء بإنشاء المراكب». ص: 96

1. دار الصناعة في اللغة العربية كانت تعني بالتحديد المكان الذي تصنع فيه السفن وقد دخل هذا المصطلح إلى كافة اللغات الأوروبية تقريبا فصارت Terrazana أو Arsenal وغيرها في اللغات الأوروبية .

2. يقول شوفالييه: «... وطلب الوزير الكبير إبراهيم باشا الذي اتخذ من حلب مقرا له من السلطان أمن يبعث له خيرالدين حتى يمنحه منصب بيلارباي وأن يزوده بالتعليمات والتوجيهات اللازمة للنجاح في الحملة القادمة ورجع القرصان الذي لا يكل ولا يتعب راكبا حصانه ومتبوعا إلى حارة إبراهيم الذي استقبله باحتفال بهيج وقلده لقب بيلارباي الجزائر وبهذا اللقب يحق له أن يتصدر المجلس الذي يضم كل البلارباي الآخرين ووصل إلى هذه المدينة كتاب من السلطان يقضي بإعطاء قفطان وثلاثة ذيول لخيرالدين ويأمر رئيس الوزراء بتعيين باي في منصب الباشا. أنظر تفاصيل أكثر، ص: 84، 85 .

ومعه الرّايات والطّبول، ودخل إلى حلب في بروز عظيم وأنزلوه في بعض القصور المهيبة ؛ ولمّا كان صباح تلك اللّيلة التي دخل فيها إلى حلب بعث إليه الوزير أهل الدِّيوان فطلعوا به إلى قلعة حلب فحين شهد الوزير سلّم عليه وتصافحا وأمره بالجلوس ثمّ أوتي بالطّعام فأكلوا، وحين فرغ من الطعام نصب الدّيوان، وحين وقفوا لقراءة الأمر الذي وَرَدَ عليه من السلطان أوقف خيرالدّين على يمينه، وحين فرغوا من الديوان رجع خيرالدّين إلى محلّ نزوله، وفي اليوم الثاني من وُصول خيرالدّين إلى حلب ورد قاصد من قِبل السُّلطان ومعه خلعة وأمرٌ مُقتضاه أنّ خيرالدّين وزير من وزراء السلطان ويلبس الخلعة لأجل ذلك[1]، فانتصب الدّيوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة وركب على فرس عظيم بسرج مرصّع بأنواع الياقوت، ورِكابٌ من الذّهب الخالص، ولِجام مثله وألبس المجوزرة[2] وسار الدّيوان أمامه إلى القصر المُعدّ لِنُزُوله. ولمّا كان اليوم الثالث طلع خيرالدّين إلى القلعة وجلس بحذاء الوزير الأعظم في الرّجوع إلى إسطمبول فأذن له في ذلك وجهّزه بجميع ما يحتاج إليه من آلات السفر وخرج من حَلب خروج الملك فدخل إلى مدينة قونية[3] وزار بها قبر الملاّ خنكار[4] وزار بها وليا آخر يُقال أمير السلطان وختم عند قبره كلام الله، ثمَّ إنّه سافر إلى مدينة برصه[5] ومنها توجّه إلى مدانية ومنها إلى اسطنبول ونزل بقصره المعروف به. ولمّا عِلم السُّلطان بقدومه أُحضر بين يديه فقبّل الأرض ووقف مع الوزراء ؛

1. هذا الأمر السلطاني أعلى من شان خيرالدّين إلى رتبة وزير .أنظر شوفالييه ص، 84، 85 .

2. - المجوزرة هي: El-Mudjéwzéré est le bonnet de cérémonie des Pachas et des grands dignitaires; il se distingue des autres en ce qu'il est baut, cylindrique et recouvert d'une mousline blanche. Histoire de Barberousse, vol: 1, p: 309. فهي قلنسوة فخمة للتّميز والمكانة .

3. مدينة قونية Konich, ville de la Caramanie, dans le milieu des terres .

4. مزار قبر Mollakhum-Kiar .

5. Brousse, ville de l'Anatolie proche de la mer de Marmora .

ثمّ إنّ السُّلطان أشار إليه وإلى نائب الوزير الأعظم أن يتقدّما إليه فقبّل خيرالدّين يده ومسح السُّلطان على رأسه وجعل في عمامتِهِ سرهوجا[1] من الذّهب تنويها بشأنه، وخرج من عند السلطان إلى القصر الذي أعدّ له، واشتغل بالنّظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان حتى كُملت من الأجفان أربع وثمانون جفنا. فأمر السّلطان بالسّفر، فسافر في جملة تلك الأجفان إلى أرض بها قلعة من قِلاع الرُّوم يقال لها أرتبلة[2] وشرع في قتالها والتّضييق على أهلها فلم يكن للرّوم بدفعهم طاقة ففرّوا من قلعتهم واستولى الغُزاة على جميع ما فيها من مخلفات الرّوم[3]. ثمّ إنّ خيرالدّين أقلع عن الجزيرة وانتهى به السّفر إلى جون هنالك، وكان وصوله إليه وقت الزّوال فأرسى به وأقام بقيّة يومه بذلك الجون[4] فلمّا كان الصّباح من ذلك راح مسافرا حتّى انتهى به السّفر إلى قلعة من قِلاع الرُّوم فشرع في قتالها برًّا وبحرًا فاستولى الغزاة على أطرافها ولجأ الرُّوم إلى داخلها واشتدّ القِتال بينهم وبين المسلمين واستشهد جماعة من الغُزاة كتب الله لهم الشّهادة، وجدّ المسلمون في قتالهم. فلمّا كان وقت العصر يسّر الله لهم فتحها فدخلوها بسيوفهم عُنوة واستولوا على جميع ما فيها من الرّوم؛ وكان عدد ما فيها من الرّوم سبعة آلاف وثمانمائة فأمر خيرالدّين بحرق القلعة.

ولمّا كان صباح تلك الليلة أقلع عن ذلك الموضع مسافرا إلى ناحية الجنويز[5] فوصل إلى بعض سواحلها فوجد بعض القلاع، وبمرسى تلك

1. سرهوج نوع من النياشين يعلق على العمامة على شكل ريشة .

2. هي في حوزة اليونان وتسمى: Estila .

3. المقصود بالرّوم هنا الإغريق .

4. يقصد هنا بالجون جزيرة صخرية كان يتمها الإسبان قبالة الجزائر بالبنيون .

5. المقصود بالجنويز هم الجنويون نسبة إلى جنوة الإيطالية .وجنوة مدينة قديمة جدا يقال إنّها أنشئت

القلعة عشرة أجفان فاستولى عليها وأمر بإحراقها وإحراق القلعة وسار النَّصارى الذين على السواحل إلى جبل لهم مَنيع فتحصَّنوا فيه، وعاث خيرالدّين في تلك البلاد تحريقا وتخريبا، ثم ذهب إلى ناحية نابل[1] فاستولى على بعض القِلاع هنالك فكان جُملة النّصارى الذين استولى عليهم أحد عشر ألف أسير، ثمّ سافر إلى ناحية سردانية[2] فعاث أيضا في سواحلها تحريقا وتخريبا وأراد الرّجوع إلى الجزائر فلم يساعده الرّيح وساقه الرّيح إلى مرسى بنزرت من ناحية تونس فأرسى بها ولم يرَ أهل المدينة عِمارة خيرالدّين التي أرست بتلك النواحي وصاروا هاربين لا يلوِ أحد منهم على أحد وتحصّنوا بالقلعة خوفا من هجوم العسكر عليهم، فأراد العامل على القلعة أن يفرَّ إلى تونس وجمع أسبابه وعياله وعزم على ذلك فلم يساعده أهل القلعة على الفرار منها وقالوا له: نَصَر الله السلطان سليمان. فبعد جهد مَا تخلّص منهم إلى تونس بمفرده، فوصل إليها وقت صلاة الصبح وأعلم سلطانها الحفصي[3] بورود خيرالدّين ورسّوه على

سنة 707 قبل اليملاد واستولى عليها الرومانيون سنة 322 قبل الميلاد وظلت تابعة لهم لحين سقوط الدولة الرومانية ثم تناوبتها أيدي قبائل المتبربرين المختلفة وأخيرا فتحها شارلمان الفرنسي سنة 814 ميلادية واستقلت في القرن العاشر واتخذت التجارة مهنة ونافست جمهوريتي بيشة المسماة الآن بيز والبندقية المسماة الآن فنيسيا وفي القرن الثالث عشر حاربت بيشة وتغلبت عليها ولاشت تجارتها وأخذت منها جزيرة كورسيكا ثم أعطاها ملوك الروم بالآستانة قريتي بيرة وغلطه في ضواحي بيزنطة (القسطنطينية) ومدينة (كافا) ببلاد القرم ومدينة إزمير وغيرها ومن ثم وقعت المنافسة بينها وبين البنادقة بسبب السيادة على البحار وحاربتها وانتصرت عليها مرارا وبقيت سيدة البحار الشرقية إلى أواخر القرن الرابع ثم أخذت في التقهقر شيئا فشيئا بسبب عدم انتظام أمورها الداخلية وتفرق كلمة أهلها ففقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في حمى إسبانيا وأخرى في حمى فرنسا وطورا ترجع إلى استقلالها إلى أن احتلها الفرنسيون سنة 1769 وشكلوها بهيئة جمهورية في السنة التالية وبعد سقوط إبراطورية نابليون الأول في سنة 1815 ضمت إلى لومباردية وأخيرا عادت إلى إيطاليا، أنظر: تاريخ الدولة العلية، ص: 60 .

1. المقصود Naples .

2. Sardaigne .

3. يقول صاحب كتاب تاريخ الدولة العلية «... وفي أوائل صيف سنة 1534 بعد ما سافر السلطان سليمان

بنزرت، وأخبره بأنّ أهل تلك النّاحية دخلوا في طاعة السلطان سليمان فتحيّر من ذلك ودهش وتشوّق أهل تونس لاستيلاء خيرالدّين عليها لِمَا كان قد سلف من إحسانه إليهم ؛ ثمّ إنّ عسكر خيرالدّين استولوا على بنزرت. فلمّا سمع بذلك سلطان تونس فرّ في جُملة خوّاصه وأتباعه إلى العرب لما بينه وبين العرب عداوة. وكان أهل المدينة كرهوا دولته لأنّه كان ظلوما عسوفا فعند ذلك كتب أهل المدينة كتابا إلى خيرالدّين يستحثونه في القدوم عليهم، ويقولون في ذلك الكتاب تدارك المدينة قبل أن ينصُب عسكرها من يُدافع عنهم من بعض بني حفص ؛ وعندما ورد عليه كتابهم سافر بعمارة إلى حلق الواد وأرسى به فعندما شاهده أهل المدينة خرجوا إلى لقائه في عشرة آلاف من علمائهم ومشايخهم، ودخل المدينة وجلس على سرير المملكة، وكان بقية العسكر الحفصي إذا أمكنتهم الفرصة يقتلون عسكر خيرالدّين، ويقتلونهم في المخاتل[1] والسِّكَك الخالية فأفني من ذلك عسكر خيرالدّين ووقع بينهم وبين عسكر الحفاصة[2] قتال خاف منه أهل المدينة على أنفسهم فهربوا إلى جامع الزيتونة وإلى غيره من الجوامع وسائر الزوايا ؛ فعند ذلك ركب خيرالدّين لإطفاء هذه الثائرة

قاصدا مدينة تبريز خرج خير الدين بمراكبه من بوغاز الدردنيل غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض موانئ جنوب إيطاليا لغزو مراكبها وأهلها بدون احتلالها حتى لا يعلم قصده الأصلي وهو فتح تونس في أوائل سنة 1535 وأعلن الأهالي أنه آت لعزل السلطان مولاي حسن آخر سلالة بني حفص ؛ وكان الأهالي ناقمين عليه لميله لشارلكان ... والسلاطين الحفصيون أولهم أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص الهنتاني ولي إمارة تونس سنة 618 هجرية وخلفه ابنه زكريا يحيى وفي سنة 647 ملك بعده ابنه أبو عبدالله محمد ولقب بالمستنصر ودعي بأمير المؤمنين واستمرت هذه العائلة مالكة على إقليم تونس إلى أن فتحها العثمانيون نهائيا في سنة 981 هجرية فتكون مدّة حكمهم 378 سنة، د . عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، ص: 96 .

1. يأخذونهم على غرّة، وما زالت عبارة «المخاتلة» تستعمل في اللسان العربي الدّارج وتعني أخذ الإنسان على حين غفلة أو على غرّة .

2. نسبة إلى الحفصيين.

وكفّ عسكره عن القتال، وكان جُملة ما قُتل من عسكر خيرالدّين ثمانون ومن شيعة الحفصيين أكثر من ثلاثمائة، وكان حين عزموا على القِيام بعثوا إلى سلطانهم يستقدمونه ويستعجلونه في الحركة فوصل إلى أحوازها[1] في طوائف من العرب عقِبَ هذه الفِتنة، تنكّر ودخل إلى المدينة واجتمع بأشياعه وجعلوا يُدبّرون في استئصال خيرالدّين وعسكره وبذلوا في ذلك الأموال الطائلة، فبدأ أهل الفساد يتسلّلون إليه من كلّ ناحية وينسلّون إليه من كلّ حدب، ووعِد كل من أعانه إن ظفرَ بالمدينة بالنّوع الذّي يجد معه الموت خير من الحياة، فاَجتمع له عدد كَثِير، وكان هذا الأمر أبرمه في ليلة واحدة وهي ليلة دُخوله.

فلمّا كان صباحها قصد بمن اجتمع معه القصبة وبها خيرالدّين وعسكره وخرجوا إليه من القصبة ووقع بينهم قتال ظهر فيه عجز جماعة السلطان الحفصي وتبيّن الفشل بينهم فأخذوا في الانسلالِ. ولمّا علِم العسكر ذلك فيهم تكالبوا عليهم وجدّوا في قِتالهم حتّى انهزموا بين أيديهم فتبعوهم يقتلونهم في كلّ طريق، فلمّا اشتدّ فيهم القتل نادوا بطاعة السلطان سليمان وطلبوا الأمان من خيرالدّين واستقرّ على سرير مُلكه[2].

وأمّا السلطان الحفصي فإنّه ذهب إلى حال سبيله إلى طوائف العرب. وأمّا أهل المدينة فإنّهم وطّنُوا أنفسهم على طاعة خيرالدّين واشتغلوا ببيعهم وشرائهم. ثمّ إنّ خيرالدّين وجّه إلى أشياخ العرب بخلْعِه وكتب إليهم يقول لهم: "إنّ من وقع منكم بيده سلطان تونس وأمسكه وأتى به فله ثلاثون ألف دينار، ومن آواه وأخفاه فسيرى ما يحلُّ به من الانتقام". وبالغ في الوعد والوعيد. فلمّا وصلت كتبه إلى أشياخ العرب كتبوا إليه يقولون: "

1. الحوز هو الضّاحية وأحواز المدينة ضواحيها .
2. كان ذلك في 22 أوت 1534 .

إنّ الملوك من بني حفص كانت لنا عليهم عائدات وجِرايات نأخذها منهم وكان ذلك قد تقرّر بين أسلافنا وأسلافهم فإنِ ألتزمت لنا بها فنحن نخدمك". فكتب إليهم خيرالدّين يقول: "أنا أجري لكم القانون الّذي لكم بشرط أن لا يقع منكم ضِرار على الرّعية وأن تشتّوا بالصحراء". وأمرهم أن يبعثوا إليه بالدّفاتر التي بأيديهم لينظُر فيها كم أخذوا،وكم بقي لهم، وينظر المقدّر لكلّ واحد منهم فإنّ جميع ذلك مكتوبا عندهم بطابع المخزن. فاَمتثلوا لأمر خيرالدّين ورحلوا إلى الصحراء وبعثوا بدفاترهم إليه فوجدهم قد قبضوا المال المقدّر إليهم في تلك السنة فكتب إليهم: «إنّه إذا كان فصل الرّبيعُ يُقدموا إليه ليأخذوا مَالَهم المقدّر لكلّ واحد من الأشياخ تسْكَرة[1] بحاله من المال الذي يأخذه في فصل الربيع وختم عليها بخاتمه»، ورَضيَ الأشياخ بذلك.ثمّ إنّ خيرالدّين بعث إلى نائبه بالجزائر[2] أن يُوجّه له ثلاثمائة مقاتل من العسكر وأربعمائة من الفرسان. فلمّا وصله الكِتاب امتثل للأمر وجهّز إليه جميع ما طلبه.

فلمّا وصلوا إلى خيرالدّين وزّعهم على الرّعية في استِخراج ما عليهم من الوظائف المخزنية وأمرهم بإحصاء جميع ذلك وشملت العَافية[3] جُملة ذلك الوطن وحمِدوا دولة خيرالدّين واَغتبطوا فيها. وأخذ خيرالدّين في تجهيز هدية عظيمة يتوجّه بها إلى السلطان الأعظم سليمان خان ليُحيطه، فطاق الحصر من جُملتها ثمانون غُلاما من النّصارى فوصلت الهديّة إلى الحضرة وكان السلطان غائبا عنها في محاربة فازل باش.

1. – تذكرة أو تسكرة كما تقول العامة Teshéré (turc) du mot Zikr qui veut dire mention, teskéré; billet. voire Histoire de Barberousse .
2. حسن آغا .
3. الفرحة والرضا ء. والهناء ولا يزال يستعمل هذا التعبير بتونس إلى يومنا هذا ليؤكد من خلاله الإنسان أنه على أحسن ما يرام (بعافية) وتعني العافية بتونس «النار» .

وكان سلطان تونس دَاخِلَ أشياخ العرب في القيام على خيرالدّين ووعدهم على ذلك ومنّاهم ؛ وكان هؤلاء الأشياخ لا يستقرّون على طاعة ملك فأجابوه إلى ذلك واجتمعوا بالقيروان[1] فسمع بذلك خيرالدّين فكتب إليهم كتابا يقول فيه: "من كان منكم في طاعة السلطان سليمان فليُفارق هذا الجمع وليتجه إلى بيتنا، ومن أبى إلاّ التّمادي على شقائه فهو أبصر بنفسه". وأخذ خيرالدّين في الحركة إلى العرب وسلطانهم.

ومن جُملة الغرائب التي تُحكى عنه في هذه الحركة أنّه جعل للحركة التي تحمل المدافع صاريا لكلّ واحدٍ منها أوحبلا وشراعا منصوبا فكانت العجّالة تسير بالرّيح كما يسير المركب في البحر وهذا من غرائب ما يُحكَى من هندسة هذا الملك[2] !. ولمّا توغّل في السّفر اعترضه سلطان تونس بعَرَبه وتصدّوا لقِتاله، ولما رأى العرب مسير هذه العجلَة تعجّبوا من ذلك غاية العجب، وعلموا أنّ ذلك الأمر لا يهتمّ إليه أحد. فشرع خيرالدّين

1. القيروان تسمية فارسية وتعني المعسكر وهي مدينة تقع في الجنوب التونسي، وقد أختطها الفاتح عقبة بن نافع عام50 هجرية واشتهرت بمسجدها الجامع الذي ظل منارة علم وعرفان ويقول صاحب كتاب معالم الإيمان الدبّاغ: «... وقد اتفق لعقبة بن نافع الفهري، رحمه الله، حين وضع القيروان كرامات وإجابات مشهورة منها ما رواه علماء أهل التاريخ أنّ عقبة، رضي الله عنه، لما غزا إفريقياة في زمن معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة 50 هجرية وقتل من كان بها من الروم وأصناف البربر والأفارقة، قال لأصحابه: إنّ إفريقية إذا دخلها أمير التزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، وإني أرى أن أتخذ مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا يكون عز الإسلام إلى آخر الدهر. واختلف في لغة العرب في لفظ القيروان، فقيل هي موضع اجتماع الجيش والناس، وقيل محط أثقال الجيش، وقيل هي الجيش نفسه .. أنظر كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدبّاغ، تحقيق إبراهيم شبوح، نشر مكتبة الخانجي، مصر 1968، جزء أول، ص: 8.

2. علّق كلّ من مؤلفي كتاب: Histoire de Barberuosse قائلين:

Ce fait qui n'a rien d'improbable, et qui peint à merveille le caractère de corsaire guerroyant sur terre, parait d'autant plus curieux, qu'il prouve l'ancienneté d'une invention que l'une cherche à explquer en France depuis quelques années, et qui ne s'est pas montrée sans succées dans quelques circonstances .Nous croyons qu'il ne faut pas voir dans la pensée de Kkair-ed-din un moyen de faire marcher son artillerie mais seulement d'aider à sa marche, et par concèquent d'accélerer le movement sans donner trop défatigue aux homes ou aux chevaux. Au surplus, son moyen analogue est employé en chine depuis longtemps pour le transport ...Vol: 1 p :323-324.

في قتالهم وأوصل الرّمي إليهم بالمدافع والعرب لا خِبرة لهم بهذا القتال فرأوا من ذلك ما طاشت به عقولهم خوفا ورُعبا فانهزموا وسلطانهم معهم ورجع الأشياخ لطاعة خيرالدّين وكتبوا إليه يلتمسون منه العفْوَ.

فلمّا تا( )[1] سياسة ذلك وكتب إليهم كتابا بالأمان فعند ذلك ما إن وصلهم الكتاب حتّى قدِم إليه جميع الأشياخ وبايعوه ببيعة صِدق ولا تصِحّ محبّة لأنّ محبّته دخلت في قلوبهم اضطرارا لِمَا رأوْا من عفوِه وكرمه. فرجع خيرالدّين إلى تونس واستقرّ بها. ولمّا كان السلطان سليمان مشتغلا بحصار العجم بتبريز[2] كما تقدّم، انتهز طاغية إسبانيا[3] الفُرصة وعزم على السّير إلى إقليم الرّوم بجملة عَمَارتِه للاستيلاء على تلك السَّواحل، وكان جملة عسكره عشرين ألف مُقاتل، فلمّا سمع سلطان تونس بما عزم عليه الطّاغية كتب إليه كتابا يقول فيه: «إن رايس التُّرك بربروس ظلمني وأخذ مملكة أبائي وأجدادي من يدي، وكان الحامِل له على ذلك ما علمتم ما بيني وبينك من الصداقة والموالاة، فالجوابُ عليك أيّها الملك أن تعينني بهذا العسكر الذي معكَ على ردّ مَمْلكتي وإِخراج هذا الرّجل منها، فإنّ معي

1. بياض في المخطوط يدل على سقوط نصف كلمة، المخطوط، ص: 85 .

2. – قصد السلطان سليمان مدينة تبريز لفتحها في صيف 1534 ميلادية. أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 96.

3. المقصود بطاغية إسبانيا هنا هو الملك شارلكان: ولد هذا الملك الشهير سنة 1500 وورث ملك إسبانيا عن والدته خوانة المجنونة ابنة فرديناند وايزابيلا ملوك إسبانيا اللّذين أُخرج المسلمون في أيامهما من الأندلس في 2 يناير 1492 ميلادية وانتخب أميرا لألمانيا بعد موت جدّه لأبيه الإمبراطور مكسمليان وقضى أيّامه في محاربة فرنسوا الأول ملك فرنسا وبعد موت هذا الأخير رجع إلى محاربة الفرنسيين وحاصر مدينة ميتز الشهيرة بدون أن يتمكن من فتحها سنة 1552 وحارب خيرالدّين باشا أمير البحر العثماني الشهير ببربروس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت إلاّ أنّه اضطر أخيرا في سنة 1547 أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن حاربوه وانتصروا عليه. وفي سنة 1556 سئم الملك فتنازل عن ملك إسبانيا لابنه فيليب الثاني وعن ألمانيا لأخيه فرديناند واعتزل في أحد الأديرة التي تعرف باسم Monasterio de Yuste الواقع بمنطقة Extremadura بغرب إسبانيا إلى أن قضى نحبه عام 1558. أنظر: Vera Zuniga, Juan Antonio: Carlos 1, Madrid, 1949 .

من العسكر ما قدرُهُ ستّون ألفا فأحاصرها أنا برًّا وتحاصرها أنت بحرًا فإنّ استولينا عليها تكون البلاد لك وأنا أكون مثل النّائب عنك فيها.»[1]

فلمّا وصل كتابه إلى الطّاغية جمع كبراء دولته واستشارهم فيما بعث به سلطان تونس، فأشاروا عليه بتعجيل نُصرته والنّهوض إلى إعانته. وقالوا له أيّها الملك: "نعم كلامه حقّ وبربروس ما خلعه إلاّ لأجلك، والمملكة مملكة آبائه وأجداده، وقد ظلمه وأخرجه عنها، والملوك ينتصِر بعضُها ببعض فاَذهب بنا أيّها الملك، فعندما يقع الاستيلاء عليها يذهب بنا الملك حيث ما أراد من البلاد ؛ فعند ذلك ثنى عزمه إلى قصد البلاد التونسية[2] واستخلاصِهَا من يد خيرالدّين وأُقيمت الدّعوة الحفصية بها في خفية إلى أن يدبّر الأمر في كيفية إخراجِها من يده كلّية، فأجابه الطّاغية بأنّهم متوجّهين إلى تونس في أخذ ثأره من خيرالدّين، وأمره بالاستعداد لحصارها برًّا، وسافر الطّاغية[3] بنفسه في هذه العَمارة فلمَّا رَسَّى بحلق

1. يلاحظ من خلال خطاب السلطان الحفصي مدى تعلّقه بشاركان الإسباني وكراهيته لخيرالدّين وللأتراك.

2. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدولة العليّة: «... ولما وصل الإمبراطور شارلكان خبر سقوط تونس في يد خيرالدّين اتّحد مع رهبنة القدّيس يوحنا الأورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطا بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع تونس وإعادة مولاي حسن إلى تحت ملكه وجهّز عمارة قويّة قادها هو بنفسه ونزل مع أشراف إسبانيا من ثغر برشلونة في 29 مايو 1535 ووصل إلى حلق الوادي في 16 يونيو وحاصرها هي ومدينة تونس مدّة شهر تقريبا وفتحها في 14 يوليو واستولى على ما بقلعتها وثغرها من المدافع والمراكب، وفي 21 يوليو دخلت جيوش شارلكان المدينة وصرّح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا وفسقوا وارتكبوا كلّ أنواع المحرّمات وهدموا المساجد وحرقوا ومزّقوا أغلب الكتب النّفيسة، وفي أوّل أغسطس دخلها شارلكان ... وفي ثمانية أغسطس أمضيت معاهدة بين شارلكان ومولاي حسن الذي أعيد إلى ملكه تقضي بإخلاء سبيل الأرقاء المسيحيين والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائرهم بدون معارضة وأن يتنازل لشارلكان عن مدن بونة (عنابة) وبنزرت وحلق الوادي وان يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريف الحرب وان يقدّم له سنويا اثني عشر حصانا وقدرها المهارة العربية علامة امتنانه بشرط أنه لو خالف إحدى هذه الشروط يدفع مرّة خمسين ألف دوكا وفي الثانية مائة ألف وفي الثالثة يستحل حقّه في الملك ...» ص:96-97 .

3. يقول شوفالييه :« ... كما أنّ الإمبراطور نفسه كان على رأس الحملة، وقد تواجد أمام تونس 412 سفينة كبيرة و27.000 رجل ؛ إنّه بالنسبة له عدد ضخم في منطقة سكانية ملتسمة بسبب الحروب الداخلية وسقطت تونس في يد الإسبان في شهر جويلية سنة 1535. ص: 85 .

الوادي بقرب برج يُقال له بُرج العيون[1] فلم ير للسلطان الحفصي أثرا فتعجّب من ذلك وقال: " هل قدِم هذا الرّجل وذهب أم لم يقدم أصلا؟ " ؛ ثمّ شرع في إنزال الآلات الحربية وأنزل عسكره إلى البرّ، فعند ذلك خنّدق أهل ذلك البرّ عليهم ووجّهوا إلى خيرالدّين رُسلهم يُعلمونَهُ بوصول عَمَارة النّصارى، فخرج خيرالدّين إلى قتالهم في اثني عشر ألف مقاتل، فلمّا وصل إلى البرّ تحيَّز إليه أهله وشرعوا في قتال الرّوم ؛ فكان بينهم قِتال عظيم تراجع النّصارى في آخره إلى ساحل البحر فتبعهم المسلمون، فلمّا كادوا أن يخالطوهم ردّتهم المدافع من السّفن فتأخروا عنهم، وصنع النّصارى بُرجًا من الخشب وأدنوْهُ من البُرج فردّهم المسلمون عمّا أرادُوا بِهِ وأبطلوا حيلتهم في ذلك ؛ وكان المسلمون خندقوا على بعض الحصون المقاربة لهذا الحِصن ونصبوا على حافة الخندق المُوالي إلى الحصن جُملة من المدافع جعلوا فيها قطعا من السلاسل وقطعا من الحديد، وجُملة من البناء الواقي. فلمّا قرب النّصارى من ذلك الحِصن رمى عليهم المسلمون بتلك المدافع فتمزّقت أشلاؤهم ؛ فكان جُملة القتلى منهم ستّة آلاف سِوى من انقطعت يداه أو رجلاه. وأمّا المسلمون فإنّهم دَخلوا مَتَارس النّصارى ثلاث مرّات وقطعوا رايس المتارس في بعض تلك المرّات من دُخولهم حتّى وَصلوا إلى أخبية سلطانهم فلمّا علِم بذلك بعث إلى بلاده مُتوجها إلى الأُمراء فأتتْهُ في أقرب مُدّة، فنصب على متوسة[2] تجاه الحصن مائة وعشرين مدفعا ومن تِجاهه ثمانون وأخذ في القتل فبقي على ذلك اثنين

1. - يقول صاحبا كتاب: Histoire de Barberousse (عن برج العيون): Bourdj-ul-oioun veut dire en turc château des sourses; c'est cette forteresse si connue sous le nom de la Goulette, qui placée à l'entrée de l'étang quoi mène à Tunis, forme la principale défense de cette place. Vol: 1, p: 327.

هذا غير صحيح فبرج العيون ليس كلمة تركية ؟.

2. كلمة غير مفهومة وجاءت في المخطوط هكذا، المخطوط، ص: 86.

وثلاثين يومًا، فعند تمام هذه المُدّة تقدّم إلى البرج بجملة مدافعه وعطّل على المسلمين مدافعهم فلم يقدروا على الرّمي بها فعند ذلك فرَّ المسلمون من ذلك الحِصن واستولى عليه عدوّ الدّين وانحاز خيرالدّين وعسكره إلى المدينة.

ولمّا سمع سلطان تونس باستيلاء الطّاغية[1] على هذا الحِصن قدِم إليه في رهط من خيله وعندما وصل إليه قبّل يده[2] على ما زعموا ووضعها على جبهته فرَقَّ له الطّاغية وأشفق بحاله. ولمّا انحاز خيرالدّين إلى المدينة ورأى أهلها ما حلَّ بهم من هذه الدَّاهية وقع بينهم اضطراب كثير؛ فبعضهم تمسّك بطاعة خيرالدّين، وبعضهم جنح إلى طاعة النّصارى، فبعث خيرالدّين إلى كِبار المدينة وأشياخها ولمّا حضروا بين يديه، استشارهم في أمر النّصارى وقال لهم: "كيف يكون العمل ؟ إنّ النّصارى في قوّة زائدة وأنتهم الأمراء من سائر بلادهم والمسلمون قد ضعفُوا عن قتالهم، فما ترون هل نُصالحهم أم نستمِرُّ في قتالهم؟" فأكثروا الكلام في ذلك، وجعل كلّ واحد يتكلّم بما ظهر له ؛ ولمّا علِم خيرالدّين ما هم فيه من الاختلاف قال: "أنا أذهب وأقاتل بمن معي من العسكر". فقالوا له: "أيّها الأمير إنّنا لا نتخلّف عنك، بل نُقاتل معك جميعا، فاجتمع من أهل البلاد تسعة آلاف وتسعمائة، و من العسكر ستّة آلاف وأربع مائة، وخرج

1. صفة الطّاغية التي يردّدها باستمرار صاحب هذا المخطوط أزعجت كثيرا مؤلفا كتاب تاريخ باربروس، والطّاغية المقصود هنا هو شارلكان أو كارلوس الخامس وهو:
Imperio Romano gérmanico
«Carlos 1 de Espana, fue emperador del sacro 1(1516-
con el nombre de Carlos V (1519-1556) y rey de Espana como Carlos
1556), el primero que unio en su persona a las coronas de Castilla y Aragon.
Heredo los Paises Bajos y mantuvo guerras con Francia, a la vez que con los
movimientos comuneros de Castilla. Véase M Vera Zuniga, Juan Antoio de,
Carlos 1, Madrid, 1949 !

2. يعكس مظهرا من مظاهر ضعف الإمارات الإسلامية آنذاك سواء بتونس أو بتلمسان أو بالمغرب الأقصى.

الجميع إلى القتال ؛ فكان اللّقاء بينهم وبين النّصارى. في هذا اليوم ورد لخيرالدّين المدد من الجزائر احتوى على عدد يسير من العرب والتّرك، وشرع خيرالدّين في قتال النّصارى وعرف ذلك اليوم أكثر من مائة ألف ينظرون إلى قتال خيرالدّين مع النصارى، فلمّا رأوا العزيمة كادت تقدّم على الكفّار دخلوا في عسكر خيرالدّين مموّهين بإعانتهم ؛ ثمّ انهزموا بين يدي الكُفّار لينهزم بانهزامهم العسكر، فردّهم خيرالدّين عن الهزيمة فلم يقدر على ذلك وحصلت للنّصارى قوّة عظيمة بما فعله العرب وبعثوا إلى سُفُنهم في توجيه العسكر، واستمرّ القتال بينهم، فظهر في العدوّ الفشل وتراجعوا عن المسلمين إلى سَاحل البحر ؛ فعند ذلك قوِيَ المسلمون عليهم واجتهدوا في قِتالهم حتّى ألجأ وهم إلى البحر، وأرادوا الهجوم عليهم فردّتهم عنهم مدافع السّفن ؛ فعند ذلك رجع خيرالدّين إلى تونس ودخل إلى القصبة وبقي عسكره خارج المدينة وبقي الكُفّار، وقد ظهر منهم الملل ووقع فيهم مرض كثير فعزموا على الرّجوع إلى بلادهم، ووصل الخبر إلى خيرالدّين، ووصله خبر آخر بإنّهم قدموا إلى المدينة، فخرج بعسكره إليهم، وعندما خرج سمع في المدينة لغطًا وأصواتا عالية تقول إن سبب ذلك أنّ خيرالدّين لمّا خرج من المدينة ظهر لأهلها أنّه خارج فار من النّصارى، وأسلم المدينة إليهم فخرجوا فارّين بأنفسهم من المدينة وتركوها خاوية على عروشها ؟ فرجع خيرالدّين إليها في بعض خاصّته وعندما دخلها رأى النّصارى قد أغلقوا بابًا من أبوابها، فقال في نفسه: "يا عجبًا من أين هؤلاء النّصارى، وظنّهم من نصارى العدوّ؟ وكان أولئك النّصارى من الأسرى الذين تحت حوطتِه، وكان عددهم أحد عشر ألفا كما تقدّم ؛ وسبب ذلك أنَّ الأسرى لمّا رأوا المدينة قد خلت من أهلها، وأنّه

Scanned by CamScanner

لا مانع يمنعهم ثاروا وأحكموا قبضتهم عليها. فلمّا دخل عليهم خيرالدّين وقعت هيبته في قلوبهم،فرجع كثير منهم إلى محبسه، وبقي بعضهم في القصبة وغلّقوا عليهم الباب الدّاخلي.فلمّا وصل إليها خيرالدّين وجد بابها قد أُغلقَ في وجهه ولم يكن معه من العسكر سوى مائتين. فلمّا رأى ذلك ذهب في إثر أهلها ليردّهم إليها ؛ وكان السلطان الحفصي بنواحي البلد في طائفة من الخيل، فقصد أهل المدينة ناحية من غير قصْد فأدركهم خيرالدّين وجعل يردّهم على المدينة ويوبّخهم على الفِرار خوفاً من صاحب تونس إذ يدّفعهم. ولمّا أرجع خيرالدّين من خَرج من المدينة إليها ذهب بعض الأشقياء إلى الطّاغية وأعلموه بأنّ خيرالدّين قد فرّ منها فارتا ب في خبره، ثمّ قدم إليه بعض النّصارى التجّار بالمدينة فأخبروه بفراره أيضا، فعند ذلك تحرّك النّصارى بجيوشهم إلى المدينة ولقيه العرب مُستبشرين بقدومه فأغار عليهم جيشه فأوقعوا بهم وقتل منهم خلقًا كثيرا، وقال: " إنّي لا آمن هؤلاء القوم، ولا أثق بمخالطتهم ( )[1] الله لخيرالدّين منهم حيث جرّوا الهزيمة على عسكره كما قدّمنا.

ودخل الطّاغية إلى مدينة تونس واستولى على قصبتها وأذَانَ أهلها بالطّاعة[2]. فذهب عند ذلك خيرالدّين ومن معه من عسكره إلى بلاد العنّاب[3] فدخلها بعد خمسة أيّام من هذه الواقعة،وكان بها خمسة

1. هناك بياض في المخطوط مقدار كلمة، المخطوط، ص:89 .

2. يقول ابن دينار في كتابه المؤنس :« ... وفي تلك الأيام أهين المسجد الأعظم ونهبت خزائن الكتب التي به، وديست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبدّدت في الشوارع حتى قيل أنّ المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن إنّما يمر على الكتب المطروحة هناك، وضربت النواقيس في الحضرة ...» أنظر د. عبدالله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، نشر دار البعث بقسنطينة / الجزائر، 1986، ص: 108، 109 .

3. تسلّل خيرالدّين ومن معه إلى مدينة عنّابة التى تعرف أيضا باسم بونة والتي تقع في الساحل الشرقي من بلاد الجزائر .

عشر جفنا من أجفانه، فسمع به الطاغية فوجّه إليه ثلاثين جفنا برسم الاستيلاء عليها فلمّا قربوا بلاد العنّاب نصب خيرالدّين المدافع للرّمي عليهم، فمنعهم من الوصول إلى أجفانه، فرجعوا إلى حال سبيلهم. فأراد الطّاغية أن يوجّه العَمارة إلى بلاد العنّاب ثمّ توقّف عن ذلك خشية من خيرالدّين.

رجوع خيرالدّين إلى بلاد الجزائر

وعندنا أمِن خيرالدّين على نفسه ببلاد بُونة ركب البحر إلى الجزائر، فلمّا وصلها واستقرّ بدار إمارتها جعل أهل المدينة يدخلون إليه أفواجا أفواجا مُسلّمين عليه ومُستبشرين بقُدومه ؛ وكانت له منزلة عظيمة في قُلوبهم، وكانت أجفان الجزائر قبل قُدوم خيرالدّين تسعة أجفان، وحين استقرّ بها أنشأ ثمانية أجفان، وعدد أجفانه التي قدِم فيها خمسة عشر فصار الجميع اثنين وثلاثين جفنا، فركب البحر مُسافرا في هذه الأجفان برسم الغزو[1]. فلمّا قرُب من ناحية ميُورْقة[2] أرْسَى على ثلاثين ميلا منها فسمع أصوات المدافع من مدينة ميُورْقة حتى تراءى كالرّعد العاصف، فذهب به الفِكر كلّ مذهب وكذلك جماعة الغُزاة ؛ يُقال إنّما فعلوا هذا فرحًا باَستيلائهم على تونس، وبعضهم يقول إنّما ذلك لأجل إرساء سفُن البرتغاليين بها حين اَنفصلوا من إِعانة الطّاغية والعودة إلى بلادهم، وبعضهم يقول غير ذلك.؟ وأمّا سبب ذلك في الحقيقة أنّ أهل ميُورْقة طال عليهم الأمد في وصول الخبر من الطاغية إليهم حين أخذ في حصار

1. يقول شوفالييه :« ... وفي نهاية سنة 1535 تمّ إعادة بناء الأسطول واستطاع خيرالدّين أن يعود إلى البحر على رأس 32 سفينة مدفوعا بقوته الجديدة (أليس هو كابودان باشا ؟) إنّه من الآن فصاعدا سيسود على البحر المتوسط، ص:86 .

2. جزيرة في عرض المتوسط قبالة سواحل إسبانيا الشرقية سبق التعريف بها .

تونس، فكثر الإرجاف فيهم واضطرب رأيهم وصاروا لا يسمعون للوالي بها قولاً ولا يمتثلون لأمره، فعند ذلك استعمل اللّعين حيلة وأشاع أن طاغيتهم دخل تونس وتمكّن من بربروس وها هو قد بعثه إلينا لنحرقه. فنصب أربعة من الصّواري وجعل على كل صارية ( )[1] من زينة ؛ وكان عنده أحد الزرّاع محبوساً فصوّروا صورة خيرالدّين في جلد أو يقاربه وحبس إيّاه بحيث أنّ كلّ من نظره لا يرتاب فيه أنّه خيرالدّين ؛ والنّصارى لهم قُدرة على التّصوير وإظهار أنواع التّشكيل[2] وألبسوهُ ثوبا أسود وعمّموه بعمامة سوداء[3] وأوثقوه بالقيود والأغلال وألقَوْهُ بين تلك الصّواري وأمر بالنِّداءِ في نواحي ميُورْقة: "من أراد الفُرجة على إحراق بربروس فليأتي إلى ميورْقة[4]" ، فقدم النّصارى أفواجا أفواجا حتّى ضاق بهم المكان، وكان هنالك قدر ثلاثمائة أسير من التّرك فأحضروهم وقالوا لهم: "أنظروا إلى سلطانكم ما نفعلُ به؟" وموّهوا عليهم بتلك الصُّورة فاعتقدوا صِحّة ذلك وجعلوا يبكون وينظرون إليه ويقولون: "كُنّا ننتظرك لخلاصنا وبك رقابنا ممّا نحن فيه، فها نحن نراك الآن على مثل هذه الحالة فإنّ لله وإنّ إليه راجعون" ؛ ثمّ إنّهم أضرموا النّار في تلك الزّفات فاشتدّ لهيبها، واحترق النّصراني المموّه به واعتقد النّصارى لغباوة عقلهم أن ذلك حقّا.

وأمّا خيرالدّين فإنّه لمّا أقلع عن المرسى الذي كان بها لقِي أجفانا للطّاغية فيهم بعض الأسرى من أهل تونس، كان وجّه بهم إلى بلاده،

---

1. كلمة غير مفهومة (داقا) ويبدو أنّ الأصحّ هي «دمية» أو فزّاعة، المخطوط، ص:90 .
2. التفاتة ذكيّة من صاحب المخطوط يقرّ من خلالها بالخصوصية الفنّية التي تميّر بها الأوروبيون في عالم الفنون التشكيلية .
3. يظر أنّ خيرالدّين بربروس كان يتعمّم بعمامة سوداء مع لباس أسود ولحية صهباء .
4. هكذا استطاع حاكم ميورقة أن يخرج على السكان بهذه الحيلة ليقطع الشكّ باليقين كما يقال ويطمئنّ العامة بالخبر السعيد الذي يرجوه كافّة المسيحيين وهو قتل برباروس .

فاستولى عليهم خيرالدّين، فأنقذ المسلمين ممّا كانوا فيه وجعل القُيودَ التي كانت في أرجلهم على أرجُل النّصارى وأحرق الأجفان واستمرّ مُسافرا إلى ناحية مِيُورْقة.

دخول خيرالدّين برط-ماؤون واستيلائه على الحصن الذي فيه

وكان هنالك بعض المراسي يُقال لها برط-ماؤون[1] تجتمع فيه سائر أجفان النّصارى لأنّه مرسى مأمون، كبير السَّاحل يسعُ نحو الخمسمائة من الأجفان وباب المرسى صغير لا يسع في الدخول إلاَّ ثلاثة أجفان ؛ وحين ورد خيرالدّين على هذه المرسى كان خارجها جفنان للبرتغاليين[2] فحين ظهرت لهما عَمَارة خيرالدّين نصب شراعيهما على الفِرار، لكن خيرالدّين لم يطلبهما، وأمر جماعة الغزاة أن ينزعوا عمائمهم من على رؤوسهم تمْويها على النّصارى بذلك. ودخل إلى ذلك المرسى في جملة أجفانهم؛ فحين دخلها اَعتقدَهُ أهلها أنّه أندري[3] André فنزلوا إلى ساحل البحر لأجل البيع والشّراء مع أهل العَمارة ؛ وقد كان خيرالدّين أنزل عسكره وركنهم في بعض المواضع هناك، فبينما النّصارى يتشوّفون إلى نزول أهل الأجفان إليهم إذ هجم عليهم جماعة الغُزاة من خلفهم وشدُّوا وثاقهم وحملوهم إلى الأجفان ؛ ولمّا رأى الجفنان اللّذان هربا من خيرالدّين أنّه دخل إلى تلك المرسى التي لا تدخُلها إلاَّ أجفان النّصارى، ولا تقدر أجفان المسلمين أن تطيق الدخول اعتقدوا أَنّه أندري André فدخلا على إِثرِهِ وأرسَيَا.

---

1. هو اسم مرسى يقال له: Port-Mahon .
2. يكتب صاحب المخطوط «البرطغيز» ويعني البرتغاليين.
3. المقصود القرصان الجنوي وأجير شارلكان أندري دوريا .

فاستولى عليهم خيرالدّين، فأنقذ المسلمين ممّا كانوا فيه وجعل القُيودَ التي كانت في أرجلهم على أرجُل النّصارى وأحرق الأجفان واستمرّ مُسافرا إلى ناحية مِيُورْقة.

دخول خيرالدّين برط-ماؤون واستيلائه على الحصن الذي فيه

وكان هنالك بعض المراسي يُقال لها برط-ماؤون[1] تجتمع فيه سائر أجفان النّصارى لأنّه مرسى مأمون، كبير السّاحل يسعُ نحو الخمسمائة من الأجفان وباب المرسى صغير لا يسع في الدخول إلاّ ثلاثة أجفان ؛ وحين ورد خيرالدّين على هذه المرسى كان خارجها جفنان للبرتغاليين[2] فحين ظهرت لهما عَمَارة خيرالدّين نصب شراعيهما على الفِرار، لكن خيرالدّين لم يطلبهما، وأمر جماعة الغزاة أن ينزعوا عمائمهم من على رؤوسهم تمْويها على النّصارى بذلك. ودخل إلى ذلك المرسى في جملة أجفانهم: فحين دخلها اَعتقدَهُ أهلها أنّه أندري[3] André فنزلوا إلى ساحل البحر لأجل البيع والشّراء مع أهل العَمارة ؛ وقد كان خيرالدّين أنزل عسكره وركنهم في بعض المواضع هناك، فبينما النّصارى يتشوّفون إلى نزول أهل الأجفان إليهم إذ هجم عليهم جماعة الغُزاة من خلفهم وشدّوا وثاقهم وحملوهم إلى الأجفان ؛ ولمّا رأى الجفنان اللّذان هربا من خيرالدّين أنّه دخل إلى تلك المرسى التي لا تدخُلها إلاّ أجفان النّصارى، ولا تقدر أجفان المسلمين أن تطيق الدخول اعتقدوا أنّه أندري André فدخلا على إثرِهِ وأرسَيَا.

---

1. هو اسم مرسى يقال له: Port-Mahon .
2. يكتب صاحب المخطوط «البرطغيز» ويعني البرتغاليين.
3. المقصود القرصان الجنوي وأجير شارلكان أندري دوريا .



أوصى النّصارى أن لا يُقاتلوا بربروس لأنّه لا يتوجّه إلى ناحية إلاّ ويظفر بها فيكون المُقاتل له ساعيا في هلاك نفسه[1]، ففتحوا له الحِصن فدخله فوجد فيه خمسة آلاف وسبعمائة من النّصارى، وخلّف فيه ثمانمائة من الحرّاس ورجع إلى الجزائر فدخلها في السادس يوم من إقلاعه عن هذا الحصن[2]؛ وكان يوم دخوله يوما مشهودا».

وكان النّصارى من أهل مِيورْقة قد تقدّم أنَّ وَاليهم مَوّهَ عليهم بإحراق خيرالدّين وصدّقوا بذلك، وأظهر لهم لغباوة عقولهم وبلادة طباعهم ذلك، فبينما هم على ذلك إذ ركب إليهم البحر بعض من خلّفه خيرالدّين من الجرحى فوصلوا إلى مِيورقة وأخبروا أهلها بما تمّ على أهل الحِصن من خيرالدّين، وكيف استولى على نصارى برتغاليين بالحيلة التي احتال عليهم وعلى الجفنين اللّذين أرسيا بتلك المرسى، فظهر لهم عند ذلك كذِب واليهم وتمويهه عليهم وبسطوا ألسنتهم فيه بالقبيح، ولو أرادوا أن يمكثوا على أسارى المسلمين ما فعله خيرالدّين «ببرط ماؤون» ونواحيه من الفِعَال المتقدمة لئلاّ يسبقوا [3] منهم بالكلام الذي يتصفون به ويستدلّون به على كذبهم، وهيهات أن تخفى شمس النّهار على النّاظرين إليها! وحين سمع أسرى المسلمين ما حدث لخيرالدّين من هذا الفتح العظيم توجّهوا إلى الكُفّار قائلين لهم:« أنتم فعلتم ببربروس ما فعلتم، ومن فعل هذه الفِعَال ببرط ماؤون ونواحيه، برباروس آخر؟! وجعلوا يُسمعونهم مثل هذا الكلام.

---

1. لم نعثر على هذه الفتوى للبابا في المصادر الأوروبية التي عدنا إليها ويظر أنّها من تأليف العامة ولذلك صاغها مؤلف المخطوط بعبارة زعموا التي تحتمل الصدق والكذب .
2. بهذه السرعة الكبيرة استطاع خيرالدّين قطع المسافة الرابطة بين ميورقة والجزائر في ستّة أيّام .
3. هكذا وردت الصياغة في المخطوط، المخطوط، ص: 92.

وكان الطّاغية لمّا استولى على مدينة تونس ورجع إلى بلاده سافر إلى البابا للقائه ؛ فحين وصل إليه حكى إليه كيف استولى على مدينة تونس، وأنّه قد مَحَا أثر خيرالدّين بحيث إنّه لم يبق له ذِكر، واستنجز وعده في إلباسه التّاج على عادة آبائه ممّن تقدّموا ؛ وقد كان طلبه قبل ذلك في إلباسه التّاج ( ) [1] البابا على قتل خيرالدّين وإراحة النّصارى من شرّه، فعندما يتمّ هذا الغرض يُلبسه التّاج، فاستمهله البابا سبعة أيّام يتحقّق في صحّة ما قاله الملك. فبينما هو كذلك إذْ ورد عليه جماعة من أهل الحِصن الذي استولى عليه خيرالدّين بنواحي «بُرط ماؤون» شاكين إليه ما نزل بهم من خيرالدّين وعسكره الغُزاة ! فأغلظ عند ذلك للطّاغية وقال له: كيف تدّعي أنّك ظفرت بخيرالدّين وأرحت النّصارى منه، وهاهم رَعيتُك قد وصلوا إليَّ شاكين ممّا فعل بهم؟ أمَا تعلم أن الكذب قبيح وخُصوصا من الملك؟ فكيف واجهتني بالكذب أمَا خفت أن يسخط عليك المسيح؟.

فعند ذلك قبّل الطّاغية يده ورجله وطلب منه المَغفِرة على مُقتضى دينه، وقال له:» أيُّها الأب ؛ هكذا أخبرني من عاينه من قِتال خيرالدّين. فقال له البابا: إنّه لا يخفُّ غرمك ولا يرضى عنك المسيح إلاّ بأنّ تتوجّه إلى الجزائر وتأخذها من يدِ خيرالدّين، فإذا انتزعتها منه لم يبق لأهل إسبانيا ولا لغيرهم عدوٌّ يخافونه؟ وحرّضه على أخذها غاية التّحريض ! فأقسم له الطّاغية بالمسيح ومثله وجميع ما يعتقدونه من ديانته أنّه يستمِرُّ عن ساق الجِدِّ وينهض إلى الجزائر نهضة من لا يُقلع عنها حتّى يستوليَ عليها[2]. فعند ذلك أنعم له بالمغْفِرة ورضيَ عنه.

1. كلمة غير مفهومة في المخطوط لكنها تبدو من خلال سياق الكلام أنّ البابا قرن حدث التتويج بشرط وهو قتل خيرالدّين أو الإتيان به مقيّدا. المخطوط، ص: 92 .
2. وقد صدق في ذلك فكانت حملته الشهيرة التي سيأتي ذكرها والتي تعود إلى شهر أكتوبر 1541.

سفر خير الدّين إلى حضرة السلطان

ثمّ إنّ خيرالدّين عزم على السّفر إلى حضرة السلطان فأخذ في تجهيز نفسه، فلمّا تمّ له ذلك ركب هو وأهله وحاشيته ومن أراد أن يكون معه من العسكر، وسافر فسمع بسفره أندري André فسافر في طلب خيرالدّين في أربعين جفنا حربية وأتى إلى نواحي جيجل يرصد خيرالدّين من الجزائر، فاجتاز عليه خيرالدّين ولم يرهُ. وأمّا أندري André فإنّه رآه وتغافل عنه. وأمّا خيرالدّين فاَستمرّ فسافر إلى حضرة السلطان فاَهتزَّ لقُدومِهِ، واستبشر به السلطان سليمان وأنزله في المحلّ الذي كان أُعِدَّ له أوّلاً، ووضع له الجِراية ونوّهَ بقدره تنويها عظيما.

سفر خيرالدّين في مراكب السلطان الأعظم إلى يولية

وقد كان السلطان أمر بتجهيز مائتي جفنا برسم السفر إلى يوليه[1] فلم يتهيأ من ذلك العدد إلاَّ ثلاثون فركب فيها خيرالدّين وسافر إلى ناحية يُوليه ونزل على حصن وأخذ في قِتَاله حتّى فتحه وأخذ ما فيه من الأسرى. وكان فصل الشتاء قريب فرجع إلى إِسلام بول[2]. ولمّا دخل فصل الرّبيع وكُملت عَمَارة الأجفان المذكورة، مع ثمانين جفنا أرسى بها برسم السلطان القُبطان باشا[3] وكان اَسمه لطف أن يُسافر هو وخيرالدّين في هذه العمارة إلى ناحية أولونيه. وأمّا السلطان فإنّه نهض إليها برًّا بجمله عساكره وعاث في أطرافها ونواحيها حتى استولى عليها الخراب وصارت

1. يولية أو أولونية Avlone, Valona, en Albanie, Olonia
2. اسم إسطنبول وصاحب المخطوط دائما يكتبها هكذا ..
3. قبطان L'Amiral .

أثرا بعد عين. وقد كان السلطان وجّه إلى مصر عشرين مركبا برسم حمل البشماط إلى العسكر فتخوّف عليهم خيرالدّين أن يطرقهم حادث من النّصارى في رجوعهم ففارق لُطف باشا وسافر إلى ناحية مصر لحماية مراكب السلطان من العدوّ ؛ وكان عدد أجفانه ستّين جفنا وقد كان في جفون يُقال له: الكرفاز عِدّة أجفان للعدوّ وحربية بندقية[1]. فلمّا رأوه مُقبلا ناحيتهم قالوا: " هذا بربروس جاء من إسطمبول إلى نواحي مصر فاَبتعدوا عن طريقه خوفا منه فصادفوا عمارة لطف باشا فاَستولى على جفنين وأغرق آخرين وذهب بقية الأجفان إلى الكرفاز مرّة أخرى، ثمّ رجع لُطف باشا إلى أولوينه وقد كان خرج منها وأقام بها ينتظر قدوم خيرالدّين عليه.

وأمّا خيرالدّين فإنّه لقِيَ السُّفن التي وردت من مصر بالبشماط[2] فرجع بها إلى أولونية ولقيَ في مرساها لطف باشا. ثمّ إنّهما سافرا إلى ناحية الكرفاز فعاث في أطرافه تخريبا وتحريقا ولم يُبق إلاّ الحصار. فرجع لطف باشا إلى إسطمبول واستأذنه خيرالدّين في اَستمراره على

1. نسبة إلى البندقية الواقعة على البحر الأدرياتيكي وهي أهمّ الثغور التجارية فازت في مسابقة جمهورية بيشة ولم تقو على مجاراة جنوة إلاّ لمّا استولى عليها الاختلال وصارت سيدة البحار إلى أن اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح بطرف إفريقيا الجنوبي الموصل إلى الهند واكتشفت قارة أمريكا فتحوّلت التجارة إلى هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية واشتهرت هذه الجمهورية بمحاربة العثمانيين الذين جردوها من جميع أملاكها شيئا فشيئا فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها بلاد مورة وفي سنة 1571 استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص وفي سنة 1696 فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد وكانتا تابعتين لها وفي سنة 1779 احتلها الفرنسيون ثمّ ضمّت إلى النمسا وفي سنة 1805 ضمت إلى إيطاليا وفي سنة 1815 عادت إلى النمسا وفي سنة 1884 ثارت عليها وتشكلت بهيئة جمهورية وفي المائة التالية أخضعتها النمسا ثانية لسلطانها وفي سنة 1859 تنازلت عنها النمسا إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وهو تنازل عنها إلى فكتور إمانويل ملك بيمونتي الذي صار فيما بعد ملك إيطاليا ولم تزل تابعة لإيطاليا حتى الآن..» تاريخ الدولة العلية، ص: 64 .

2. البشماط المؤونة والعامة عندنا بالجزائر من كبار السنّ ما تزال إلى يومنا هذا تقول للخبز اليابس البشماط.

السّفر فأذن له فسافر في ستّين جفنا إلى ناحية برور[1] وكانت بها قلعة مُحكمة البناء فنزل العسكر في البرِّ وأخذوا في حصارها ففتحوها في اليوم الرّابع ؛ وكان عدد نصارى هذه القلعة الذين استولوا عليهم أربعة آلاف وثمانمائة ؛ ثمّ إنّه نزل قلعة أخرى يقال لها قلعة مرتد[2] فاَستولى عليها، وكان عدد النصارى بها ألفين ومائتين وأحرق أجفانا كانت بها[3]، ثمّ إنّه نزل جزيرة خزنة الغِنى[4]، لم يُصادف خيرالدّين في محاربته للقلالم مثل هذه الجزيرة فبقي في قتالها أربعة عشر يوما، ثمّ إن الله أنزل نصره على طائفة المسلمين ففتحوا تلك الجزيرة واستولوا على ما فيها من الكفّار ؛ فكان عددهم أحد عشر ألفًا، وكان بتلك النّواحي جزيرة يتحكّم صاحبها في ستّة جزر[5] وكانت نيّة خيرالدّين أن ينزل العسكر بها فأخلاها الكفّار وذهبوا، فأرسل إليهم خيرالدّين أن يرجعوا إلى جزيرتهم ويُعاونوا بإعطاء الجِزية إلى السلطان، فرضي بذلك حاكم الجزيرة[6] وأرسل هديّة كبيرة إلى خيرالدّين وتوافقوا على خمسة آلاف دينار كلّ سنة، وكذلك الست جُزر التي تحت حُكمه تعطي خمسة آلاف دينار فأبى أهلُها ذلك فنزل لهم خيرالدّين واستولى على جُملة من قِلاعهم وفعل بهم أفاعيل عظيمة، ووجد في تلك المراسي سيُوفا للجنويز[7] موسوقة بالمِلف[8] وسائر السلع فأخذها وأرسلها إلى إِسطمبول وبقيَ مُدّة مسافرا في تلك النّواحي، ثمّ

1. Les Cotes de Prouvazen. سواحل بروفازن.

2. قلعة مرتدّ (Château de Renégat) .

3. كلّ هذه الأماكن توجد بسواحل ألبانيا .

4. – جزيرة خزنة الغنى (Khasnath-el-ghina (le trésor des Richesses.

5. - *L'une des Iles Tonnienes* .

6. حاكم الجزيرة الدّوق Le Duc .

7. يقصد للجنويين .

8. نوع من القماش النّاعم يلبسه علية القوم .

وأمّا بقية الأجفان التي خلّفها بإسطمبول فإنّ الوزراء جهّزوها إليه برجال ليعتدَّ بهم في خدمتها، فلحِقت الأجفان بَإشكانوس[1] ؛ ولمّا وصلت إليه الأجفان ورأى ما فيها من الرِّجال انكسف باله لذلك فأخذ اثني عشر جفنا منها وجعل فيها من لم ير تضامن رجالها وأرسل بها إلى كليولية[2] ووجّه إلى أكريبوز[3] سبعة عشر جفنا مشحونة برجال مقاتلين، فشرعوا في قتال الحِصن، وكان أهله[4] قد استعدّوا له فتعذّر عليهم فتحه، فسمع بذلك خيرالدّين فتوجّه إليه بنفسه فلمّا سمع أهل الحصن بقدومه ألقى الله الرّعب في قلوبهم وطلبوا منه الأمان فقبِل لهم بشرط أن يقدّموا للسلطان مائة غلام منهم، ومائة جارية وخمسة آلاف دينار لأهل الأجفان التي حاربتهم أوّلاً ؛ فلم يزالوا يتضرّعون إليه إلى أن قرّر عليهم خمسين غلاما ومثلها جوارٍ وثلاثة آلاف دينار فرضي بذلك وسافر عنهم إلى استنديل[5] وكان بها خليط من الرّوم[6] والكريد[7] ؛ وكان في هذه الجزيرة صنفٌ يُقال لهم: "فرنْك ؛ وكان الرّوم بهذه الجزيرة يؤدّون الجزية إلى السلطان فطلبوا الأمان من خيرالدّين بسبب ذلك، فقال لهم: لا أعطيكم الأمان حتّى تعطوني الفرنك الذين عندكم في هذه الجزيرة" ؛ فلمّا علموا أنّهم إن لم يُمكِّنوه منهم هلكوا بسببهم دفعوهم إليه، فأعطى عند ذلك

1. إشكانوس Eschkanous.
2. كليولية La Pouille.
3. أكريبوز Egripoz .
4. من الإغريق .
5. استنديل Standel .
6. المقصود بالرّوم هنا الإغريق .
7. نسبة إلى سكّان جزيرة كريد وهي جزيرة مشهورة بالبحر المتوسط ذات موقع حربي من الأهمّية على جانب عظيم لوجودها عند مدخل أرخبيل اليونان بحيث يكون المحتلّ لها كالقابض على بوغاز الدردنيل، احتلّها العرب مدّة من الزمان ثمّ استرجعها الرّوم سنة 961 ميلادية، وفي سنة 1204 أخذها البنادقة لمّا فتح الصليبيون مدينة الأستانة. وفتحها العثمانيون فيما بعد. أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 97 .

الأمان للرّوم وقدّر عليهم الجِزية في كلّ سنة ألف دينار ؛ ثمّ إنّه سافر إلى جزيرة يُقال لها سبلة فأرسى بها، فلمّا سمع حاكمها من النّصارى حمل إليه عددا من أسرى المسلمين كانوا عنده وقدّرَ عليه ألف دينار كلّ سنة ؛ ثمّ إنّه سافر إلى جزيرة غيريت[1]، وكان بها ثلاث قلاع للنّصارى وكثير من قُراهم فاَستولى على تلك القلاع والقُرى جميعا، وكان عدد الأسرى من هذه الجزيرة ما ينيفُ على خمسة عشر ألفا ؛ ثمّ إنّه سافر إلى جزيرة بقُربها فصالح أهلها على ألف دينار يؤدونها كلّ سنة، فكانت جملة الجزر التي استولى عليها خيرالدّين في هذه السّفْرة خمسة وعشرين جزيرة فرض على أثني عشر منها الجِزية وخرّب ثلاثة عشر منها.ثمّ إن خيرالدّين ذهب إلى أكربوز لتجديد البشماط[2] للعسكر لأنّه قد فرغ عليهم.

وكانت عَمَارة النّصارى من الصّبنيول[3] والبنادِقه قد وصلت إلى بالكرفاز[4] وعزموا على الاستيلاء على بروفازن[5] فسمع بذلك خيرالدّين فبعث إليها عِدّة من أجفانه يحرسونها، فرأوا هنالك أربعين جفنا للكُفّار فرجعوا إلى خيرالدّين يخبرونه بذلك، ورجعت أجفان الكُفّار إلى العَمَارة بالكرفاز يخبرونهم بذلك أيضا فقالوا: " إنّ عَمَارة بربروس بقربنا فاَنكسروا بسبب ذلك عمّا عزموا عليه من الاستيلاء على بروفازن "، فسافر إليها برسم حمايتها، فلمّا أرسى بها بعث أجفانه

1. جزيرة غيريت Sciri, Skiro, dans l'archipel, L'Ile de Ghirit.

2. البشماط كلمة تركية مدلولها هي مأؤونة الجيش وما يزال كبار السنّ عندنا بقسنطينة يسمون الخبز اليابس البشماط..

3. هكذا وردت في المخطوط وتعني الإسبانيين .

4. الكرفاز هو Carfou .

5. برفازن Prouvazen.

للتجسُّسِ على عَمَامرة النّصارى فأخذوا بعض القوارب وسألوا أهلها عن العَمَارة فأخبروهم أنّها بالكرفاز، وأنّها متوجّهة إلى براوزن فرجعوا بهم إلى خيرالدّين، وأخبروه أيضا بحديث العَمَارة، فبعث أهل هذه القوارب إلى السلطان المستقر إذاك في أذرفة. ومُراد خيرالدّين بتوجيهه لهؤلاء النّصارى إليه ليخبروه بخبر العَمَارة فيدعوا إليه بالنّصر والظّفرِ ؛ ولمّا سمعت عَمَارة النّصارى بأن خيرالدّين وصل إلى براوزن تردّد رأيهم في السّفر إليها والرّجوع إلى بلادهم ؛ ثمّ استقرّ رأيهم على السّفر إليها فوصلوها وقت العصر وأرسوا وراء جون هنالك ؛ ولمّا علِم خيرالدّين بِقدوم العمارة أمر بإنزال المدافع إلى البَرِّ ونصبها وراء سفنه لتردّ عنها عَمَارة النّصارى إن قصدتها ؛ وكان سِنان رايس وجماعة من الرؤساء دخلهم الرُّعب لِمَا رأوا من كثرة أجفان العدوّ، فجعلوا يفكِّرون في الأمر فظهر لهم أن يحملوا المدافع إلى ذلك الجون الذي أرسى به النّصارى يمنعونهم بذلك من النّزول ؛ لأنّهم اعتقدوا أنّ النّصارى يحاربونهم في البرِّ، فذهبوا إلى خيرالدّين يأخذون رأيه في ذلك فوجدوه أنزل المدافع لحماية السّفن كما تقدّم ذكره، ويكون الرّمي متواصلا على النّصارى برًّا وبحرا، فاستأذنه الرّؤساء في حمل المدافع إلى ذلك الجون على حَسَب ما ظهر لهم من الرّأي فلم يُعجبه رأيهم وقال لهم: " تذهبون إلى ذلك الجون وليس لكم هنالك محلّ تستترون به من مدافعهم ؛ لأنّه فضاء واسع وكذلك تبقى أجفاننا هنا خالية من العسكر فربّما هجم عليها العدوّ فاستولى عليها لأنّهم في أحد عشر مائة واثنين وستين جفنا ما بين صغار وكبار، والرّأي عندي أن نجلس في مكاننا هذا فإذا نزلوا بذلك الجون واشتغلوا برمي المدافع على عادتهم في ذلك هجمنا على

فلمّا كان الصّباح ظهر للنّصارى أنّ عسكر المسلمين كلّه في ذلك الجون فأدخلوا أجفانهم إلى البرّ وجعلوا يرمون بالمدافع على العسكر؛ وكان ذلك الموضع فضاء واسعا وكانت الكور[1] تنزل على العسكر، وظهر لهم ما قال لهم خيرالدّين من تقبيح رأيهم واعتراضه عليهم فيما اختاروه من النّزول بذلك الجون ؛ ولمّا رأى مراد باشا ما فعل جفن العدوّ سار إليه وشرع في قتاله ولحق بهم جماعة من الرّؤساء في أجفانهم، فعند ذلك رجع جفن العدوّ للعَمَارة وانعكس الكرب عن العسكر الذين في البرِّ فعند ذلك رجع مُراد باشا ومن معه إلى عَمَارة المسلمين، ولمّا رأى خيرالدّين أنّ عَمَارة العدوّ قصدوا لطلب أجفانهم حين خرجوا إلى ذلك الجفن الذي كان يرمي على المسلمين في البرّ ورجوعه منهزما إلى العمارة. مرّ أجفان المسلمين قرب أقدامه وأدركته الحميّة كما هو المعهود منه في تلك المواطن، فأمر بضرب الطّبُول ونصب الألوية وأجهر بالتكبير، وكان عدد أجفانه مائة وثلاثين جفنا فأمرهم أن يرموا بمدافعهم دفعة واحدة فحصل بذلك ضجة عظيمة لا يمكن التعبير عنها، فسكن الرُّعب قلب أندري André وانكسر عن ملاقاة المسلمين فأمر بإقلاع أجفانه عن ذلك الجون[2] وسافر إلى حال سبيله، وكان ذلك كلّه ببركة خيرالدّين وحسن رأيه، ثمّ سار أجفان المسلمين في طلب أجفان العدوّ، ثمّ إنّهم رجعوا إلى محلّهم ورجع العسكر الذي كان في ذلك الجون إلى العمارة وأمرهم خيرالدّين بالاستعداد لئلاّ تهجم عليهم أجفان العدوّ على حين غَفلة.

1. الكور هي قذائف المدافع.
2. كلّ ما يحجب البصر مثل صخرة أو هضبة.

قلعة بخت فصمّم عزمه على طلبها وأقلع عن ذلك المرسى متوجّها إليها. ولمّا اجتازت عمارة النّصارى على هذه المرسى الذي كان بها خيرالدّين صعد بعض النّصارى إلى الصّاري الأعظم ونظروا يمينا وشمالا فلاحت له عمارة خيرالدّين على بُعد، فنزل وأعلم أندري André بذلك، فعلم اللّعين أنّ خيرالدّين لا يترك طلبه ولا يتخلّى عنه فاتّفق رأيه ورأي أصحابه على طلب خيرالدّين فسافروا متوجّهين في طلبه فصادفوا حين خرجوا من ذلك المرسى أنّه في طلبهم فاستبقت أجفان العدوّ لقتاله وخربت بعض أجفان المسلمين؛ وكانت أجفان الكفّار وعدد ما فيها من المُقاتلة بحيث لو قوبلت بأجفان المسلمين ومن فيها من العدد لكانت ضعفها ثلاث مرّات، وكان عسكر الغُزاة خامرهم رعب من العدوّ لكثرته وكثرة أجفانه، ثمّ إنّهم أخلصوا نيّتهم لله عزّ وجلّ وصمّموا على اللّقاء، وكان البحر ذلك اليوم مضطربا كثير التموّج ؛ فيُقال إنّ خيرالدّين رسَم بعض الآيات الكريمة في جانبي جفنه فسكن البحر بقدرة الله تعالى وهدأت أمواجه فتفاءل بذلك المسلمون وعلموا أنّ ذلك علامة النّصر ؛ ولم تزل عَمَارة المسلمين تدنو من عَمَارة النّصارى حتّى قربوا منها وأخذ الفريقان في القتال ؛ وكان النّصارى يزعمون أن كلّ جفن من أجفانهم يقابل خمسين جفنا، وعدد أجفان المسلمين مائة جفن، فيكون جفنان في مُقاتلتها والباقي من أجفانهم لا يحتاج إلى قتال معتمدين في ذلك على قوّتهم وكثرة عدّتهم وما عندهم من الآلات الحربية التي لا يحيط بها الحصْر. وقد قِيل في المثل: " ولو كلّ ما يتمنّاه الإنسان يحصل عليه لصار كلّ واحد سلطانا "؛ ثمّ إن جفنا من أجفان الكُفّار تقدّم إلى أجفان المسلمين وأخذ يرمي عليهم بالمدافع ورجع إلى العَمَارة فحميَ عند

ذلك القِتال من الجانبين وهلك فيها جماعة من الفريقين، وغرقت عدّة أجفان من العمارتين، ثمّ إنّ أغربة العدوّ ظهر عليهم الفشل فتترسوا[1] بالسُّفن الكبار وصاروا يرمون دفعة على عَمَارة المسلمين حتّى أظلم الجوّ من كثرة الدّخان وصارت أصوات المدافع كالصّواعق تتوالَى فيُقال: إنّ الكُور تتصادم مع بعضها بحيث تشْتعل النّار من تصادم الكورتين.

وهجم خيرالدّين على أغربة النّصارى ثلاث مرّات عن اليمين والشّمال قاصدًا بذلك أن يقطعهم فجعلوا يُراوغون أمامه كالثعالب ويتترّسون بالسُّفنِ ؛ ثمّ إنّ خيرالدّين شرع في الدّعاء والتضرّع إلى الله سبحانه وتعالى في( ) [2] النّصارى على المسلمين، وألقى الله الرّعب في قُلوب الكُفّار ولاصقوا أجفان العدو فانحرق بعضا ؛ ثمّ إنّ النّصارى كادوا للمسلمين بمكيدة فانَقسموا إلى قسمين وجعلوا طريق عَمَارة المسلمين في وسطهما ظنًّا منهم أنّ المسلمين قد استولوا على بعض أجفانهم وانشغلوا بنهبها فهجموا على عَمَارتهم وأخذوها دفعة واحدة.

ولمّا دخل خيرالدّين بعمارته بين الصّفين لم يشتغِلْ سوى بالقِتال وتغريق أجفان العدوّ ولم يلتفتْ المسلمون إلى نَهْبِ ولا أخْذ شيء من أسباب الكُفّار؛ وكان بعض أجفان العدوّ إذا أغرقها خيرالدّين وسقطت في البحر ذهب بعضهم إلى عمارة النّصارى وبعضهم إلى عمارة المسلمين يلتمسون منهم أن يحملوهم معهم وكان المسلمون يعرضون عنهم ويتركونهم في البحر ولم يزل القِتال بين الفريقين إلى وقت العصر.

---

1. يجعلون منها متارس تقيهم الهجمات وكور المدافع.
2. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 100 .

ولمّا رأى النّصارى ما حلّ بأجفانِهم من خيرالدّين من التغريق والاستيلاء علموا أنّهم لا طاقة لهم به فأخذوا في الفِرار بين يديه، وحين رأى خيرالدّين ذلك منهم أخذ في اَتّباعهم واستولى على جفنين منهم فعند ذلك غشيهم اللّيل ؛ وكانت تلك الليلة مطيرة ذات رعد وبرق فتغيّر البحر واضطربت أمواجه فرجع خيرالدّين إلى الموضع الذي كان فيه ؛ وكان قد استولى من عَمَارة النّصارى على أسباب كثيرة وأكابرَ منهم من جملتهم رايسان عظيمان فوجّه بالجميع إلى حضرة السلطان وكتب له بجميع ما وقع له مع النّصارى ؛ ثمّ إنّه رجع إلى إسطمبول في جميع عمارته مُؤيّدًا منصورا.

وأمّا عمارة النّصارى لمّا انهزمت بين يدي خيرالدّين قصدت بعض القِلاع يُقال لها «قوية» وكانت للمسلمين بعلم خيرالدّين، فقصدهم مسافرا لحمايتها، فرأى على بُعد جفنا من عمارة النّصارى يتجسّس عليه ورآه الجفن أيضا فذهب إلى العَمَارة يخبرهم بخبره ؛ فلمّا سمعوا بخبره علموا أنّه قاصدا إلى تلك النّاحية التي هم بها فصرفُوا وُجُوههم إذّاك إلى أولونية ؛ وكان خيرالدّين لمّا رآه الجفن المتجسّس عليه علم أنّ أندري André بعمارته في تلك النّاحية فأراد المسير إليهم فصرفه عن ذلك ريح واضطراب البحر فصرف وجهه إلى أولونية فوصلها، ولمّا سكن البحر وهدأت أمواجه علموا أن خيرالدّين صرفه الرّيح عن ناحيتهم فصرفوا وجهتهم إلى قلعة نوفية[1] ؛ فلمّا أرسوا بها نزلت مقاتلتهم إلى البرّ وشرعوا في قتالها، ولم يزالوا يُقاتلونها إلى أن استولوا عليها وفرَّ من كان فيها من المسلمين، فإنَّ لله وإنّا إليه راجعون، وجعلوا فيها ستّة آلاف

---

1. قلعة نوفية Castel Niva en Albanie, Neviat.

من النّصارى ؛ ولمّا سمع بذلك خيرالدّين علم أن الوقت لا يسعه إلى السّفر إليها لإدراك فصّل الشتاء فأخّر ذلك إلى الوقت المعهود إلى السّفر. ورجع إلى الحضرة ولمّا سمع برجوعه أندري دوريا رجع هو إلى بلاده أيضا، ولمّا وصل خيرالدّين إلى حضرة السلطان وجّه إليه هدية عظيمة وخلع عليه السلطان خلعة سنيّة واشتغل في خدمته المقرّرة له، ولمّا دخل فصل الربيع وطاب الركوب في البحر جهّز خيرالدّين مائة وخمسين جفنا بما تحتاج إليه فسافر فيها برسم الجهاد فأرسى على نوفية، وقد تقدّم خبر استيلاء النصارى عليها فأنزل خيرالدّين عسكر الغزاة إلى البرّ وأنزل جملة من المدافع نصبها على القلعة وشرع في قتالها برّا وبحرا، فبقي في قتالها اثنين وعشرين يوما ؛ وكان جملة ما رمى عليها من المدافع ثمانية آلاف ومائتين وسبع وعشرين مدفعا، وكان بها حصنان استولى عليهما قبل القلعة، ولم يزل في قتالها بعد ما أحاط بها من كلّ ناحية حتّى استولى عليها وعلى ما فيها من النصارى ورجع إلى الحضرة مؤيدا منصورا ؛ ولمّا سمع السلطان باستيلاء خيرالدّين على قلعة نوفية[1]وعلى ما فيها من النصارى حزنوا عليهم حزنا عظيما، ولمّا كانت سنة أربعين وتسعمائة (940 / 1533)[2]عزم السلطان سليمان على غزو بودون[3] فسافر إليها وفتحها، وخرج خيرالدّين

---

1. قلعة نوفية Neviat.

2. في كتاب : Histoire de Barberousse جاء سنة 1540/947.

3. هي مدينة Bude وهي مدينة قديمة على نهر الطونة في مقابل مدينة بوست وتبعد عن مدينة ويانة نحو مائتي كيلومتر وكان بينها وبين بوست جسر أقيم على عدة مراكب ثم أنشئ مكانه جسر حديد على الطراز الجديد وهي تعتبر قاعدة مملكة المجر ،أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 86 .وجاء في تاريخ برباروس: «...Bude; Suliman il s'empara de cette ville en 1526 Ferdinand d'Autriche la ruprit durant la même année. Suliman s'en rendit de nouveau maitre en 1529 et la donna à Jeau Zapot-Vaivoude,de Transilvania; mais celui-ci etant mort en 1541, Suliman y établit un pacha d'après les faits exposés ici a voit que le recit de la délivrance de Bude et de la mort de Kerondos coincident parfaitement avec ce que nous venons de dire au sujet de Jean Zapot. Nous ferons encore un remarque; c'est la seul fois dans le courant de cette chronique qu'une femme est mise en scéne. vol: 2, p: 46 .

بسبعين جفنا يجاهد فيها وهي المعبّر عنها بالغليطة[1] فاستولى على قلاع كثيرة للنصارى وعاث في تلك النواحي تحريقا وتخريبا ؛ وكان السلطان لمّا فتح بودون[2] وترك حاكمها من النصارى[3] فيها ؛ وكان هذا الحاكم اسمه بلسان الرّوم أكراندوس[4]فبقي بها مدّة يؤدّي الجزية إلى السلطان، فلمّا مات وعلم بموته سلطان الألمان من الكفار تحرك إلى بودون في عسكره برسم أخذها ؛ وكان الحاكم لها لمّا توفي قامت زوجته مقامه في النّظر على تلك البلاد[5] تنتظر ما يأمر به السلطان في شأن بودون، وحصّنت البلاد لمّا سمعت بسلطان الألمان قد قدم إليها ؛ فلمّا وصل إلى بودون ورأى المرأة قد حصّنت البلاد منه وعزمت على قتاله بعث إليها يلومها ويقول لها : "كيف بك تجنحين إلى سلطان التّرك وتمنعين البلاد منّي، والحال أنّ ديننا واحد فاخرجي من البلاد وأنا أعوضك عنها ناحية من نواحيَّ ؟" فأبت ذلك وقالت لا أخون أمانتي لأنّ هذه البلاد فتحها السلطان سليمان ودنّا له بإعطاء الجزية وبقينا على ذلك إلى أن توفي زوجي فقمت أنا مقامه حتّى يبعث السلطان إليها حاكما من قبله ؟ والسلطان سليمان إذا سمع بموت أكراندوس لا بدّ أن يوجّه إليها حاكما فإذا أعطيتك هذه القلعة وجاء الحاكم من قبل السلطان سليمان فما يكون جوابي له ؟ وقد أكّد

---

1. جاء في كتاب تاريخ برباروس: «... qu'on nomme vulgairement Galiotes vol: 2, p: 47».

2. - جاء في تاريخ برباروس: «L'an de l'Hegire 947 le Sultan Suliman s'en alla faire la guerre en Hongrie, et chassa les Allemands qui faisaient le siège de Boudoun. vol: 2, p :46. دخلها السلطان سليمان فاتحا في 3 ذي الحجة سنة 932 الموافق 10 سبتمبر سنة 1526. أنظر تفاصيل أكثر في كتاب تاريخ الدولة العلية، ص: 86 – 87 .

3. يقول مؤرخ الدولة العلية :« ... وبعد دخول السلطان إلى مدينة بود جمع أعيان القوم وأمرهم ووعدهم بأن يعين جان زابولي أمير ترانسلفانيا ملكا عليهم ثم عاد إلى مقرّ الخلافة مستصحبا معه كثيرا من نفائس البلاد وأهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن متياس كورفن» ...» ص: 86 .

4. - Kerandos .

5. المقصود بتلك البلاد المجر .

عليّ أكراندوس الوصيّة عند حضور أجله بأنّ هذه القلعة أمانة في يدي فإذا متّ فاحفظيها حتّى تؤدّيها إلى يد صاحبها وإن خنت هذه الأمانة فأطالبك بذلك يوم القيامة ؟ ومن جملة ما دار بينهما من الخطاب، قالت المرأة له : " إنّ هذه القلعة لا يصلها أحد حتّى يصلها حافظ من قبل السلطان، وأنت إن قدرت على أخذها من يدي فدونك وإياها، ولمّا يئس هذا السلطان الكافر من أخذ هذه القلعة من يد المرأة شرع في قتالها ؛ ولمّا عجزت المرأة عن مدافعته وجّهت للسلطان رسولا من قبلها فتوجّه السلطان إليها بنفسه.

ولمّا سمع طاغية إسبانيا[1] بموت حاكم بودون[2] ومحاصرة سلطان الألمان[3] إليها وجّه لنصرته عسكرا في البرّ وسبعين جفنا في البحر فيها من المقاتلة اثني عشر ألفا، وعندما سمع أنّ السلطان توجّه إليها أمر برجوع العسكر الذين له وظهر له أن يجهّز عمارة كبيرة يوجّهها إلى إقليم الرّوم ينتهز بذلك الفرصة في غيبة السلطان سليمان ؛ وكانت أجفانه السبعون قد دخلت الكرفاز[4] وسافرت منه إلى إقليم الرّوم فاستولت على بعض القلاع به فأطاعوه ذلك حتّى شرع في تجهيز العمارة التي أشرت إليها ؛ ولمّا تمّ ما أراده من هذه العمارة سافر قاصدا إلى بلاد السلطان سليمان، وكان الطّاغية في أثناء سفره سمع بأنّ خيرالدّين سافر بعمارة السلطان عازما على الغزو فخشي الطّاغية على عمارته منه فأمرها بالرّجوع ؛ ولمّا رجعت عمارته عزم على التوجّه بها إلى الجزائر فضاعف في عدد

1. الملك شارلكان.

2. هنا يكتبها صاحب المخطوط صحيحة بحرف النون في آخرها بعدما كان يكتبها فيما سبق بالميم في آخرها.

3. يكتب صاحب المخطوط دائما الألمان هكذا «اليمان» . المخطوط، ص: 102 .

4. Carfou

الأجفان والرّجال والآلة الحربية ؛ وقد تقدّم أنّ هذا الطّاغية والذي قبله[5] تجرّعا غصصا كثيرة من غزوات خيرالدّين وفتكاته بأجفانهما في البحر واستيلائه على الحصن المجاور للجزائر[6]، وقد تقدّم جميع ذلك مُستوفى.

وكان خيرالدّين لمّا سافر من الجزائر إلى إسطمبول ترك بها نائبا عنه، وكان اسمه علي آغا[7] ؛ وكان رجلا عاقلا حازما سديد الرّأي جيّد التّدبير، وكان له حظّ من العلم والصّلاح، كريم النّفس سخيّا بالمال باذلا للمعروف، يُراعي العلماء والصّلحاء وأهل الخير، مع العدل الشّامل والاهتمام بأحوال الرعيّة ولذلك تفرّس فيه خيرالدّين وجعله نائبا عنه لِمَا احتوى عليه من هذه المناقب العظيمة فصارت له بذلك محبّة عظيمة في قلوب أهل البلاد ؛ وكان أنشأ أحدى وثلاثين غلياطة [8] بعد انتقال خيرالدّين من الجزائر فاشتدّت بذلك وطأته على أهل إسبانيا واحتوى على الكثير من أجفانهم وعاث في أطراف سواحلهم، وفعل بهم ما كان يفعله بهم خيرالدّين وأكثر، فرأى الطّاغية أن يتوجّه إلى الجزائر بتلك العمارة التي أسلفنا ذكرها وأخفى هذا الخبر مكيدة منهم، وهي عادة باقية عندهم إلى الآن [9]إذا وجّهوا عمارة إلى ساحل من السواحل فإنّهم

5. يقصد شارلكان ومن قبله فارديناند .

6. يقصد حصن «البنيون» El Penon أي الصخرة الذي هدمه خيرالدّين سنة 1529 .

7. يظهر أنّه خطأ من قبل صاحب المخطوط فهو احسن آغا وليس علي آغا، ونجد في صفحة 301 من المخطوط يتدارك الخطأ ويذكر احسن آغا بدل على آغا ومن هنا يتّفق مع كتاب: Histoire de Barberousse الذي جاء فيه التعريف بحسن آغا كالآتي:

«Hassan-Aga avait été enlevé, encore enfant, sur les cotes de Sardaigne, pendant qu'il gardait les moutons. Eunuque et rénégat , il s'etait avancé dans les hommes gràces rites particulières de Khaire-ed-din. Les Arabes lui attribuent la prise de Biscura, de Mostaganem et de Tlémcen ... Vol.2, p :52.

8. سبق التعريف بها .

9. هذه إشارة تدلّ أنّ صاحب المخطوط قريب العهد بتلك الأحداث .

كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكذلك هذه النّوبة إن شاء الله، ومع ذلك: " يا أهل الجزائر فقد تعيّن الجهاد علينا معشر المسلمين كفرض الحياة الدّنيا بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل درجة الشهادة ؛ فقد قال تعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصّابرين»[1] وقد وعد الله تعالى بإحدى الحسنيين: إمّا الظّفر وإمّا الشهادة، وقد كتب الله علينا الموت وكتب علينا البقاء فلا بدّ يموت الإنسان مجاهدا صابرا قانعا بنفسه من الله خيرا من أن يموت حتف أنفه، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «الجنّة تحت ظلال السيوف»[2]، وقد ورد أنّ سيوف المجاهدين معلّقة في العرش ويا لها من كرامة، وقد ساق الله إلى بلادنا وأكرمنا الله بهذه الكرامة العظمى فهنيئا لمن سقاه الله كأس الشهادة وختم له بشرابها، وإنّ هذه المدينة منعناها من الكفّار سابقا وكذلك نمنعها لاحقا إن شاء الله تعالى، فلا يتمّ للكفَرَة فيها غرض بحول الله وقوّته، وغاية ما يتأتّى لهم أن يطاولونا ونطاولهم وتأتينا في خلال ذلك نصرة سلطاننا الأعظم[3] أو من خيرالدّين باشا " ؛ فحصلت لأهل الجزائر قوّة عظيمة بكلام احسن آغا ووطّنوا نفوسهم على جهاد العدوّ فعند ذلك فتح خزائن السلاح ووزّعه على أهل المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرّصاص، فعند ذلك أخذوا في الدّعاء إلى الله تبارك وتعالى والتضرّع إليه في نصرهم على عدوّ الدّين، وجعل احسن آغا في كلّ برج من أبراج الجزائر الطّبول والأنفرة[4]

---

1. من قوله تعالى: «فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف بيده فشربوا منه إلاّ قليلا منهم فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. »سورة البقر، آية 249 .

2. حديث نبوي صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم الحديث: 1012 .

3. المقصود السلطان العثماني سليمان القانوني .

4. جمع نفير ؛ وهي نوع من المزامير ترافق دقّ طبول الحرب .

فهدرت تلك الطّبول وزعقت تلك الأنفرة حتّى عمّت آفاق الجزائر، ونصب ألويته المظفورة على تلك الأبراج وعلى أسوار المدينة.

وأمّا النصارى فإنّهم شرعوا في النّزول إلى البرّ وأنزلوا جميع آلاتهم الحربية وصنعوا متراسا هائلا ؛ وحين رأى الطّاغية استعداد صاحب البلد لقتاله استضعف عقله وقال لخواصّه : " أنظروا إلى صاحب الجزائر كيف حدّثته نفسه بقتالنا ومدافعتنا على أخذ البلد، وهل هي إلاّ جولة وتكون تحت أيدينا، فكيف يقاتلني هذا الرّجل مع كثرة عسكري، وهل هؤلاء الشرذمة القليلة من الأتراك، وطائفة من أهل البلاد لا خبرة لهم بالقتال، كان من حقّ هذا الرّجل أن يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من أبناء جنسه ويخلّي بيني وبين البلد ؟ وأقسم اللّعين بما يعتقده من دينه أنّه لا بدّ أن يستولي على الجزائر ويخرّبها حجرا حجرا ويمحو أثر الإسلام منها ؛ وكتب في أثناء ذلك كتابا إلى احسن آغا يقول فيه: «أيّها الرّجل أنت خادم من خدّام برباروس، وأنا ملك إسبانيا بأسرها، وجميع بلاد النصارى تحت طاعتي فكيف تدّثك نفسك بمقابلتي، أما تعرف أنّي استوليت على مدينة تونس وأزحت منها بربروس وهو لا يصدّق النّجاة بنفسه[1]، وهي أعظم من الجزائر شأنا وأحصن بنيانا، وما أقمت عليها إلاّ مدّة قليلة حتّى دخلتها عنوة بسيفي وخرج عنها سيّدك هاربا فتحقّق إنّ هذه المدينة سأملكها كما ملكت مدينة تونس، كيف وقد قدمت إليها بنفسي، أيمكن أن أرجع إلى بلادي ولم أحصل على الجزائر، وإن لم يمكن أخذها في هذه الدّفعة سأطيل حصارها شتاء هذه السنة فمعي من الزّاد والمال ما يكفي هذا العسكر الذي معي وإن احتجت إلى المراد فبلادي قريبة فكلّ ما أحتاج إليه يصلني في أقرب مدّة، وقد بذلت لك الأمان هذه المرّة فإن قبلته فبها،

1. على هذه الشاكلة جاءت صياغة الجملة في المخطوط، ص: 104.

وإن لم تقبله وشرعت في الدّفاع عن المدينة ورهانك قتالنا عن أن تطلب الأمان منّا فإنّا لا نبذله لك، فانظر لنفسك ودبّر على من معك فإنّك إن عاندت ورفعت رأسك ولم تصل إلى ما دعوتك إليه أمرت العسكر يهجمون على المدينة هجمة واحدة ويقلعونها حجرا حجرا ويقتلوا كلّ من فيها من كبير وصغير وها أنا قد أعددت إليك ؟".

قالوا: وأتى رسول اللّعين بهذا الكتاب ظاهرا في نخوة زائدة وأبّهة عظيمة لقوّة مُرسله، فوصل إلى احسن آغا ودفع له كتاب الطّاغية فلمّا قرأه أمر أن يكتب إليه كتابا يقول فيه: «يا كلب النّصرانية كيف حدّثتك نفسك أنّك ملك من الملوك، وأنّك في مقام السلاطين العظام الذين دانت لهم الدنيا، وهل أنت إلاّ كلب من كلاب النصارى أضعف ما في بلاد البربرية[1] من القلاع لا تقدر على أخذها فكيف بمدينة الجزائر، ولو سمع بك سيّدنا السلطان الأعظم لأرسل إليك عبدا من عبيده بشرذمة من عسكره يستأصلك ومن معك، ومع ذلك فإنّ في عسكر الجزائر ما يقابلك وسترى عاقبة أمرك، فاجتهد جهدك غير موفّق ولا مسدّد، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدّار، وقد استدلّينا بكتابك على قلّة عقلك بأنّ الإنسان لا يفتخر بشيء حتّى يفعله، وقد أتيتم إلى هذه المدينة مرّتين: مرّة في مدّة عرّوج رايس، ومرّة في مدّة خيرالدّين وقد سوّد الله وجوهكم في المرّتين، وهذه المرّة كذلك إن شاء الله. وختم الكتاب، وأعطاه للرّومي الذي وجّهه به الطّاغية.

فلمّا وصل به للطّاغية، وكان الكتاب بلسان التّرك[2] فأمر أن يترجم له، وحين فهمه استشاط اللّعين غيظا، وقام وقعد لهذا الكتاب وأمر بإنزال المدافع، وعند ذلك دبّر احسن آغا مع أهل المدينة بأن يخرج للنصارى

1. مثل هذه التعابير تؤكد أنّ الكتاب مترجم من لغة أجنبية.
2. هذه إشارة هامّة تدلّ على أنّ المراسلات الرّسمية تعتمد اللغة التركية.

ليلا ويهجم عليهم في محلّ نزولهم لينتهز بذلك فيهم فرصة ويكسر شوكتهم بذلك، فصوّب العسكر وأهل المدينة راية وانتخب من عسكره ستة مائة مقاتل من الرّجال المعدودين لمثل هذا اليوم، وجعل معهم ألف فارس أمثالهم في النّخوة.

فلمّا كان الرّبع الأخير من اللّيل فتحوا أبواب المدينة وخرجوا إلى النصارى من ناحية واحدة ؛ فلمّا قربوهم كبّروا بصوت عال ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ؛ وكان الكفّار بين نائم وسكران وناعس فاعتقد النصارى، لعنهم الله، أنّ المسلمين خالطوهم فأخذوا سلاحهم وجعلوا يقتلون بعضهم بعضا والمسلمون على بعد يواصلون الرّمي عليهم ؛ ولم يزل ذلك إلى أن انبلج صباح هذه اللّيلة، فعند ذلك رجع المسلمون إلى المدينة وافتقد الكفّار من الصّبيحة التي وقعت لهم في اللّيل فوجدوا عدد المقتولين أكثر من ثلاثة آلاف فانكسروا لذلك، وحصل لهم حزن عظيم بسبب من قتل منهم، وحصل للطّاغية من ذلك تغيّر عظيم ؛ فعند ذلك هاج اللّعين واشتدّ غضبه وأمر بنصب المدافع على المدينة وكان عدّتها مائتي مدفع، وشرعوا في الرّمي على المدينة من المحلّ الذي يُعرف بكُدْية الصّابون[1] وبقي على ذلك أيّاما وأهل المدينة يقاتلونهم على الأسوار ؛ ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قد أدرك أهل الجزائر بلطفه الخفيّ فهاجت الرّياح وساقت السحاب مثل الجبال وأمطرت السماء بمطر كالطّوفان، وهاج البحر وتحرّكت أمواجه واشتدّ اضطرابه بما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تنكف يمينا وشمالا، هذا والبحر في الزّيادة والأمواج تتراكم كالجبال فغرق كثير من سفنهم وعُطب

---

1. كدية الصابون:

«La coline de savon; c'est la hauteur ou se trouve aujourd'hui le Fort d'Empereur qui tire son nom, comme chacun sait, du choix que fit Charles-Quint de ce lieu pour y faire camper son armée. Les indigenes le nommnt Sultan-kal-aci, chateau de sultan … Vol: 2; p: 62 .

على السّاحل سفن كثيرة فعند ذلك دهش الكفّار وتحيّروا خصوصا من نزل في البرّ منهم فإنّه خُيّل لهم أنّ القيامة قد قامت من كثرة الرّياح والأمطار والصّواعق والرّعود فلم يقدروا على الرّمي بمدفع واحد ولا بمكحلة[1]؛ وحين رأى احسن آغا ما هيّأه الله لأهل الجزائر من نُصرته خرج في جملة عسكره وأهل المدينة طالبين النصارى فوقع بينهم قتال عظيم ودافع النصارى عن أنفسهم دفاعا قويّا ؛ وكان مع الطّاغية لعنه الله عشرين ألفا لحمايته لم يباشروا قتالا فهمَّ المسلمون عليهم وقاتلوهم قتالا عظيما مِقدار ساعتين، وتأخّر المسلمون قليلا إلى المدينة بعد ما وفّوا ذلك اليوم حقّه من جهاد الكفّار ؛ فدخلوا المدينة وألوية النّصر تخفق عليهم، ومات في هذا اليوم من الكفّار قتلى أزيد من أربعة آلاف واستشهد مائتين من المسلمين ختم الله لهم بالشّهادة.

ولمّا رأى الكفّار ما حلّ بهم في هذا اليوم من سيوف المسلمين[2]، مع ما هم فيه من شدّة البرد وتراكم المطر الغزير، وعطب مراكبهم تضاعف حزنهم واشتدّ قلقهم وعلموا أنّهم وقعوا في ورطة عظيمة ؛ وكانوا حين نزلوا إلى البرّ لم يُنزلوا معهم من الزّاد إلاّ ما يكفيهم مدّة قليلة ظنّا منهم أنّهم لا يحول بينهم وبين سفنهم حائل، ولمّا نزل بهم هذا الطّوفان، وهاج البحر ذلك الهيجان الذي عطبت به مراكبهم حال بينهم وبين سفنهم[3] الزاد فبقوا ثلاثة أيام في البرّ في جوع عظيم حتّى آل بهم الأمر إلى أن ذبحوا خيلهم وأكلوها، وكانت عدّة ما غرق من أجفانهم المعدّة للحرب، ومجمل الزّاد والآلات الحربية مائة وثلاثين جفنا، ودخل أربعة منهم إلى المرسى وخلص

---

1. بندقية .
2. أنظر وصف هذه المعركة المصيرية في كتاب شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 – 1541)، ترجمة جمال حمادنة، من صفحة 91 إلى 98 .
3. يكتب صاحب المخطوط، سفونهم حسب النطق الجزائري، المخطوط، ص: 107 .

شرقا وشمالا غربا لا يحصيهم [illegible] [1] وكان دخولهم في سفينة للانصراف يوم الأربعاء ثاني عشر رجب ([illegible]) وسافروا يوم الخميس ثالث عشر منه ([illegible]) وغرق السفن التي بقي من سلاحهم [illegible] [illegible] منها وقت بعضها في أثناء السفر وأما خيله التي جاء بها فهي أربعة الآف فلم ينج منها فرسا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في البحر الذي وقعوا فيه وقتلوا بعضا بأيديهم [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] رجالهم فكيف من رفع سيفهم ! وسافر النصارى إلى بلاده بالخيبة الكبرى وفرح الله سبحانه وتعالى عن أهل الجزائر وصار [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بعد رجوعه إلى بلاده ثم إن [illegible] [illegible] [illegible] كتابا إلى الديوان العالي يخبرهم فيه كيف نجا الله سبحانه وتعالى أهل الجزائر من عدوهم وكيف نصرهم عليه ! [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى حضرة السلطان وأما [illegible] إلى [illegible] [illegible] وصار إلى [illegible] [illegible] وقيل مائة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [2] وسائر أسوار المدينة [illegible] [illegible] [illegible] إلى حضرة السلطان [illegible] الرسول الذي أتى من الجزائر إلى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الجزائر بهذه القضية وبالكتاب الذي وجه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وأوصله إلى السلطان وبلغه في أثناء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وجه إليه السلطان [illegible] [illegible] وأمر [illegible] [illegible] [illegible] إلى [illegible] السلطان [3] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أهل الجزائر

[illegible]

وأمّا الرّسول الذي توجّه إلى السلطان فإنّه وصل الإنعام لهم الجوائز والبشارات[1] وسافر إلى مدينة الجزائر فوصلوها واجتمع باحسن آغا فنصب ديوانا عظيما قرأ فيه أمرية السلطان الذي بعث وألبس الخلعة[2] التي أتت إليه، وكذلك ألبس أعيان الجزائر الخلع التي وصلت إليهم، فدعوا للسلطان بطول البقاء، وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليّها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار، ولم يبق لهم عدوّ يخافون منه، وشاعت هذه القضيّة في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفّار مدّة طويلة.

انتهى ما وجد والحمد لله.

يقال إنّ سبب قدوم الانبلادور [3] إلى الجزائر [4]

إنّه عمّر[5] مركبا من مراكبه وأوسقه بالمال والسّلع وبعثها إلى وهران[6] فأخذها رايس من رؤساء الجزائر من التّرك يقال له: كجك علي، ودخل بها إلى الجزائر بعد ما وقع بينهما حرب، فوجد من جملة الرؤساء، ودخل

القانوني .سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوّج الملوك ظلّ الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والأسود والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان واذربجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة ... أنظر تاريخ الدولة العليّة، ص:85 .

1. هكذا وردت صياغة هذه الجملة في المخطوط، ص: 108 .

2. – من هذه العبارة التي هي من أصل عربي دخلت إلى اللّغات الأوروبية وصارت تعني GALA يعني خلعة التي تلبس في المناسبات الرسمية .

3. يقصد الإمبراطور شارلكان ملك النمسا وفي آن واحد ملكا لإسبانيا والبلاد المنخفضة (هولاندا) وامبراطورا لألمانيا وحاكما لجزء عظيم من إيطاليا الجنوبية وكانت جمهوريتا جنوة وفلورنسا تابعتين إليه وجمهورية البنادقة طوع أمره ومدينة وهران بإقليم الجزائر تابعة له وكذلك جزيرة مينورقة وجزيرة صقلية فكانت أملاكه محيطة بمملكة فرنسا من جميع الجهات إلاّ من جهة البحر» . أنظر كتاب: تاريخ الدولة العليّة، ص: 84 .

4. هذه الإضافة غير موجودة في المخطوط الذي اعتمده المترجم فونير دوباردي ولا وجود لها في «غزوات خيرالدين الذي نشره أحمد بن عبدالقادر سنة 1934 .

5. – ملأ .

6. – مدينة تقع على الساحل الغربي الجزائري .احتلّها الملكان الكاثولكيان إيزابيلا وفرناندو عام 1505 .

في شهرة عظيمة ؛ ثمّ إنّ كجك علي أحضر هذا الرايس إلى احسن آغا فقبّل يده وكشف عن رأسه وبقي داهشا من هيئته فسأله احسن آغا عن أخبار بلاد النصارى، فقال له الرّايس : " يا سيّدي إنّ سفينة تركتها تريد القدوم إلى بجاية[1]، فعند ذلك أمر احسن آغا أن تجهّز له أغربة[2] تطير في البحر كالأغربة [3] فصار في طلبها إلى نواحي بجاية وكمنوا لها بموضع يقال له: العشّ أو المنقار ؛ وكان في جملة رؤساء الجزائر كجك علي المتقدّم الذّكر فطلعت لهم تلك السّفينة ذاهبة إلى بجاية فقرّبوا منها وشرعوا في قتالها ؛ وكانت هذه السفينة في غاية الاستعداد للقتال فلم تزل مع أجفان المسلمين في أخذ وردّ إلى أن وقعت كورة في الحديد من دفّ من أجفان الكفّار فاشتعلت النّار فيه والتهبت في أطراف السفينة فعجز الكفّار عن إطفائها وألقوا بأنفسهم في الماء فالتقطهم المسلمون من البحر وأطفأوا النّار، فعند ذلك رجع الرايسان إلى الجزائر وهما كجك علي( )[4] بهذا الجفن ودخل إلى الجزائر في شهرة كبيرة وفرح بها احسن آغا غاية الفرح، وأمرهم بإنزال الغنيمة، فأنزلوا الكفّار وأحضروهم بين يديه ومعهم رايسهم ؛ وكانوا في حال طلوعهم إلى دار الإمارة تصفّف لهم النّساء والصّبيان ليتفرّجوا عليهم ؛ فلمّا وصلوا إلى احسن آغا أمر بهم إلى المحبس المعدّ للكفّار.

ولمّا سمع اللّعين صاحب إسبانيا بما تمّ لهذين الجفنين ؛ وكان أهل طاعته قد ضجّوا إليه بالشّكوى بما يفعله أهل الجزائر بهم خصوصا أهل السّواحل منهم بحيث أنّهم قالوا للطّاغية : " إمّا أن تكفينا أمر الجزائر

---

1. – مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر .

2. الأغربة هي السفن.

3. أي كالغربان أو الغرابيب.

4. بياض في المخطوط يدلّ على إسقاط الاسم الثاني الذي ربما هو حيدرة كما جاء في المخطوط ص: 109 .

وإمّا نعطي الطّاعة لصاحبها؟ فشرع في الحركة إلى الجزائر وأطلق النّداء في سائر أقطاره بذلك ( )[1]إليه جيوشه أفواجا أفواجا وزخرت إليه عساكره أفواجا أفواجا فوصل خبره إلى احسن آغا خليفة خيرالدّين فصدّق بذلك ولم يكذّبه، ثمّ أخذ في عرس حافل

و( )[2] عظيم ( )[3]يقال إنّه خرج من يده مال عظيم بسبب هذا العرس[4] كسا فيه وشبع وأرضى كلّ من أتاه ؛ وصار خبر هذا العرس في كلّ ناحية، ويقال إنّه من جملة ما فعل فيه من الفرجات أن نصب صار في باب الوادي وطلاه بالشّحم بحيث إنّه يلصق عليه الزر في جامورة شقة من الملف بفيسية ومعها صرّة من الذّهب وأباحها لمن صعد إليها، فجاء فتى من الأتراك صغير السنّ فلم يزل يلتصق شيئا فشيئا حتّى وصل إليها ونزل بها فتعجّب النّاس ممّا شهدوا منه، ولمّا تمّ هذا العرس صار مثلا سائرا ونزهة من نزه الدّنيا إذ روّجه إلى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدوّ ؛ فبنا أسوار المدينة وأصلح ما انهدم منها، ونصب عليها المدافع، وعلى سائر الأبراج، وعيّن أربعة مائة أسير من الكفّار لهذا البناء ؛ ثمّ إنّه بعث إلى شيخ المدينة وأمره أن يرفع إليه حساب رجال كلّ حومة[5] من الجزائر ففعل ذلك شيخ المدينة، وفي الوقت ذاته تتوارد أخبار العمارة كلّ حين على أهل الجزائر، فأمر احسن آغا بقطع أشجار البساتين كلّها خوفا من النصارى أن يتستّروا بها عند القتال، وأوّل ما

---

1. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص:109 .
2. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 109 .
3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 109 .
4. يقول شوفالييه :« ... ويمتد أمام باب الوادي أيضا ساحة حيث تجري فيها الأفراح والتسليات في أيام الأعياد (وخاصة عيد الفطر) وفي ذلك الوقت كانوا يمارسون ألعابا من كل الأنواع مثل ألعاب الإنكشاريين، المراجيح، لعبة صاري الحلوى .. وعندما تمّ ختان ابن احسن آغا سنة 1541 أقام حفلات لهو وتسلية رائعة ...» ص: 80، 81 .
5. هي الحي أو الحارة .

بدأ به هو بستانه فلم يترك به شجرة، وبينما هو جالس في يوم من الأيام بدار الإمارة دخل عليه حارس البحر الذي يقال له: صاحب النّاظور [1] وأخبره بانّ عمارة النصارى على ما يبدو، وهي عمارة كبيرة أخذت وجه الماء كلّه وسترته وشرعت في عدائها فتشوّش ناظري من ذلك لكثرتها ؛ فعند ذلك عيّن احسن آغا جملة من الخيل لتسير إلى جبل بوزريعة [2] ليأتوه بحقيقة عدد العمارة، فرجعت إليه وكلّ واحد يقول له:لم أقدر على إحصاء ما رأيت فالعدد كثير لا يحصى؛ ولإدراك ذلك أمر احسن آغا سيدي سعيد الشريف، وكان شيخ المدينة المذكور أن يوجّه خصوصا من أهل المدينة إلى الأبراج والأسوار برسم ( )[3] ومقاتلة العدوّ منها، فنهض شيخ المدينة الذكور وعيّن الرّجال للأبراج والأسوار ونُصبت الرّايات الإسلامية عليها، ووجّه احسن آغا رجاله إلى أبواب المدينة في طوائف من العسكر ؛ فعيّن لباب عزّون[4] رجلا من أعيان المدينة اسمه الحاج مام ؛ وكان مذكورا في الشجاعة والإقدام، فقام بما عيّن له أتمّ قيام ؛ وأمّا احسن آغا فأقام في حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه إلى العدوّ بحرا وبرّا، ومعه جماعة من العسكر وطبوله تصدع أصواتها إلى الجون[5]، وألويته المنصوبة تخفق على رأسه.

---

1. النّاظور هو المكان المرتفع أو البرج العالي المعدّ للمراقبة ويقال له النّاطور أيضا.ومنها جاء قول المتنبي:
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... أي نام حرّاس مصر .
2. يقع جبل بوزريعة في أعالي العاصمة الجزائرية بالناحية الغربية ولا يزال هذا الاسم إلى يومنا هذا .
3. كلمة غير مفهومة كتبت هكذا «مراستها»، المخطوط، ص:110 .
4. - هذا أحد أبواب الجزائر والمطلّ حاليا على ساحة الشهداء. جاء في كتاب: Histoire de Barberousse أنّ أثناء اقتحام جيش الملك الإسباني شارلكان الجزائر العاصمة تقدّم أحد المسيحيين المتعصّبين إلى باب عزّون وغرز خنجره فيه كما تقول الرواية :
« L'orsque Savignac, tenant d'une main l'etendart de la religion, ella ficher son poignard dans la Porte de Bab-Azoun. Quelques heures aprés, frappé d'un coup mortel, il expirait sur la plage enveloppé dans sa bannière ... Vol, I p :1
5. المقصود يصل صوتها إلى الصخرة المعروفة باسم «البنيون» El Penon والتي تعني الصخرة .

وجعل على باب هذا الحصن مدفعا عظيما يصعق الآدميّ عند صيحته وتزهق النّفس من دفعته، وجعل من هذا الحصن إلى القصبة قائدا ومعه طائفة من العسكر واسمه القايد احسن[1]، وعيّن لحراسته باب الوادي رجلا اسمه قايد يوسف ومعه جماعة من العسكر، وعيّن معه ثلاثة من القياد اسم أحدهم سافير، وجعله في برج من الأبراج، وقائد آخر اسمه أصلان عيّنه لقاع الصور، والقائد الثالث اسمه رمضان أقامه قريبا منه في بعض النّواحي، وأمّا كجك علي وحيدرة فإنّهما أقاما بباب الجزيرة[2] ومعهما قبطان السفن اسمه خضر، وجملة رؤساء البحر.

وأمّا أهل الجزائر من العسكر والأندلسيين[3] والبلدية[4] فإنّهم داروا بأسوارها بالمكاحل والسيوف والرّماح والنشّاب [5]. وأمّا عمارة النصارى وكان ظهورها يوم الأربعاء الثالث ليالي باقين من من جمادى الثانية وأربعين وتسعمائة (940 هـ) يوم الخميس وقت العصر بجون تمنفوست الموالي للجزائر ؛ فيقال إنّهم لمّا أرسوا سقط بعض ألويتهم في البحر والمسلمون ينظرون إليهم فحصل لهم تفاؤل وعلموا أنّ الله تعالى ينصرهم عليهم ؛ وكان نزول العدوّ إلى البرّ يوم الأحد، وكان سلطان إسبانيا دارت حوله عساكره، ويقال[6] إنّ عدّتهم تناهز تسعين ألفا، فأراد المسلمون أن

1. ربما هذا القائد هو الذي حامت حوله شبهات التعاون مع المسيحيين كما أشار إلى ذلك بعض الدارسين ونسبوا أمر الخيانة هذه إلى احسن آغا خليفة بربروس وهو ماتكذبه كل القرائن التاريخية. أنظر القضية في كتاب شوفالييه، ص: 87

2. باب الجزيرة الذي تقول له العامة اليوم «باب دزيرة» . وهو ناتج على العمل الذي استحدثه خيرالدّين سابقا. ويؤكد الأسير الإسباني الدكتور أنطونيو صوصا في مذكراته: طوبوغرافيا تاريخ الجزائر العام «أنّ مدينة الجزائر كان لها تسعة أبواب بدل من خمسة أبواب المعروفة، أنظر د. عبدالله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص: 62 .

3. يقول في المخطوط: والأندلوس. المخطوط، ص:110 .

4. يقول في المخطوط «البِلدية» . بكسر الباء ،ويعني بهم السكان الأصليين لمدينة الجزائر، المخطوط، ص: 110.

5. النشّاب: النّبال .

6. أكثر صاحب هذا المستدرك على المخطوط من استعمال الأفعال المبنية للمجهول ممّا يدلّ على أخذه لهذه

يمنعوهم من النّزول إلى البرّ بالحامّة[1] قرب البلد[2] ؛ وكان زعيم[3] من زعماء التّرك يقال له الحاج باشا عزم أن يضرب على العدوّ ليلا ففتح له باب المدينة واخذ الرّاية بيده وخرج معه جملة وافرة من المسلمين ؛ وكان خروجه من المدينة لمّا بقي الرّبع الأخير من اللّيل فلم يشعر العدوّ وهو في منزله الذي نزل به، وكان الفصل شاتيا لأنّهم وصلوا في شهر أكتوبر من الأشهر العجمية، والمسلمون قد خالطوهم ورموا عليهم بالمدافع دفعة واحدة ورشقوهم بالسّهام فحصلت فيهم رغبة عظيمة وانتبه مالكهم مدحورا من قومه، وصاح برجاله وخواصّه ووزرائه وقال لهم : " أهؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنّهم لا يقدمون لحربنا ؟ أنظروا ما عملوا بنا هذه اللّيلة " ؟ ثمّ إنّ المسلمين رجعوا إلى البلد، فعندها قتلوا منهم مقتلة عظيمة.

فلمّا كان يوم الاثنين تحرّكت النصارى إلى المدينة ومعهم الطّاغية حتّى قربوا الأسوار وهم يزعقون بأنفرتهم، وألويتهم منصوبة عليهم فخيّل لأهل الجزائر أنّه قد مُلئَ الفضاء ؛ وكان فيهم من الفرسان أربعة آلف فارس فشّرع في قتالهم من الأسوار بالمدافع وبنادق الرّصاص والسّهام ؛ وكان في ذلك اليوم تقدّم رجال من الأتراك إلى القتال وظهرت منهم شجاعة عظيمة ؛ رجل اسمه الحاج باشا وآخر اسمه الحاج مام وآخر يقال له القايد وآخر يقال له الحاج بكير ( ) [4] لأسوار المدينة قد جاوزوا المحلّ المعروف براس تافورة[5] وأنزلوا محلّتهم فأخذت تلك الوعور

المعلومات عن طريق الرواية المتواترة في زمانه والقريبة العهد من الأحداث حسب تسلسلها .

1. الحامّة هي منطقة تفصل ما بين الحرّاش ومدينة الجزائر ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وتقع في الجانب الشرقي من مدينة الجزائر.

2. المقصود بالبلد هي مدينة الجزائر وقد اعتاد الجزائريون على تسمية المدينة بالبلاد إلى يومنا هذا .

3. – يقصد بالزّعيم القائد .

4. – بياض في المخطوط يدلّ على أنّ هناك كلاما محذوفا، المخطوط، ص: 111.

5. لا يزال هذا المكان يحمل اسم تافورة ويقع أسفل البريد المركزي قرب محطّة القطار بمدينة الجزائر .

كلّها وشرعوا، كما ذكرنا، في قتال المدينة [1]، وهبّت عليهم مدافع المدينة بكور الحديد فمات كثير من العدوّ وعلموا أنّ لأهل الجزائر قوّة ودفاعا ؛ ولمّا حصل لهم ما حصل من دفاع المسلمين، وخاب رجاؤهم من المدينة، صعدوا ألويتهم منشورة إلى الكدية[2] المعروفة بكدية الصّابون وشرعوا في رمي البلاد من هذا وأهل الجزائر يرمون بالمدافع على العدوّ من كلّ ناحية بأصوات كأصوات الصّواعق النّازلة من السماء، وربّما وصل الرّمي إلى أجفانهم التي في البحر ؛ هذا ما وقع لهم من الحرب من الاثنين، وهذا اليوم الأوّل الذي تحرّكوا فيه إلى المدينة ؛ فلمّا كان اليوم الثالث أرسل الله في آخر اللّيل ريحا عاصفا فقطهت حبال أجفانهم ونشروا صواريهم خوفا من الهلاك، وتمّت هذه الرّيح في الزّيادة فتشوّش الجلنار[3] من ذلك واسمه أندري[4] وكذلك كل من كان معه في الأجفان، وساقت هذه الرّيح العظيمة التي أرسلها الله عليهم جملة من أجفانهم إلى البرّ فعطبت على السّاحل وخرج منها أسرى المسلمين، ومالت عرب أهل الجزائر على تلك الأجفان من الكفرة فاستأصلوهم قتلا.

فلمّا رأى الطّاغية ما حصل لأجفانه من الغرق والعطب انكسرت شوكته وأخذت ناره في الخمود، وظهرت عليه مخايل الذلّ، فخرج أهل

---

1. بحسب هذا التّحديد الدّقيق كان هجومهم من النّاحية الشرقية بحيث عسكروا في الحامّة ثمّ تقدّموا إلى راس تافورة ومنها إلى وسط المدينة القديمة التي تقع في القصبة الحالية.
2. الكدية تعني الرّبوة أو الهضبة .
3. أي الأميرال .ويعني به أجير شارلكان الجنوي أندري دوريا الذي شارك في هذه المعركة المصيرية .
4. هو الأميرال الشهير أندري دوريا

Andrea Doria :Almirante genovée. Estuvo al servicio de diversos principes italianos, entre ellos el Papa y Alfonso 2 de Nàples. Después de que Carlos 8 de Francia se apoderarse de Nàpoles, se puso al servicio de los Sforzza de Milan. De vuelta a Génova, requonquisto Corcega y derroto a los turcos en la batalla de Planosa, en 1519 Carlos V, al cual le entrego Génova, de donde fue gobernador. Véase Lengua, Paolo, Andrea Doria: principe e pirate nell'Italia del 500. Milàn, 1984.

المدينة صبيحة يوم الثلاثاء لقتاله في اجتهاد وعزم قويّ، وعلموا أنّ الله تعالى بهم حقيق فخالطوهم في أبنيتهم وقاتلوهم في تلك الأوعار، فأتى وجوهاء العسكر إلى السلطان وقالوا: "أيّها الملك قم بنفسك إلى الحرب فإنّ المحلّة على وشك الأخذ " ؛ فعند ذلك خرج الطّاغية ولتفّت عليه عساكره وأخذوا في القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين إلى راس تافورة، وجدّ الكفّار في قتالهم، وتكالبوا عليهم فتقهقروا أيضا إلى ملعب الكورة[1]؛ ثمّ إلى قنطرة الأفران[2]، ولمّا رأى الكفّار ذلك منهم تراكمت جيوشهم عليهم كالبحار الزّاخرة، وصاحوا عليهم من كلّ ناحية وطلبوهم من كلّ دانية وقاصية فتقهقر المسلمون ناحية سيدي أبي التّقى[3] ؛ فعند ذلك خرج المسلمون في وجوه الكفّار وواصلوا عليهم الرّمي بالحجارة والنشّاب ؛ وكان ذلك اليوم يسيل فيه المطر كأفواه القِرَبِ فرجع المسلمون وحملوا على الكفّار من كلّ ناحية فردّوهم على أعقابهم إلى المحلّة ورجع المسلمون إلى المدينة.

ولمّا كان صباح يوم الأربعاء ظهر للّعين أنّه لا طمع له في الجزائر، وأنّ الغنيمة أن ينجوَ بنفسه منها، وقربت أجفانه إلى البرّ ونزل الجلنار[4] أندري دوريا منها حزينا فوصل إلى الطّاغية بمحلّته فقبّل يده وقال له : " أيّها الملك ألم أحذّرك من السّفر إلى الجزائر فانظر عاقبة الأمر الذي كنت حذّرتك منه، الآن قم واطلب النجاة لنفسك فإنّ جلّ أجفانك قد عطب على السّاحل، فكيف يكون رجوع هذا العسكر إلى بلادهم، فها أنا أيّها الملك

---

1. ملعب الكرة، لابدّ أن يكون ملعبا لنوع من الكرة الخاصة آنذاك. وهو الملعب المشار إليه سابقا والتي أقيمت فيه احتفالات احسن آغا .
2. هكذا وردت مكتوبة في المخطوط وبالتّالي هناك قنطرة الأفران وملعب الكرة.
3. لا بدّ أن يكون أحد أضرحة أولياء الله الصّالحين.
4. الجلنار يقصد الأميرال.

الفهارس

أسماء الأعلام والقبائل والكُنى

التعريف بمحقق الكتاب

هو الدكتور عبد الله حمادي خرّيج جامعة مدريد المركزية (Complutense) بإسبانيا، متخصص في الأدب الإسباني واللاّتينو-أمريكي، يعمل أستاذا لمادّة الأدب بجامعة منتوري قسنطينة، ويتولّى حاليا رئاسة مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، أحرز على جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري المخصّصة لأفضل ديوان في الشعر العربي وذلك في دورة أكتوبر 2002 على ديوانه الشعري «البرزخ والسكين»، رئيس سابق لاتّحاد الكتاب الجزائريين، ومدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954...

شاعر ومترجم وباحث أنجز العديد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة والمنشورة في دور النشر الجزائرية والعربية والدولية نذكر منها :

- الدواوين الشعرية :

1 – الهجرة إلى مدن الجنوب ؛ نشر الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، SNED الجزائر، 1981.

2 – قصائد غجرية ؛ نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، ENAL الجزائر 1983

13 – مساءلات في الفكر والأدب ؛ نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994.

14 – الحركة الطلابية الجزائرية 1871 – 1962 منشورات الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين 1994 وطبعة ثانية منقحة ومزيدة نشر المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996.

15 – تحفة الإخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الراشدي القسنطيني؛ دراسة وتحقيق، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان 1997.

16 – أصوات من الأدب الجزائري الحديث ؛ نشر جامعة قسنطينة 2000 وطبعة ثانية نشر دار البعث بقسنطينة، الجزائر 2001.

17 – الشعرية العربية بين الاتّباع والإبتداع منشورات جامعة قسنطينة 2001 وطبعة ثانية نشر اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر 2002.

18 – مختارات من الشعر الجزائري الحديث ؛ منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإيدلع الشعري، الكويت 2001.

19 – أندلسيات (غرناطة والشعر) ؛ نشر دار البعث قسنطينة، الجزائر 2004.

20 – الأندلس بين الحلم والحقيقة، منشورات مخبر الترجمة طبع دار الهدى عين مليلة، الجزائر 2004.

21 – الشعر في مملكة غرناطة (La Poesia en el Reino Nazari de Granada) 1232 – 1492 (باللغة الإسبانية) نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2004.

22 – فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار لابن هذيل الغرناطي تحقيق وتقديم وتعليق، نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع

الشعري، الكويت 2004.

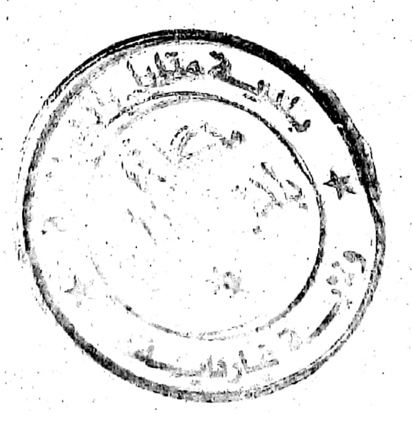
23 - ديوان أحمد الغوالمي ؛ تحقيق وتقديم، نشر وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر 2005.

24 - تَفُنَسْتْ، رواية، نشر المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر 2006.

25 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي الزاهري؛ إعداد وتقديم في جزأين، نشر دار بهاء الدين، قسنطينة الجزائر 2007.

26 - نُفَاضَةُ الجِراب (تأملات في الأدب والسياسة) ؛ نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008.

فهرس موضوعات الكتاب



عبد اللّه حمادي

سيرة المجاهد خير الدّين بربروس

إنّ هذا المخطوط المجهول المؤلف الذي يتعرّض صاحبه لسرد حياة المجاهد خيرالدّين بربروس، هو وثيقة نادرة تدلّ على أنّ مؤلفه كان على صلة بالأحداث التي عاشها خيرالدّين وإخوته، لكن ما يجعل مجال التخمين مفتوحا على مصراعيه هو غياب اسم مؤلفه والذي وعد ناسخ هذا المخطوط في آخره بأنّه سيُمكّن القُرَّاء من معرفته حين قال في آخر صفحة من المخطوط " ... انتهى ما وجد مقيّدا والحمد لله، وسوف أذكر تاريخ الكتاب، وأذكر فيه أصل الكاتب بعد هذا إنشاء الله "، لكن لسوء الطّالع يبقى هذا الأمل المرجوّ في حكم الغياب إلى يومنا هذا، وهو ما يجعلنا نلجأ إلى بعض القرائن والتّخمينات التي يمكن من خلالها معرفة المرحلة التي وضع فيها هذا المُصنّف الهام والنادر...

... يأتي هذا المخطوط النّادر، ليرسم سيرة أحد المشاهير في عالم البحار في القرن السادس عشر الميلادي، ويؤكّد على أنّ الأخوين بربروس هما حقيقة تاريخية كانت فاعلة في أحداث عصرها، ويفرد هذا المخطوط لسيرة خيرالدّين وجهاده الحيّز الأكبر ؛ فالكتاب جاء على شكل كتاب تكريمي لصانع الانتصارات المبهرة طوال أربعين سنة من حياته، كلّها فتوحات، وكلّها عمل واجتهاد توّجت بإنشاء دولة الجزائر التي صارت تنعت في الحوليات التّاريخية « بدار الجهاد » و « بعشّ لصوص البحر » من طرف أعدائها، أو « المدينة الدّولة » التي انكسرت على صخرتها الأساطيل الإسبانية وأطماع القراصنة الجنويين وغيرهم، أو (الجزائر المحروسة) المتغلغلة في المخيال الشعبي لسكان الجزائر منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا.

الدكتور عبد الله حمادي، خرّيج جامعة مدريد المركزية *(Complutense)* بإسبانيا، متخصص في الأدب الإسباني واللاّتينو أمريكي، يعمل أستاذا لمادّة الأدب بجامعة منتوري، قسنطينة، ويتولّى حاليا رئاسة مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات. أحرز على جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري المخصّصة لأفضل ديوان في الشعر العربي وذلك في دورة أكتوبر *2002* على ديوانه الشعري البرزخ والسكين، رئيس سابق لاتّحاد الكتاب الجزائريين، ومدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر *1954* ...

شاعر ومترجم وباحث، أنجز العديد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة والمنشورة في دور النشر الجزائرية والعربية والدولية.

صدر هذا الكتاب
بدعم من وزارة الثقافة

ردمك: 9- 817- 64- 9961- 978



دار القصبة للنشر